

النحو اتم والنكت المنثورة

على ما في “الأصول الستة”

من المهمات للأمة

تأليف أبي عبد الله رسيير بن مصطفى المغربي البربري



تقديم الشيخ أبي عمرو عبد الكريم بن أحمد الحجوري

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له،
وأشهد أن محمدا عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

أما بعد فقد اطلعت على “الخواتم والنكت المنثورة على ما في الأصول
الستة من المهمات للأمة” لأخينا الفاضل، الداعي إلى الله على علم وبصيرة،
أبي عبد الله رشيد بن مصطفى المغربي، فرأيت أنه أتى بفوائد طيبة، فجزاه الله
خييرا، ونفع به.

كتبه أبو عمرو الحجوري

١٤٤٢/١/٢٠

تقديم الشيخ أبي محمد عبد الحميد الحجوري

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وأشهد أن لا إله إلا الله،
وأشهد أن محمدا عبده، ورسوله، وصفيه، ومجتابه، صلى الله عليه وسلم ومن اهتدى
بغيره.

أما بعد فإن من أهم المهمات إقامة التوحيد والعقيدة، فبها صلاح الدنيا
والآخرة.

وقد صنف العلماء الشيء الكثير، المفيد، في هذا الباب نصحا للأمة. ومن
أنفس ما صنف في التوحيد ما سطره الإمام المجدد محمد بن عبد الوهاب
رحمه الله؛ حيث لخص علوم من سبقه، وتكلم في هذا المضمار، مع ما منحه الله
عز وجل من سهولة العبارة وحسن الإشارة. وكان من ذلك "الأصول الستة"؛
إذ أنها تضمن ستة أصول بها صلاح الدنيا والآخرة:

أولها الإخلاص لله عز وجل، الذي هو حق الله على العبيد، ويناقضه
الشرك والتنديد.

الثاني الاجتماع على دين الله **عز وجل** وضده الفرقة، سبيل البدع والمحرمات.

الثالثة طاعة أولياء الأمور في طاعة الله **عز وجل** وضده الخروج رأس الشر المروج.

الرابع بيان العلم الممدوح، وهو علم الكتاب والسنة، علم السلف أصحاب الحديث، وضده علم البدع، والكلام، والمحدثات، التي أفسدت الشعوب والأديان.

الخامس بيان أولياء الرحمن، وهم أهل التوحيد والسنة، من أولياء الشيطان، وهم أهل الشرك والبدعة؛ حيث قد اضطرب الناس في هذا الباب اضطربا كثيرا.

السادس بيان أن الاجتهاد جائز من أهله وضده التقليد وما يجر إليه من الشرك الأكيد.

وقد قام بشرح هذه الأصول الستة أخونا المبارك والداعي إلى الله أبو عبد الله رشيد المغربي **مفتي** **الله** في مؤلف بعنوان “الخواتم والنكت المنشورة على ما في الأصول الستة من المهمات للأمة”، فجزاه الله خيرا، ونفع به.

أبو محمد عبد الحميد الزحكري

١ محرم ١٤٤٢ هـ

الخواتم والنكت المنتشرة على ما في



٨



بسم الله الرحمن الرحيم

وعلى الله توكلت، فهو حسبي، ونعم الوكيل

الحمد لله ذي الكمال والإحسان، خالق الإنس والجان، الموجب سبحانه وتعالى عليهم أفراد عبادته بالقلب، والجوارح، واللسان، والمفترض تبارك وتعالى عليهم الإخلاص فيها بالجنان؛ إذ هو عز وجل وحده المنعم عليهم، الكريم، المنان. وله الحمد سبحانه وتعالى لكمال علمه بما ينتفع به الثقلان؛ فأمرهم بالاعتصام جميعاً حول السنة والقرآن. وذلك حبل الله المتين الذي يفضي بمن تمسك به إلى الجنان، ويبعده عن العذاب في النيران. والصلاة والسلام على خليل الرحمن، أرسله الله بالهدى وخير الأديان؛ ليظهره على الدين كله ولو كرهه أهل الكفران والطغيان. أرشد ﷺ الأمة لما لها فيه أعظم الفوز وما به نجاتها في الدنيا وعند الميزان. من نهل من هذه العلوم، وعمل بها، كان من العلماء ذوي الخشية، وصار بذلك من أولياء الرحمن. ومن أعرض عنها، ولم يعمل بها، صار من أولياء الشيطان، ولم ينل في هذه الدنيا والآخرة إلا الخسران.

أما بعد فبين يدي القارئ ما فتح الله **تبارك وتعالى** علي، ويسره لي، من النكت على كتاب الإمام المجدد محمد بن عبد الوهاب **رحمته الله** "الأصول الستة". وكان منشأ ذلك رغبة بعض إخواني في تدريسي لهم كتابا مختصرا في باب التوحيد والعقيدة، وقد قيدوا رغبتهم بما يسهل على المبتدئين فهمه. ف وقعت الخيرة على هذا الكتاب؛ فإنه مع صغر حجمه متناول لعدة أصول يجب على المبتدئ فهمها والعمل بها. وقد قال الشيخ عبد السلام بن برجس **رحمته الله** في شرحه لـ "الأصول الستة" (ص ١١): هذا المتن من المتون التي ينبغي الاهتمام بها، وأن ينشأ عليه طلبة العلم من أهل السنة. اهـ.

وكان أصل هذه النكت تفريغ الصوتيات التي سجلت فيها الدروس المشار إليها. وكان الذي قام ببعض هذا العمل أخانا رشيدا أبا صهيب المغربي محبة منه للخير، ومشاركة منه لإخوانه في نشر دين الله الحق. فجزاه الله عنا وعن المسلمين خير الجزاء.

وأحببت بالمناسبة تبشيره بما أخرج به الإمام مسلم **رحمته الله** في "صحيحه" (٣٨) - (٢٦٩٩) من حديث **أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ**، قال: قال رسول الله **ﷺ**: «من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة. ومن يسر على معسر يسر الله عليه في الدنيا والآخرة. ومن ستر مسلما ستره الله في الدنيا والآخرة. والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه. ومن سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل الله له به طريقا إلى الجنة. وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله، ويتدارسونه بينهم، إلا نزلت

عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده. ومن بطأ به عمله لم يسرع به نسبه».

ثم راجعت هذا العمل فميزت كلام الإمام محمد بن عبد الوهاب رحمته الله بجعله أعلى الصفحة، وجعلت ما فتح الله علي من النكت تحت ذلك. ثم أضفت إلى النص المفرغ ما يكمل فائدة هذه النكت؛ حيث تصرف في الكلام بما رأيته أنسب لإخراج الكتاب من حيز المسموع إلى حيز المطبوع. ثم قدر الله تبارك وتعالى أمورا وراءها أخرى، فكانت نتيجتها إنهائي للكتاب على صورة التأليف المستقل.

وأخيرا أحببت أن أسجل ههنا ما يزيل إثارة التعجب من التطويل لهذه النكت، وذلك أنني لم أجد لترك التوسع فيها سبيلا لما للموضوع من الأهمية. والسبب في ذلك ما وقع من الإهمال الكثير للأصول المذكورة في الكتاب علما، ولما حصل فيها أيضا، من الإخلال المفرط عملا.

وإليك بهذه المناسبة ما أفاده العلامة الإثيوبي رحمته الله في “ذخيرة العقبى” (٧/١)؛ حيث قال: اسمع ما قاله الإمام النووي رحمه الله تعالى في أوائل شرحه لـ “صحيح مسلم” بعد ذكره لدقائق بعض الأسانيد، فقد قال رحمه الله تعالى: لا ينبغي للناظر في هذا الشرح أن يسأم من شيء من ذلك بما يجده مبسوطا، واضحا؛ فإني إنما أقصد بذلك -إن شاء الله الكريم- الإيضاح، والتيسير، والنصيحة، لمطالعه، وإعانتة وإغنائه من مراجعة غيره في بيانه، وهذا مقصود الشروح.

فمن استطال شيئاً من هذا، وشبهه، فهو بعيد من الإِتقان، مباعد للفلاح في هذا الشأن. فليعز نفسه لسوء حاله، وليرجع عما ارتكبه من قبيح فعالة. ولا ينبغي لطالب التحقيق، والتنقيح، والإِتقان، والتدقيق، أن يلتفت إلى كراهة، أو سامة، ذوي البطالة وأصحاب الغباوة، والمهانة، والملالة. بل يفرح بما يجده من العلم مبسوطاً، وما يصادفه من القواعد والمشكلات واضحة، مضبوطاً، ويحمد الله الكريم على تيسيره، ويدعو لجامعه الساعي في تنقيحه، وإيضاحه، وتقريره.

وفقنا الله الكريم لمعالي الأمور، وجنبنا بفضله جميع أنواع الشرور، وجمع بيننا وبين أحبائنا في دار الخبور والسرور. والله أعلم. انتهى ما قاله النووي في "شرح مسلم" (ج ١ ص ١٥٢). اهـ المراد.

والله سبحانه وتعالى أسأل أن يوفقني، ويسددني، لما يحبه، ويرضاه.



مقدمة المصنف

قال المصنف:

مصنف المتن **رحمه الله** من مشاهير علماء نجد. وقد كتب في ترجمته الخير الكثير بحيث يتأتى لمن أراد التوسع في هذا المجال أن يظفر ببغيته بسهولة، والله الحمد والمنة.

وقد استفاض فضل هذا الإمام، واشتهر إصلاحه، على رغم محاولات فاشلة صدرت من بعض الأشرار في سبيل تشويه سمعته. والمحرك لهؤلاء الجهل تارة، والحسد تارة، وأمور من السياسة المذمومة تارة أخرى.

وقد نقل العلامة تقي الدين الهلالي المغربي شيئاً من ذلك، ورده على من جاء به؛ فقال في “الدعوة إلى الله” (ص ٥٥-٥٦): وإنما فعلت ذلك؛ لأن المتأخرين من رجال الدولة العثمانية حرضوا شرار العلماء في جميع البلاد الإسلامية على تشويه سمعة الشيخ محمد بن عبد الوهاب. وكذبوا عليه، وأوهموا أتباعهم أنه جاء بدين جديد، وأنه يتنقص جانب النبي الكريم، ويكفر المسلمين... إلى غير ذلك من الأكاذيب.

وقد تبين لأكثر الناس بطلان تلك الدعوى، وعلموا علم اليقين أن محمد بن عبد الوهاب من كبار المصلحين، الذين فتح الله بدعوتهم عيوناً عمياً، وآذاناً صماً، وأنه أحيا العمل بكتاب الله وسنة رسوله في جزيرة العرب بعد ما كاد يندثر.

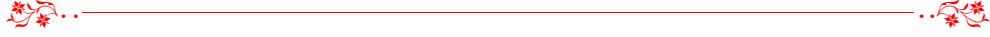
ومما صدر اتجاه هذا الإمام على سبيل الجهل ما ذكره الشيخ تقي الدين الهلالي رحمته الله عن بعض من ينسب إلى العلم؛ حيث قال له كما في "رسائله" (١/ ١٤٢) - (١٤٤): «وأريد أن أنبهك على سبيل النصيحة الواجبة على عبارة جاءت في الكتاب المذكور، وهي قولك في الفصل الذي حذرت فيه الناس من الطوائف الضالة ما نصه: «ومنهم الوهابيون الذين يتهاونون بقدر النبي ﷺ ... إلخ»، ولا شك أنك تعني بالوهابيين أهل دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمته الله.

وَأَنْتَ لَمْ تَخَالْطَهُمْ، وَلَمْ تَعْرِفْهُمْ، وَلَمْ تَقْرَأْ كِتَابَهُمْ. وَلَوْ عَرَفْتَهُمْ لَاسْتَغْفَرْتَ اللَّهُ **عَمَلًا**، وَرَجَعْتَ عَمَّا قُلْتَهُ فِيهِمْ، وَقَدْ قَالَ **عَمَلًا**: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ﴾ الْآيَةُ [الحجرات: ٦].

وأنا عاشرتهم في بلادهم، وقرأت كتبهم، وعلمت يقينا أن ما ينسبه المبتدعون والمشركون إليهم هو من جنس ما ينسبونه إليك إما جهلا، أو تجاهلا. اهـ.

وهذا الدِّفاع من هذا العلامة المغربي **رحمته الله** من عجيب صنع الله سبحانه وتعالى، وحكمته البالغة، وآية من آياته التي ينبغي التفكير فيها، وهو القائل **سجد وحده**: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَدْفَعُ عَنِ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [الحج: ٣٨].

وينصح من كان على شاكلة من تقدمت الإشارة إليه من الغربان، ومن جهل قدر هذا الإمام، ولم يعرف من هو على حقيقته، بقراءة ما ألف في ترجمته. وبالمناسبة أحببت أن أشير إلى سيرته العطرة بذكر نبذة منها في الفصل التالي.



نبذة من ترجمة الإمام محمد بن عبد الوهاب:

من أحسن ما اطلعت عليه من المختصرات في ترجمة هذا الإمام ما ذكر الشيخ دغش بن شبيب العجمي في المطلب الأول من دراسته لـ “كتاب التوحيد” (ص ١٢-١٥)؛ حيث قال: هو الشيخ، الإمام، العلامة، المجدد لما اندرس من معالم الإسلام، مصباح الظلام ومفيد الأنام، محمد بن عبد الوهاب بن سليمان بن علي ابن مشرف الوهبي، التميمي، النجدي، الحنبلي.

مولده: ولد عام ١١١٥ هـ في قرية العيينة، ونشأ فيها، وترعرع.

مرحلته في طلب العلم: كانت أولى رحلاته إلى مكة والمدينة عام ١١٣٦ هـ حاجاً لله تعالى، وساعياً لأخذ العلم عن علماء الحرمين.

ثم رحل للبصرة والزيير، وجلس هناك، وأخذ العلم عن العلماء... وأنكر ما شاهده من شذريات عند العوام والجهلة، فأوذي في الله. فخرج منها إلى الأحساء، وجالس العلماء هناك، واستفاد منهم.

ثم عاد إلى حريملاء حيث كان والده يقيم فيها، إلى أن توفي والده سنة ١١٥٣ هـ، ومنها عاد للعينة عام ١١٥٧ هـ.

دعوته: جهر بالدعوة إلى التوحيد في البصرة، وأوذي هناك؛ حيث أغري به العامة والغوغاء حتى أخرج منها.

ولما عاد إلى حريملاء صدع بالحق هناك أيضاً، فاستجاب له الناس.

ثم انتقل إلى العيينة، وناصره أميرها ابن معمر. ثم هدده صاحب الأحساء بأنه إن لم يخرج الشيخ فإنه سيفعل، ويفعل... فانتقل الشيخ منها إلى الدرعية في نجد، فتلقيه أميرها الإمام محمد بن سعود عام ١١٥٧ هـ. وقبل دعوته، وأزره،

وناصره، فانتشرت الدعوة، كما آزره أبناءؤه من بعده، الإمام عبد العزيز، ثم سعود ابن عبد العزيز.

وكانت دعوته هي الشعلة الأولى لليقظة الحديثة في العالم الإسلامي، فنفض الناس الغبار عنهم، وانتشر التوحيد والسنة، وثاب الناس إلى دين الله عز وجل.

ومع الدعاية المغرضة التي كانت تسيء للشيخ ولأهل نجد إلا أن الله ناصر دينه ومعل كلمته، ولو كره الضالون والمضلون.

ولفظ الترمذي: «صاحب السنة إذ مات أحياء ذكره، والمبتدع لا يذكر».

أنت تشاهد أن كتب الإمام طبع، وانتشرت في كل مكان، وعموم خصومه لا تعرف أسماؤهم فضلا عن كتبهم. وقامت في جزيرة العرب دولة تناصر منهجه وطريقته السلفية الواضحة، النقية -أعني المملكة العربية السعودية-، من ذلك

..

اليوم إلى يومنا هذا، وأثرت على ما حولها من دول الخليج، أدامها الله على التوحيد والسنة، ونشر الخير والأمان في ربوعها.

مؤلفاته: طبعت مؤلفاته ضمن "مؤلفات الشيخ محمد بن عبد الوهاب" في خمسة عشر مجلدا، طبعتها جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض. ومن أشهر ما طبع مفردا، واعتنى العلماء بشرحه "كتاب التوحيد" -وهو كتابنا هذا-، و"كشف الشبهات"، و"أصول الإيمان"، و"الأصول الثلاثة"، و"مسائل الجاهلية" وغيرها.

وفاته: بعد عمر طويل قضاه في العلم، والتعليم، والجهد في سبيل الله، وافته المنية سنة ١٢٠٦ هـ، وله من العمر قريبا من ثنتين وتسعين سنة. وحزن الناس حزنا عظيما لفراقه، **رحمه الله**، وغفر له. اهـ.

به وصول دعوة الإمام محمد بن عبد الوهاب إلى المغرب:

مما امتاز به السلطان سليمان **رحمه الله**، ملك المغرب، في تلك الحقبة الزمنية اتجاه دعوة الإمام المجدد محمد بن عبد الوهاب ما أفاده الشيخ محمد تقي الدين الهلالي **رحمه الله** كما في "الانتصار للسنة" (ص ٩-١١)؛ حيث قال: وسبب إيفاد السلطان المولى سليمان المذكور هذا الوفد واهتمامه به هذا الاهتمام أن الملك السعودي عبد الله، ملك الدولة السعودية، المشتعلة على نجد والحجاز، لما فتح الله له الحجاز، وتوطدت دولته، كتب إلى جميع ملوك المسلمين وأمرائهم، يشرح لهم دعوة الدولة السعودية وعقيدتها المطابقة للكتاب والسنة، وينفي عنها ما نسبه إليها فقهاء السوء في جميع البلدان من أنها تكفر المسلمين، ولا تعظم النبي **ﷺ** كما ينبغي لكل مسلم حنيف أن يفعله.

وقد أغرى رجال الدولة العثمانية فقهاء السوء في جميع البلاد الإسلامية التي يشملها حكمهم، وطعنوا في الدولة العربية السعودية؛ لأنها طهرت الحرمين الشريفين من الشرك والعقائد الفاسدة، ومنعتهم من التسليط عليهما وعلى ما جاورهما من البلاد كنجد والعراق.

ومن جملة الملوك الذين كتب إليهم ملك الدولة السعودية، عبد الله بن سعود، ملك المغرب، المولى سليمان بن محمد بن عبد الله العلوي، من آل بيت النبي ﷺ.

ولم يستطع غيره من الأمراء والرؤساء أن يبعثوا وفودا إلى الحرمين للاجتماع بالملك السعودي ومعرفة ما يدعو إليه؛ لأنهم لم يكونوا مستقلين، أحرارا، أقوياء، كما كان ملوك المغرب، لأن الدولة العثمانية كانت مستولية على بلاد العرب، ومصر، وبلدان الشمال الإفريقي كلها إلا المغرب الأقصى؛ فإنها لم تستطع أن تستولي عليه مع استيلائها على الجزائر المجاورة له.

ولذلك انفرد المولى سليمان **رحمة الله**، ملك المغرب، بهذه المزية، وأنشاء هذه الخطبة المباركة، وأمر جميع المساجد أن يخطبوا بها على الشعب المغربي لتنوير العقول وإعلان براءة الدولة وسنة رسوله. فقدس الله روحه، ورحمه وسائر ملوك هذه الدولة العلوية. اهـ.



بسم الله الرحمن الرحيم

قوله: ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ افتتح المصنف كتابه بالبسملة، وله ولغيره من العلماء في ذلك مقاصد شتى...

فمن ذلك الاقتداء بكتاب الله **تبارك وتعالى** حيث بُدئ فيه بالبسملة. وحري بمن اقتدى بالطريق التي يهدي لها القرآن أن يوفق في عمله، قال الله **عز وجل**: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩].

ومن ذلك التأسي برسول الله **ﷺ**؛ فإنه كان يبدأ رسائله بذكر البسملة. ومن أشهر ما ورد في هذا الباب كتابه **ﷺ** لهرقل. وذلك ما أخرجه الإمام البخاري في “صحيحه” (٧) والإمام مسلم في “صحيحه” (٧٤)–(١٧٧٣) من حديث **أبي سفيان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ**، وفي الحديث: ثم دعا بكتاب رسول الله **ﷺ** الذي بعث به دحية إلى عظيم بصرى، فدفعه إلى هرقل، فقرأه. فإذا فيه: «بسم الله الرحمن الرحيم من محمد عبد الله، ورسوله، إلى هرقل...» الحديث.

ونظير فعل نبينا **ﷺ** ما دل عليه كتاب الله من افتتاح سليمان **عليه السلام** كتابه لملكة سبأ بالبسملة، قال الله **عز وجل** في هذه القصة: ﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلَمُوا عَلَيَّ وَأُتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ [النمل].

ومن المقاصد التي لأجلها يفتح العلماء كتبهم بالبسملة حصول البركة. وإذا حلت البركة في الكتاب ثبت فيه الخير بإذن الله **تعالى**. وفي الباب ما أخرجه الإمام أبو داود **رحمته الله** في “السنن” (٥٠٨٨)؛ حيث قال: **حمرنا** عبد الله بن مسلمة، ثنا أبو مودود، عمن سمع أبان بن عثمان، يقول: سمعت **عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ** –يعني ابن

..

عفان-، يقول: سمعت رسول الله ﷺ، يقول: «من قال: بسم الله الذي لا يضر مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء، وهو السميع العليم، ثلاث مرات لم تصبه فجأة بلاء حتى يصبح. ومن قالها حين يصبح ثلاث مرات لم تصبه فجأة بلاء حتى يمسي».

وقد حسن الحديث بمجموع طرقه الشيخ مقبل رحمه الله في "الجامع الصحيح" (٤٥٦٢). وفيه ما يدل على انتفاء الضرر عن الشيء الذي يذكر اسم الله معه. وإذا زال عنه الضرر حل مكانه الخير بإذن الله، وثبت، وهذه هي البركة.

ولعل من هذا الباب كذلك ما أخرجه الإمام أبو داود في "السنن" (٤٩٨٢)؛ حيث قال: **هرثنا** وهب بن بقية، عن خالد -يعني ابن عبد الله-، عن خالد -يعني الحذاء-، عن أبي تيممة، عن أبي المليح، عن **رجل** رضي الله عنه، قال: كنت رديف النبي ﷺ فعثرت دابته، فقلت: تعس الشيطان. فقال: «لا تقل: تعس الشيطان. فإنك إذا قلت ذلك تعاظم حتى يكون مثل البيت. ويقول: بقوتي. ولكن قل: باسم الله. فإنك إذا قلت ذلك تصاغر حتى يكون مثل الذباب».

وقد صحح هذا الحديث الشيخ مقبل رحمه الله في "الجامع الصحيح" (٣٩٩٤).

بسم متعلق الجار والمجرور في البسملة:

لما اشتملت البسملة على الجار والاسم المجرور نظرنا في متعلقهما، فوجدنا في المسألة اختلافًا؛ إذ قد قدره بعضهم اسماً، بينما ذهب آخرون إلى تقديره فعلاً. والأخير هو الأرجح لأمر قد ذكر بعضها شيخنا أبو بلال **حفنله الله** في تعليقه على "شرح القطر" (١٩/١)، الحاشية (١)؛ حيث قال: الراجح مذهب الكوفيين؛ لأن الأصل في العمل للأفعال.

..

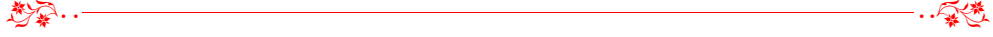
وأيضاً، لكثرة التصريح به، ومنه ﴿أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ [العلق: ١]. اهـ المراد.

وعلى هذا فالتقدير المناسب لسياق كلام المصنف **رحمة الله** بسم الله أكتب. واختيارنا لهذا التقدير للمعاني التي ذكرها الشيخ عبد الرحمن بن حسن **رحمة الله** في «فتح المجيد» (ص ٢١)؛ إذ قال: الباء في «باسم الله» متعلقة بمحذوف، اختار كثير من المتأخرين كونه فعلاً، خاصاً، متأخراً. **أما كونه فعلاً** فلأن الأصل في العمل للأفعال. **وأما كونه خاصاً** فلأن كل مبتدئ بالبسملة في أمر يضمّر ما جعل البسملة مبدأ له.

وأما كونه متأخراً فلدلالته على الاختصاص. اهـ المراد.

به حوّل لفظ الجلالة واشتقاقه:

قال الحافظ ابن كثير في «تفسيره» (٤٧/١) أثناء كلامه على لفظ الجلالة: هو اسم لم يسم به غيره **تبارك وتعالى**. ولهذا لا يعرف في كلام العرب له اشتقاق من «فعل يفعل»، فذهب من ذهب من النحاة إلى أنه اسم جامد، لا اشتقاق له. اهـ. ونقل الحافظ ابن القيم **رحمة الله** في «البدائع» (٣٩/١) هذا القول عن بعضهم وما احتجوا به؛ إذ قال: زعم السهيلي وشيخه أبو بكر بن العربي أن اسم الله غير مشتق؛ لأن الاشتقاق يستلزم مادة يشتق منها، واسمه **تعالى** قديم، والقديم لا مادة له، فيستحيل الاشتقاق. ولا ريب أنه إن أريد بالاشتقاق هذا المعنى، وأنه مستمد من أصل آخر، فهو باطل.



لكن الذين قالوا بالاشتقاق لم يريدوا هذا المعنى، ولا ألم بقلوبهم. وإنما أرادوا أنه دال على صفة له **نعال**، وهي الإلهية، كسائر أسمائه الحسنی كالعليم، والقدير، والغفور، والرحيم، والسميع، والبصير؛ فإن هذه الأسماء مشتقة من مصادرها بلا ريب، وهي قديمة، والقديم لا مادة له.

فما كان جوابكم عن هذه الأسماء فهو جواب القائلين باشتقاق اسم الله. ... ثم الجواب عن الجميع أنا لا نعني بالاشتقاق إلا أنها ملاقية لمصادرها في اللفظ والمعنى، لا أنها متولدة منها تولد الفرع من أصله. اهـ المراد. ويوضحه ما قاله الإمام الشوكاني في "الإرشاد" (ص ٤٣): الاشتقاق أن تجد بين اللفظين تناسبا في المعنى والتركيب، فتزد أحدهما إلى الآخر. اهـ.

فإذا فهم المعنى الصحيح للاشتقاق في أسماء الله **سبحانه ونعاه** فهم أصل عظيم في هذا الباب، وذلك ما قاله الإمام ابن القيم **رحمته الله** في "المدارج" (١ / ٨٢): إن أسماء الرب **نباركه ونعاه** دالة على صفات كماله، فهي مشتقة من الصفات، فهي أسماء، وهي أوصاف. وبذلك كانت حسنى؛ إذ لو كانت ألفاظا لا معاني فيها لم تكن حسنى، ولا كانت دالة على مدح ولا كمال، ولساغ وقوع أسماء الانتقام والغضب في مقام الرحمة والإحسان وبالعكس، فيقال: «اللهم! إني ظلمت نفسي، فاغفر لي، إنك أنت المنتقم»، و«اللهم! أعطني؛ فإنك أنت الضار، المانع». اهـ.

وإذا كان الأصل في أسماء الله **نعال** الاشتقاق اقتضى إجراء هذا الأصل في لفظ الجلالة اشتقاقه كذلك. وقد قال الحافظ ابن كثير أثناء كلامه على لفظ الجلالة في "تفسيره" (١ / ٤٨): وقد استدل بعضهم على كونه مشتقا بقوله **نعال**: ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ٣]، [أي: المعبود في السماوات والأرض]، كما

..

قال **نعل**: ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهُ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهُ﴾ [الزخرف: ٨٤]. ونقل سيبويه عن الخليل أن أصله إله مثل فعال، فأدخلت الألف واللام بدلا من الهمزة. قال سيبويه: مثل الناس، أصله أناس. اهـ.

ثم نقل **رمه الله نعل** ما يقرب من هذا؛ حيث قال: قال الكسائي والفراء: أصله الإله، حذفوا الهمزة، وأدغموا اللام الأولى في الثانية كما قال **نعل**: ﴿لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي﴾ [الكهف: ٣٨]، أي: لكن أنا. اهـ.

وتوجيهه بما قاله الإمام الطبري في “تفسيره” (١/ ١٢٤): قال الشاعر:

وترمينني بالطرف أي أنت مذنب وتقليني لكنا إياك لا أقلني

يريد لكن أنا إياك لا أقلني، فحذف الهمزة من «أنا»، فالتقت نون «أنا» ونون «لكن» وهي ساكنة، فأدغمت في نون «أنا»، فصارتا نونا مشددة.

فكذلك «الله» أصله الإله، أسقطت الهمزة، التي هي فاء الاسم، فالتقت اللام، التي هي عين الاسم، واللام الزائدة، التي دخلت مع الألف الزائدة وهي ساكنة، فأدغمت في الأخرى، التي هي عين الاسم، فصارتا في اللفظ لاما واحدة مشددة. اهـ المراد.

بـ تحويل لفظ المجلدة ووللته:

قال الإمام ابن فارس في أصل مادة «أله» من «المقاييس»: هو التعبد، فالإله الله **نعل**، وسمي بذلك؛ لأنه معبود. ويقال: «تأله الرجل» إذا تعبد. قال رؤية:

لله در الغانيات المدة سبحن واسترجعن من تألهي

والإلهة الشمس، سميت بذلك؛ لأن قوما كانوا يعبدونها. اهـ المراد.

ونستفيد مما تقدم بيانه ما يستعان به في فهم ما أفاد الإمام ابن القيم **رحمه الله تعالى** في "المدارج" (١ / ٨٩)؛ حيث قال في سياق كلامه على لفظ الجلالة: فإنه دال على إلهيته المتضمنة لثبوت صفات الإلهية له مع نفي أضدادها عنه. وصفات الإلهية هي صفات الكمال، المنزهة عن التشبيه والمثال، وعن العيوب والنقائص.

ولهذا يضيف الله **تعالى** سائر الأسماء الحسنى إلى هذا الاسم العظيم كقوله **تعالى**:

﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ [الأعراف: ١٨٠].

ويقال: «الرحمن والرحيم، والقدوس والسلام، والعزیز والحكيم، من أسماء الله». ولا يقال: «الله من أسماء الرحمن» ولا: «من أسماء العزيز». اهـ المراد.

بِسْمِ اسْمَاءِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ:

قال الحافظ ابن كثير **رحمته الله** عن هذين الاسمين في "تفسيره" (١/ ٤٩): اسمان مشتقان من الرحمة على وجه المبالغة، ورحمن أشد مبالغة من رحيم. وفي كلام ابن جرير ما يفهم منه حكاية الاتفاق على هذا. اهـ المراد.

قال الإمام ابن القيم **رحمه الله تعالى** في "المدارج" (١ / ٩١) في توجيه المبالغة المشار إليها في اسم الرحمن: ... مع ما في اسم الرحمن الذي هو على وزن فعلان من سعة هذا الوصف وثبوت جميع معناه الموصوف به. ألا ترى أنهم يقولون: «غضبان» للممتلئ غضبا، و«ندمان»، و«حيران»، و«سكران»، و«لهفان»، لمن ملئ بذلك.

فبناء فعلان للسعة والشمول، ولهذا يقرن استواءه على العرش بهذا الاسم كثيرا كقوله **نمل: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ أُسْتَوَى﴾ [طه: ٥]**، **﴿ثُمَّ أُسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ﴾ [الفرقان: ٥٩]**، فاستوى على عرشه باسم الرحمن؛ لأن العرش محيط بالمخلوقات، قد وسعها، والرحمة محيطة بالخلق، واسعة لهم، كما قال **نمل:**

من أعجب العجائب، وأكبر الآيات الدالة على قدرة الملك،...

.....

﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦]، فاستوى على أوسع المخلوقات بأوسع الصفات، فلذلك وسعت رحمته كل شيء. اهـ المراد.

بـ نكتة اللفظ (دال) بين الاسمين:

قال الإمام ابن القيم في “البدائع” (١/ ٤٢) في بيان النكتة المستفادة من الجمع بين هذين الاسمين: هو أن الرحمن دال على الصفة القائمة به سبحانه، والرحيم دال على تعلقها بالمرحوم، فكان الأول للوصف، والثاني للفعل. الأول دال على أن الرحمة صفته، والثاني دال على أنه يرحم خلقه برحمته. وإذا أردت فهم هذا فتأمل قوله: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣]، ﴿إِنَّهُ وَبِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٧]. ولم يجئ قط رحمن بهم، فعلم أن رحمن هو الموصوف بالرحمة، ورحيم هو الراحم برحمته. وهذه نكتة لا تكاد تجدها في كتاب. اهـ المراد.

قوله: ﴿من أعجب العجائب﴾ قال الشيخ عبد السلام بن برجس رحمه الله تعالى في شرحه لـ “الأصول الستة” (ص ١٢): أي: من أكثر ما يثير العجب ما عليه الناس في هذا الزمان، زمان الشيخ، من التعامل مع هذه الأصول الستة وحالهم معها؛ حيث إنهم جهلوا هذه الأصول، فلم يعلموها، أو علموها، ولم يعملوا بها، على الرغم من شدة بيانها ووضوحها، فهذا أمر داع للتعجب! وهذا سبب تأليف الشيخ لهذه الرسالة؛ ليزيل سبب هذا العجب. اهـ.

قوله: ﴿الملك﴾ قال الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى في “شفاء العليل” (ص ٢٢٠): الملك الحقيقي ثابت له سبحانه بكل وجه. وهذه الصفة تستلزم سائر صفات الكمال؛

الغلاب...

إذ من المحال ثبوت الملك الحقيقي، التام، لمن ليس له حياة، ولا قدرة، ولا إرادة، ولا سمع، ولا بصر، ولا كلام، ولا فعل اختياري يقوم به.

كيف يوصف بالملك من لا يأمر ولا ينهى، ولا يشب ولا يعاقب، ولا يعطي ولا يمنع، ولا يعز ويذل، ويبين ويكرم، وينعم وينتقم، ويخفض ويرفع، ويرسل الرسل إلى أقطار مملكته، ويتقدم إلى عبيده بأوامره ونواهيهِ؟ فأَي ملك في الحقيقة لمن عدم ذلك؟ هذا يبين أن المعطلين لأسمائهم وصفاته جعلوا ممالكهم أكمل منه! ويأنف أحدهم أن يقال في أميره ومملكه ما يقوله هو في ربه.

فصفة ملكية الحق مستلزمة لوجود ما لا يتم التصرف إلا به. اهـ المراد.

بـ فلتة في الفرق بين المثلث والمثلث:

وذلك ما قال فيه شيخ الإسلام **رحمه الله** كما في "تفسيره" (١/ ٨٨): فإن الملك هو الذي يتصرف بالأمر، يأمر فيطاع. ولهذا يقال: «ملك» لحي، مطاع الأمر، لا يقال للجماادات لصاحبها: «ملك»، إنما يقال له: «مالك». ويقال ليعسوب النحل: «ملك النحل»؛ لأنه يأمر فيطاع. والمالك القادر على التصرف في المملوك. اهـ.

قوله: { الغلاب } قال الإمام ابن القيم **رحمه الله تعالى** في **"البدائع"** (٢٨٥ / ١) أثناء ذكره لبعض الأمور التي يجب علمها في باب أسماء الله **تعالى** وصفاته: إن ما يطلق عليه في باب الأسماء والصفات توقيفي. وما يطلق عليه من الإخبار لا يجب أن يكون توقيفيا كالقديم، والشئ، والموجود، والقائم بنفسه.

فهذا فصل الخطاب في مسألة أسمائه؛ هل هي توقيفية، أو يجوز أن يطلق عليه منها بعض ما لم يرد به السمع؟ اهـ.

ستة أصول...

وعلى هذا فقول المصنف **رحمته الله**: «الغالب» يحمل على إرادته الإخبار بذلك؛ إذ إثباته اسماً لله **سبحانه** مفتقر إلى دليل ومتوقف عليه. وقد قال الإمام ابن القيم قبل ما تقدم نقله (٢٨٤ / ١): إن ما يدخل في باب الإخبار عنه **نعم** أوسع مما يدخل في باب أسمائه وصفاته كالشيء، والموجود، والقائم بنفسه؛ فإن هذا يخبر به عنه، ولا يدخل في أسمائه الحسنی وصفاته العلی. اهـ.

ثم لهذا الإخبار أصل في القرآن، قال الله **سبحانه ونعاه**: ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ﴾ **[يوسف: ٢١]**، قال الحافظ ابن كثير **رحمته الله** في “تفسيره” هذه الآية: إذا أراد شيئاً فلا يرد، ولا يمانع، ولا يخالف، بل هو الغالب لما سواه. اهـ.

والمعنى المناسب لسياق كلام المصنف ما قاله الشيخ السعدي **رحمته الله** في تفسير الآية المتقدمة: أمره **نعم** نافذ، لا يبطله مبطل، ولا يغلبه مغالب، ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ **[يوسف: ٢١]**، فلذلك يجري منهم، ويصدر ما يصدر، في مغالبة أحكام الله القدرية وهم أعجز وأضعف من ذلك. اهـ.

قوله: ﴿أصول﴾ قال الإمام ابن فارس **رحمته الله** في “المقاييس”: الهمزة، والصاد، واللام، ثلاثة أصول متباعد بعضها من بعض:

أحدها أساس الشيء. اهـ المراد.

ثم ذكر **رحمته الله** معاني أخرى، لكن المذكور هو المناسب للمقام هنا. وقد أخرج الإمام ابن أبي حاتم في “المراسيل” (١٣) بالسند الصحيح ما قال فيه: **سمرقني** أبي، قال: سمعت يونس بن عبد الأعلى الصدفي، يقول: قال لي محمد بن إدريس الشافعي: نقول: الأصل قرآن، أو سنة. فإن لم يكن فقياس عليهما... اهـ.

بما يكفى لفهم المراد بالأصول:

ويوضح المعنى السابق الذكر ما أفاده الشيخ العثيمين رحمته الله في "شرح نظم
الورقات" (ص ٢٤)؛ إذ قال: إذا الأصل كل ما بينى عليه غيره، فالكتاب والسنة
أصل، ولهذا تجدون في الكتب المطولة كـ "المغني" يقولون: «والأصل في ذلك قوله
نعم...»، «والأصل في ذلك قول النبي ﷺ...»، فسمى الكتاب والسنة أصلاً؛
لأنه بينى عليهما غيرهما. اهـ.

بِهِ تَقْسِيمُ الدِّينِ إِلَى أَصُولٍ وَفُرُوعٍ:

ويستعان بما تقدم نقله في فهم مراد المصنف رحمته الله بقوله: «سته أصول»، فهو كاف في المسألة، واف بالمقصود، لا يحتاج إلى مزيد.

فأما ما يتعلق بتقسيم الدين إلى أصول وفروع فالأمر ما قال فيه شيخ الإسلام رحمته الله في **«مجموعة الفتاوى»** (٣٤٦ / ٢٣): فأما التفريق بين نوع وتسميته مسائل الأصول وبين نوع آخر وتسميته مسائل الفروع، فهذا الفرق ليس له أصل لا عن الصحابة، ولا عن التابعين لهم بإحسان، ولا أئمة الإسلام. وإنما هو مأخوذ عن المعتزلة وأمثالهم من أهل البدع، وعنهم تلقاه من ذكره من الفقهاء في كتبهم. وهو تفريق متناقض... اهـ المراد.

أفلا يسعنا ما وسع الصحابة **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ**!! أو لا يكفيننا الوقوف عند ما وقفوا؟! قال الحافظ ابن عبد البر **رَحِمَهُ اللَّهُ** في "جامع بيان العلم" (١٣٣/٢): ما جاء عن النبي **ﷺ** من نقل الثقات، وجاء عن الصحابة، وصح عنهم، فهو علم يدان به. وما أحدث بعدهم، ولم يكن له أصل في ما جاء عنهم، فبدعة وضلالة.

..

وما جاء في أسماء الله، أو صفاته، عنهم سلم له، ولم يناظر فيه كما لم يناظروا. رواها السلف، وسكتوا عنها، وهم كانوا أعمق الناس علما، وأوسعهم فهما، وأقلهم تكلفا، ولم يكن سكوتهم عن عي. فمن لم يسعه ما وسعهم فقد خاب، وخسر. اهـ.

بِه نَكْتَةٍ فِي الْإِكْتِفَاءِ بِمَا اكْتَفَى بِهِ الصَّحَابَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ:

وبالمناسبة قد ذكرني ما تقدم قصة مشتملة على نكتة رائعة، وقد ساقها الحافظ الذهبي رحمته الله في “السير” (١١/ ٣١٢-٣١٣)؛ حيث قال: **أُخْبِرْنَا** المسلم بن علان وغيره كتابة، أن أبا اليمن الكندي أخبرهم، أنا عبد الرحمن بن محمد، أنا أبو بكر الخطيب، ثنا محمد بن الفرّج البزاز، ثنا عبد الله بن إبراهيم بن ماسي، ثنا جعفر بن شعيب الشاشي، ثني محمد بن يوسف الشاشي، ثني إبراهيم بن أمية، سمعت طاهر بن خلف، سمعت المهدي بالله محمد بن الواثق، يقول: كان أبي إذا أراد أن يقتل أحدا أحضرنا...

فأتي بشيخ مخضوب، مقيد، فقال أبي: ائذنوا لأبي عبد الله وأصحابه -يعني ابن أبي دواد-. قال: فأدخل الشيخ. فقال: السلام عليك يا أمير المؤمنين! فقال: لا سلم الله عليك. فقال: يا أمير المؤمنين! بئس ما أدبك مؤدبك، قال الله **نَعَمْ**: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا﴾ [النساء: ٨٦].

فقال ابن أبي دواد: الرجل متكلم...! قال له: كلمه. فقال: يا شيخ! ما تقول في القرآن؟ قال: لم ينصفني، ولي السؤال. قال: سل. قال: ما تقول في القرآن؟ قال: مخلوق. قال الشيخ: هذا شيء علمه النبي ﷺ، وأبو بكر، وعمر، والخلفاء الراشدون، أم شيء لم يعلموه؟ قال: شيء لم يعلموه. فقال: سبحان الله! شيء لم

..

يعلمه النبي ﷺ علمته أنت؟! فخجل. فقال: أقلني. قال: المسألة بحالها. قال: نعم، علموه. فقال: علموه، ولم يدعوا الناس إليه؟ قال: نعم. قال: أفلا وسعك ما وسعهم؟!

قال: فقام أبي فدخل مجلسا، واستلقى وهو يقول: شيء لم يعلمه النبي ﷺ، ولا أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، ولا الخلفاء الراشدون، علمته أنت! سبحان الله! شيء علموه، ولم يدعوا الناس إليه، أفلا وسعك ما وسعهم؟! ثم أمر برفع قيوده، وأن يعطى أربع مائة دينار، ويؤذن له في الرجوع. وسقط من عينه ابن أبي دواد، ولم يمتحن بعدها أحدا.

هذه قصة مليحة، وإن كان في طريقها من يجهل، ولها شاهد. اهـ. وإنما سقنا هذه القصة؛ ليعتبر بها من يعتبر، وما ذكرناه قبلها كاف لمن نور الله بصيرته، واطمأن بتوفيق الله قلبه. وإلا أرسل عليه بعض الصواعق التي سردها الإمام ابن القيم رحمه الله كما في "مختصر الصواعق" (٤/ ١٥٧١-١٥٧٢)؛ إذ قال في كلامه على تقسيم الدين إلى أصول وفروع: وكل تقسيم دين لا يشهد له الكتاب، والسنة، وأصول الشرع، بالاعتبار فهو تقسيم باطل يجب إلغاؤه. وهذا التقسيم أصل من أصول ضلال القوم. اهـ.

مزيد تقرير لبطلان تقسيم الدين إلى أصول وفروع:

ويزيد في تقرير بطلان هذا التقسيم المخترع ما قاله الإمام ابن القيم رحمه الله بعد ما سبق نقله (٤/ ١٥٧٢ و ١٥٨٤): وادعوا الإجماع على هذا التفريق! ولا يحفظ ما جعلوه إجماعا عن إمام من أئمة المسلمين ولا عن أحد من الصحابة والتابعين. وهذه عادة أهل الكلام يحكون الإجماع على ما لم يقله أحد من أئمة المسلمين.

بينها الله تعالى بيانا واضحا للعوام...

.....

بل أئمة المسلمين مجمعون على خلافه...

ثم نطالبهم بالفرق بين مسائل الأصول والفروع، وما ضابط ذلك.

ثم نطالبهم بالفرق بين ما يَأْثُم جاحده إثم كفر، أو فسوق، وما لا يَأْثُم جاحده.

ونطالبهم بالفرق بين ما المطلوب منه القطع اليقيني وما يكتفى فيه بالظن.
ولا سبيل لهم إلى تقرير شيء من ذلك ألبتة! اهـ المراد.

بعض من مفسر تقسيم الدين إلى أصول وفروع:

ومن مفسد هذا التقسيم المخترع ما ذكره الشيخ مقبل رحمته الله في “المخرج من الفتن” (ص ٢٢٦)؛ حيث قال: وأما تقسيم الشريعة إلى أصول وفروع فمن هذه الفكرة استطاع الملاحدة، والزنادقة، والضائعون، والمائعون، أن يجعلوا من تقبل منهم هذه الفكرة أن يستهين بالدين.

بهذه الفكرة استطاع بعض الحاقدين على أهل السنة وعلى الشباب المتمسك بدينه أن يتحامل على الشباب المتمسك بدينه، ويسخر منهم في كثير من كتاباته. وما يدري المسكين أنه بنى مهاجمته للشباب على شفا جرف هار! اهـ المراد.

قوله: ﴿بينها الله﴾ هذا البيان متضمن لتبيان السنة، كما أوضحه الإمام القرطبي رحمه الله تعالى في “جامع الأحكام” (٨ / ٣٧١)؛ حيث قال: قوله **تعالى**: ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨]، أي: في اللوح المحفوظ؛ فإنه أثبت فيه ما يقع من الحوادث.

...

وقيل: «أي: في القرآن»، أي: ما تركنا شيئاً من أمر الدين إلا وقد دللنا عليه في القرآن

إما دلالة مبينة مشروحة،

وإما محملة يتلقى بيانها من الرسول عليه الصلاة والسلام، أو من الإجماع، أو من القياس الذي ثبت بنص الكتاب.

قال الله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَبْيِينًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل: ٨٩]، وقال: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤]، وقال: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ [الحشر: ٧].

فأجل في هذه الآية وآية النحل ما لم ينص عليه مما لم يذكره، فصدق خبر الله بأنه ما فرط في الكتاب من شيء إلا ذكره إما تفصيلاً، وإما تأصيلاً. اهـ المراد.

في التأصيل في القرآن أكثر:

قال الإمام الشاطبي رحمه الله في "الموافقات" (٧٣٦-٧٣٧/٤): تعريف القرآن بالأحكام الشرعية أكثره كلي، لا جزئي. وحيث جاء جزئياً فمأخذه على الكلية إما بالاعتبار، أو بمعنى الأصل، إلا ما خصه الدليل مثل خصائص النبي ﷺ.

ويدل على هذا المعنى بعد الاستقراء المعتبر أنه محتاج إلى كثير من البيان؛ فإن السنة على كثرتها وكثرة مسائلها إنما هي بيان للكتاب كما سيأتي شرحه، إن شاء الله.

وقد قال الله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤]، وفي الحديث: «ما من الأنبياء نبي إلا أعطي من الآيات ما مثله آمن

فوق ما يظن الظانون. ثم بعد ذلك غلط فيها أذكاء العالم وعقلاء بني آدم...

...

عليه البشر. وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إلي، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة». وإنما الذي أعطي القرآن، وأما السنة فبيان له.

وإن كان كذلك فالقرآن على اختصاره جامع، ولا يكون جامعاً إلا والمجموع فيه أمور كلياً؛ لأن الشريعة تمت بتمام نزوله لقوله **نعالى**: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ الآية [المائدة: ٣]. اهـ المراد.

قوله: ﴿فوق ما يظن الظانون﴾ وذلك حيث تنوعت أساليب الأدلة، فتارة ترد بالإجمال وأخرى بالبيان، وتارة بالتفصيل وأخرى بالاختصار، وتارة بالترغيب وأخرى بالترهيب... إلى غير ذلك من الأساليب المتنوعة.

قال العلامة السعدي **رحمته الله** في “تفسيره” (ص ٤٦٩): قوله: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَبْيِينًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل: ٨٩]، في أصول الدين وفروعه وفي أحكام الدارين. وكل ما يحتاج إليه العباد فهو مبين فيه أتم تبين بألفاظ واضحة ومعان جلية. حتى إنه **نعالى** يثني فيه الأمور الكبار التي يحتاج القلب لمرورها عليه كل وقت وإعادتها في كل ساعة. ويعيدها، ويبيدها، بألفاظ مختلفة وأدلة متنوعة؛ لتستقر في القلوب فتثمر من الخير والبر بحسب ثبوتها في القلب.

وحتى إنه **نعالى** يجمع في اللفظ القليل، الواضح، معاني كثيرة، يكون اللفظ لها كالقاعدة والأساس. اهـ المراد.

قوله: ﴿غلط فيها أذكاء العالم وعقلاء بني آدم﴾ إنما أوتوا في الغلط المذكور من قبل خاصة أنفسهم. وفي توضيح هذا المعنى ما أفاده شيخ الإسلام **رحمه الله تعالى** في “مجموعة الفتاوى” (١١/ ٤٩٠-٤٩١)؛ حيث قال: فيأخذ المسلمون جميع دينهم

..

من الاعتقادات، والعبادات، وغير ذلك، من كتاب الله، وسنة رسوله، وما اتفق عليه سلف الأمة وأئمتها.

وليس ذلك مخالفا للعقل الصريح؛ فإن ما خالف العقل الصريح فهو باطل، وليس في الكتاب، والسنة، والإجماع، باطل. ولكن فيه ألفاظ قد لا يفهمها بعض الناس، أو يفهمون منها معنى باطلا، فالأفة منهم، لا من الكتاب والسنة؛ فإن الله **تعالى** قال: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَبْيِينًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل: ٨٩]. اهـ المراد.

به وجوب تدبر القرآن والسبب في ذلك:

فعلى المسلمين فهم كتاب ربهم **تبارك وتعالى**، وبذلك أمرهم؛ فقال **تعالى**: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ﴾ [ص: ٢٩]. قال الإمام القرطبي في "جامع الأحكام" (١٨ / ١٨٩) في سياق كلامه على هذه الآية: وفي هذا دليل على وجوب معرفة معاني القرآن. اهـ.

وسبب هذا الوجوب ما أفاده شيخ الإسلام **رحمه الله تعالى** في "مجموعة الفتاوى" (١٣ / ٣٣٢)؛ حيث قال: من المعلوم أن كل كلام فالمقصود منه فهم معانيه، دون مجرد ألفاظه، فالقرآن أولى بذلك. وأيضا، فالعادة تمنع أن يقرأ قوم كتابا في فن من العلم كالطب والحساب، ولا يستشروهم، فكيف بكلام الله الذي هو عصمتهم، وبه نجاتهم، وسعادتهم، وقيام دينهم ودنياهم؟! اهـ.

به المعالجة للإهمال تدبر القرآن:

قال الشيخ العلمي **رحمه الله تعالى** في "رفع الاشتباه" (١ / ٧٣): إصابة الحق في ما يمكن اشتباهه تتوقف على ثلاثة أمور: التوفيق، والإخلاص، وبذل الوسع. اهـ.

إلا أقل القليل.

في بيان التوفيق ما قاله رحمه الله تعالى: التوفيق عليه ظاهر، وإنما الشأن في سبب حصوله، وقد بينه الله تبارك وتعالى بقوله: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩]. اهـ المراد.

في بيان الإخلاص ما قاله رحمه الله تعالى: هو رغبة صادقة في إصابة الحق، لا يعارضها هوى متبع. اهـ المراد.

في بيان بذل الوسع ما قاله رحمه الله تعالى بعد ذلك: ففي ثلاثة أمور:
الأول تعرف الهوى، وتطهير النفس منه، أو التحرز من اتباعه.

الثاني تقوى الله عز وجل، والاستكثار من الطاعات، واجتناب المعاصي والمكروهات، قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾ [الطلاق: ٢]، ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٤]، ﴿إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا﴾ [الأنفال: ٢٩]، ﴿ذَلِكَ أَلْكِتَبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢]، والأدلة على هذا كثيرة.
وهذا الأمر متضمن للأمر الأول - وإنما أفردت الأول لدقته وغلبة التقصير فيه -، ومتضمن للثالث كما يأتي.

الثالث طلب العلم، وهو على درجات... اهـ المراد.

قوله: ﴿إلا أقل القليل﴾ والحكمة لذلك ما قاله الإمام الشاطبي في “الاعتصام” (١/ ٥٠-٥١): هذه سنة الله في الخلق، إن أهل الحق في جنب أهل الباطل قليل لقوله تعالى: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣]، وقوله تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرُونَ﴾ [سبأ: ١٣]. ولينجز الله ما وعد به نبيه ﷺ

...

من عود وصف الغربة إليه؛ فإن الغربة لا تكون إلا مع فقد الأهل، أو قتلهم. وذلك حين يصير المعروف منكرا والمنكر معروفا، وتصير السنة بدعة والبدعة سنة، فيقام على أهل السنة بالتشريب والتعنيف. اهـ المراد.

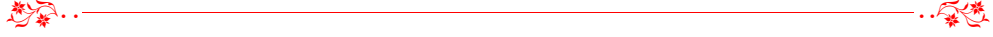
قال الإمام ابن القيم في "المدارج" (٢٦ / ٤): كيف لا تكون فرقة واحدة قليلة جدا، غريبة بين اثنتين وسبعين فرقة ذات أتباع، ورئاسات، ومناصب، وولايات، ولا يقوم لها سوق إلا بمخالفة ما جاء به الرسول؟! فإن نفس ما جاء به يضاد أهواءهم، ولذاتهم، وما هم عليه من الشبهات والبدع التي هي منتهى فضيلتهم وعملهم، والشهوات التي هي غايات مقاصدهم وإراداتهم.

... فكيف لا يكون المؤمن السائر إلى الله على طريق المتابعة غريبا بين هؤلاء الذين قد اتبعوا أهواءهم، وأطاعوا شحهم، وأعجب كل منهم برأيه؟! اهـ.

بعض من أوصاف قلة أهل الحق:

ويميز هؤلاء الغرباء عن غيرهم ما بينه الحافظ ابن القيم من الأوصاف في "المدارج" (٢٥-٢٦ / ٤)؛ حيث قال: ومن صفات هؤلاء الغرباء الذين غبطهم النبي ﷺ التمسك بالسنة إذا رغب عنها الناس، وترك ما أحدثوه، وإن كان هو المعروف عندهم، وتجريد التوحيد، وإن أنكر ذلك أكثر الناس، وترك الانتساب إلى أحد غير الله ورسوله، لا شيخ، ولا طريقة، ولا مذهب، ولا طائفة. بل هؤلاء الغرباء منتسبون إلى الله بالعبودية له وحده، وإلى رسوله بالاتباع لما جاء به وحده. وهؤلاء هم القابضون على الجمر حقا.

وأكثر الناس، بل كلهم، لائم لهم... فلغربتهم بين هذا الخلق يعدونهم أهل شذوذ، وبدعة، ومفارقة للسواد الأعظم. ومعنى قول النبي ﷺ: «هم النزاع من



القبائل» أن الله سبحانه بعث رسوله وأهل الأرض على أديان مختلفة، فهم بين عباد أوثان ونيران، وعباد صور وصلبان، ويهود، وصابئة، وفلاسفة. وكان الإسلام في أول ظهوره غريبا، وكان من أسلم منهم، واستجاب لله ولرسوله غريبا في حيه، وقبيلته، وأهله، وعشيرته.

فكان المستجيبون لدعوة الإسلام نزاعا من القبائل، بل أحادا منهم. تغربوا عن قبائلهم وعشائرتهم، ودخلوا في الإسلام، فكانوا هم الغرباء حقا، حتى ظهر الإسلام، وانتشرت دعوته، ودخل الناس فيه أفواجا، فزالت تلك الغربة عنهم. ثم أخذ في الاغتراب والترحل، حتى عاد غريبا كما بدأ.

بل الإسلام الحق الذي كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه هو اليوم أشد غربة منه في أول ظهوره، وإن كانت أعلامه ورسومه الظاهرة مشهورة، معروفة. فالإسلام الحقيقي غريب جدا، وأهله غرباء أشد الغربة بين الناس! اهـ.



الأصل الأول

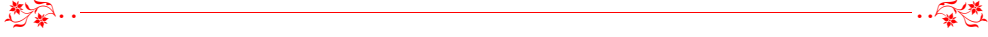
الأصل الأول: إخلاص الدين لله تعالى...

...

قوله: {إخلاص الدين} قال الإمام ابن فارس في أصل المادة من "المقاييس":
الحاء، واللام، والصاد، أصل واحد، مطرد، وهو تنقية الشيء وتهذيبه. اهـ.
وأما من حيث الشرع فالمراد بإخلاص الدين لله ما أفاده العلامة الكفوي؛ إذ
قال: الإخلاص هو القصد بالعبادة إلى أن يعبد المعبود بها وحده.
وقيل: تصفية السر، والقول، والعمل. اهـ من "نصرة النعيم" (٢/ ١٢٤).

بـ حقيقة الإخلاص:

حقيقة إخلاص العبادة لله **تبارك وتعالى** ما حققه الحافظ ابن رجب؛ حيث قال كما
في "مجموع رسائله" (٢/ ٣٦٩): وتحقيق هذا المعنى وإيضاحه أن قول العبد: «لا
إله إلا الله» يقتضي أن لا إله له غير الله.
والإله هو الذي يطاع فلا يعصى هيبة له، وإجلالا، ومحبة، وخوفا، ورجاء،
وتوكلا عليه، وسؤالا منه، ودعاء له.
ولا يصلح ذلك كله إلا لله **عز وجل**، فمن أشرك مخلوقا في شيء من هذه الأمور
التي هي من خصائص الإلهية كان ذلك قدحا في إخلاصه في قوله: «لا إله إلا الله»
ونقصا في توحيده، وكان فيه من عبودية المخلوق بحسب ما فيه من ذلك. اهـ.



في الإخلاص حقيقة توحيد العبادات:

نقل الإمام ابن القيم في ”المدارج“ (٤ / ٤٩٥) عن شيخ الإسلام ما يبين كون الإخلاص حقيقة توحيد العبادة لله؛ فقال: ثم قال: وقد أخبر الله عن كل رسول من الرسل أنه قال لقومه: «اعبدوا الله، ما لكم من إله غيره». وهذه أول دعوة الرسل وآخرها، قال النبي ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأني رسول الله»، وقال: «من مات وهو يعلم أن لا إله إلا الله دخل الجنة».

والقرآن مملوء من هذا التوحيد، والدعوة إليه، وتعليق النجاة والسعادة في الآخرة به، وحقيقته إخلاص الدين كله لله. اهـ المراد.

في تفسير النص من معنى توحيد العبادات:

ومع عظم هذا الأصل ووضوحه صار أكثر الناس يعبدون غير الله سبحانه وتعالى، ولو رجعوا إلى الكتاب والسنة لوجدوا فيه الأمر بينا. ومما نجد في هذا الأمر بالرجوع إلى السنة حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أنه قال: لما بعث النبي ﷺ معاذًا إلى نحو أهل اليمن قال له: «إنك تقدم على قوم من أهل الكتاب، فليكن أول ما تدعوهم إلى أن يوحدوا الله تعالى. فإذا عرفوا ذلك فأخبرهم أن الله فرض عليهم خمس صلوات في يومهم وليلتهم. فإذا صلوا فأخبرهم أن الله افترض عليهم زكاة في أموالهم، تؤخذ من غنيهم فترد على فقيرهم. فإذا أقروا بذلك فخذ منهم، وتوق كرائم أموال الناس».

وهذا الحديث متفق عليه، واللفظ المذكور في ”صحيح البخاري“ (٧٣٧٢).

..

ويتم فهم الاستدلال من هذا الحديث باستحضار قاعدة مهمة ذكرها العلامة الألباني رحمه الله تعالى في "التوسل" (ص ٥٦)؛ حيث قال: إن [من] القواعد المهمة في الشريعة الإسلامية أن النصوص الشرعية يفسر بعضها بعضاً. ولا يفهم شيء منها في موضوع ما بمعزل عن بقية النصوص الواردة فيه. اهـ.

ولهذا نستعين بما ورد من روايات الحديث المتقدم لفهمه فهما صحيحاً. وذلك ما ذكره العلامة عبد الرحمن بن حسن في "فتح المجيد" (ص ١٤٦-١٤٧)؛ إذ قال في شرحه للحديث المذكور: قوله: «وفي رواية: «إلى أن يوحدوا الله»» هذه الرواية ثابتة في كتاب التوحيد من "صحيح البخاري".

وأشار المصنف بذكر هذه الرواية إلى التنبيه على معنى شهادة أن لا إله إلا الله؛ فإن معناها توحيد الله تعالى بالعبادة ونفي عبادة ما سواه، وفي رواية: «فليكن أول ما تدعوهم إليه عبادة الله». وذلك هو الكفر بالطاغوت والإيمان بالله، كما قال تعالى: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انْفِصَامَ لَهَا﴾ [البقرة: ٢٥٦]، والعروة الوثقى هي لا إله إلا الله.

وفي رواية للبخاري فقال: «ادعهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأني رسول الله». اهـ.

به عظم هذا الأصل:

قال العلامة المعلمي رحمه الله في "رفع الاشتباه" (١/ ٣٧ و ٤٢): مما يبين عظمة شأن التوحيد وشدة خطر الشرك أن أعظم سورة في القرآن، والسورة التي تعدل ثلثه - وإنما هي بضع عشرة كلمة -، والسورة التي ورد أنها تعدل رבעه، وأعظم آية في القرآن، كلها مبنية على توحيد العبادة.

..

أما أعظم سورة في القرآن فأم الكتاب، روى البخاري وغيره عن **أبي سعيد ابن المعلّى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ**، أن النبي ﷺ، قال له: «ألا أعلمك أعظم سورة في القرآن قبل أن تخرج من المسجد؟»، فأخذ بيدي، فلما أردنا أن نخرج قلت: يا رسول الله! إنك قلت: لأعلمنك أعظم سورة من القرآن، قال: «**الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**» هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته».

ثم رأيت في **“نظم الدرر”** للعلامة البقاعي تلميذ الحافظ ابن حجر، في الكلام على الفاتحة، ما لفظه: فالغرض الذي سيقّت له الفاتحة هو إثبات استحقاق الله **تعالى** لجميع المحامد وصفات الكمال، واختصاصه بملك الدنيا والآخرة، وباستحقاق العبادة... ومدار ذلك كله مراقبة العباد لربهم.

والمقصود من جمعهم تعريفهم بالملك وبما يرضيه، وهو إفراده بالعبادة. وهو مقصود القرآن الذي انتظمته الفاتحة لإفراده بالعبادة، فهو مقصود الفاتحة بالذات وغيره وسائل إليه...

لأن المقصود من إرسال الرسل وإنزال الكتب نصب الشرائع.

والمقصود من نصب الشرائع جمع الخلق على الحق.

والمقصود من جمعهم تعريفهم بالملك وبما يرضيه، وهو إفراده بالعبادة. وهو

مقصود القرآن الذي انتظمته الفاتحة بالقصد الأول. اهـ المراد.

وقد صرح شيخ الإسلام **رحمه الله تعالى** في **“الاقتضاء”** (ص ٤٦٨) بكون توحيد الله في العبادة أصل الأصول؛ حيث قال بعد سرد جملة من الأدلة القرآنية في بيان توحيد العبادة: القرآن عامته إنما هو في تقرير هذا الأصل العظيم، الذي هو أصل الأصول. اهـ.

وحده لا شريك له،...

...

قوله: ﴿وحده لا شريك له﴾ قال شيخ الإسلام **رحمه الله تعالى** في "الاعتضاء" (ص ٥٥٣): والله سبحانه له حقوق لا يشركه فيها غيره، ولرسل حقوق لا يشركهم فيها غيرهم. اهـ المراد.

بمعنى إخراجهم من العبادة حق الله لا يشركه فيه غيره:

قال شيخ الإسلام بعد ما تقدم (ص ٥٥٣-٥٥٦): ففي "الصحيحين" عن **معاذ بن جبل رضي الله عنه**، قال: كنت ردف النبي ﷺ، فقال لي: «يا معاذ! أتدري ما حق الله على عباده؟». قلت: الله ورسوله أعلم. قال: «حقه عليهم أن يعبدوه، لا يشركوا به شيئاً. يا معاذ! أتدري ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك؟». قلت: الله ورسوله أعلم. قال: «حقهم عليه أن لا يعذبهم».

فإن الله تعالى مستحق أن نعبد، لا نشرك به شيئاً. وهذا أصل التوحيد الذي بعث به الرسل، وأنزلت به الكتب، قال الله تعالى: ﴿وَسْأَلُ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِلَهَةً يُعْبَدُونَ﴾ [الزخرف: ٤٥]...

ويدخل في ذلك أن لا نخاف إلا إياه، ولا نتقي إلا إياه، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشِ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [النور: ٥٢]، فجعل الطاعة لله وللرسول، وجعل الخشية والتقوى لله وحده...

وجعل التحسب بالله وحده، فقال تعالى: ﴿وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ﴾ [التوبة: ٥٩]،

ولم يقل: «ورسوله»...

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ٦٤]، أي: حسبك وحسب من اتبعك الله، فهو وحده كافيكم... ثم قال: ﴿وَقَالُوا

...

حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُوتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ ﴿التوبة: ٥٩﴾، فجعل الفضل لله...

ثم قال: ﴿إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ﴾ [التوبة: ٥٩]، فجعل الرغبة إلى الله وحده، دون ما سواه... ولم يأمر الله قط مخلوقاً أن يسأل مخلوقاً، وإن كان قد أباح في موضع من المواضع ذلك، لكنه لم يأمر به. بل الأفضل للعباد أن لا يسأل قط إلا الله... وقد قال **عنه** **لابن عباس** **رضي الله عنهما**: «إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله».

فهو الذي يتوكل عليه، ويستعان به، ويستغاث به، ويخاف، ويرجى، ويعبد، وتنبى القلوب إليه، لا حول ولا قوة إلا به، ولا ملجأ منه إلا إليه. والقرآن كله يحقق هذا الأصل...

وقد بعث الله محمداً **عليه السلام** بتحقيق التوحيد وتجريده، ونفي الشرك بكل وجه، حتى في الألفاظ، كقوله **عليه السلام**: «لا يقولن أحدكم: ما شاء الله، وشاء محمد. بل: ما شاء الله، ثم شاء محمد»، وقال له رجل: ما شاء الله، وشئت. فقال: «أجعلتني لله ندا؟ بل ما شاء الله وحده».

والعبادات التي شرعها الله كلها تتضمن إخلاص الدين كله لله، تحقيقاً لقوله **نعم**: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ﴾ [البينة: ٥]، فالصلاة لله وحده، والصدقة لله وحده، والصيام لله وحده، والحج لله وحده. اهـ المراد.

قال الإمام ابن القيم **رحمه الله تعالى** في "البدائع" (٣/ ١١٤١-١١٤٢): وقد قال الله **تعالى**: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [البينة: ٥]، فنفى سبحانه

وېيان ضده...

أن يكون أمر عباده بغير العبادة التي قد أخلص عاملها له فيها النية، ومعلوم أن إخلاص النية للمعبود أصل لنية أصل العبادة. فإذا لم يأمرهم إلا بعمل هو عبادة قد أخلص عاملها النية فيها لربه **عز وجل**، ومعلوم أن النية جزء من العبادة، بل هي روح العبادة كما تبين، علم أن العمل الذي لم ينو ليس بعبادة ولا مأمور به، فلا يكون فاعله متقرباً إلى الله، وهذا مما لا يقبل نزاعاً اهـ.

قوله: {ضده} قال الإمام ابن فارس رحمه الله تعالى في مادة «ضد» من «المقاييس»:
الضاد والذال كلمتان متباينتان في القياس.

فالأولى الضد ضد الشيء. والمتضادان الشيئان لا يجوز اجتماعهما في وقت واحد. اهـ المراد.

بم ضابط الضدين والنقيضين والفرق بينهما:

قال العلامة الجرجاني في "التعريفات": الضدان صفتان وجوديتان، يتعاقبان في موضع واحد، يستحيل اجتماعهما، كالسواد والبياض. والفرق بين الضدين والنقيضين أن النقيضين لا يجتمعان، ولا يرتفعان، كالعدم والوجود، والضدين لا يجتمعان، ولكن يرتفعان، كالسواد والبياض. اهـ المراد.

وعلى هذا فالسواد والبياض ضدان؛ حيث يستحيل كون لون مكان في وقت واحد أسود وأبيض معا.

وعلى فرض حصر لون المكان في هذين فلا يمكن إلا كونه أسود، أو أبيض؛ إذ يستحيل اجتماعهما. وعلى فرض انتفاء الحصر المذكور أمكن ارتفاع السواد والبياض كليهما معا، فيكون لون المكان غيرهما كالأحمر مثلا.

..

وأما النقيضان فمثل العلم بالشيء والجهل به، فإنه لا يمكن اتصاف شخص واحد إلا بأحدهما. ويستحيل في حقه اجتماع الوصفين معا بحيث يتصف بالعلم بالشيء وبالجهل به كليهما معا، كما يستحيل في حقه ارتفاع الوصفين عنه معا، بل لابد من اتصافه بأحدهما.

وحاصل ما تقدم استحالة اجتماع النقيضين وكذلك اجتماع الضدين. وحينئذ يستحيل اجتماع التوحيد والشرك في عبد واحد في وقت واحد، على القول بكونهما ضدين، كما يستحيل اجتماعهما في حق ذلك العبد نفسه، على القول بكون التوحيد والشرك من النقيضين.

بإيراد الجواب عنه:

وقد يرد على هذه النتيجة قوله **نبارك ونعلا**: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ [يوسف: ١٠٦]؛ حيث إن في ظاهر هذه الآية الجمع بين الإيمان بالله **جمل وعلا** والشرك به **سبحانه ونعلا**.

هذا، وقد دلت بعض النصوص على تضمن الإيمان لتوحيد العبادة؟! ومن هذه النصوص ما أخرجه الإمام البخاري في “صحيحه” (٥٣) والإمام مسلم في “صحيحه” (٢٤) - (١٧) - واللفظ له - من حديث **ابن عباس** **رضي الله عنهما**، أن الرسول **ﷺ**، قال لوفد عبد القيس: «هل تدرون ما الإيمان بالله؟»، قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وأن تؤدوا خمسا من المغنم»... الحديث.

والجواب عن الإيراد بعدم الجمع في الآية بين الإيمان بالله والشرك به من جهة واحدة؛ إذ المراد بالإيمان فيها الإيمان بتوحيده **سبحانه** في ربوبيته، والمراد بالشرك فيها

الذي هو الشرك.

...

الشرك في عبادته **سبحانه وتعالى**. قال الإمام الطبري **رحمته الله** في "تفسيره" للآية السابق ذكرها: يقول **تعالى فذكره**: وما يقر أكثر هؤلاء -الذين وصف **عز وجل** صفتهم بقوله: ﴿وَكَايِن مِّنْ ءَايَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ [يوسف: ١٠٥] - بالله أنه خالقه، ورازقه، وخالق كل شيء، إلا وهم به مشركون في عبادتهم الأوثان والأصنام، واتخاذهم من دونه أربابا، وزعمهم أن له ولدا، **تعالى** الله عما يقولون علوا كبيرا. اهـ المراد.

قال أبو عبد الله: وعلى هذا فالجمع في الآية بين الإيمان بالله والشرك به **سبحانه وتعالى** من باب التقابل، لا من باب التضاد، ولا كذلك من باب التناقض. قال العلامة الجرجاني في "التعريفات": المتقابلان هما اللذان لا يجتمعان في شيء واحد من جهة واحدة. اهـ المراد.

قوله: ﴿الشرك﴾ قال الإمام ابن فارس في مادة «شرك» من «المقاييس» ما المراد:

أحدهما يدل على مقارنة وخلاف انفراد،

والآخر يدل على امتداد واستقامة.

فالأول الشراكة، وهو أن يكون الشيء بين اثنين، لا ينفرد به أحدهما. اهـ.

هذا من حيث اللغة، وأما من حيث الشرع فقد قال الإمام ابن القيم **رحمته الله** في "المدارج" (١/ ٥٩٤): وأما الشرك فهو نوعان: أكبر وأصغر.

فالأكبر لا يغفره الله إلا بالتوبة منه، وهو أن يتخذ من دون الله ندا يحبه كما يحب الله. وهو الشرك الذي تضمن تسوية آلهة المشركين برب العالمين، ولهذا قالوا لأهتهم في النار: ﴿تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ (٢٧) إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ

..

أَلْعَلَمِينَ ﴿الشعراء﴾، مع إقرارهم بأن الله وحده خالق كل شيء، وربّه، ومليكه، وأن ألهتهم لا تخلق، ولا ترزق، ولا تحيي، ولا تميت. وإنما كانت هذه التسوية في المحبة، والتعظيم، والعبادة. اهـ المراد.

وأما الشرك الأصغر فما قال فيه (ص ٦٠٢): أما الشرك الأصغر فكيسير الرياء، والتصنع للخلق، والحلف بغير الله كما ثبت عن النبي ﷺ، أنه قال: «من حلف بغير الله فقد أشرك»، وقول الرجل للرجل: «ما شاء الله، وشئت»، و«هذا من الله ومنك»، و«أنا بالله وبك»، و«مالي إلا الله وأنت»، و«أنا متوكل على الله وعليك»، و«لولا أنت لم يكن كذا وكذا».

وقد يكون هذا شركا أكبر بحسب قائله ومقصده! اهـ المراد.

في تأثير الشرك الأكبر على التوحيد والعمل:

قال الشيخ التوحيدي رحمه الله تعالى في ”كتاب التوحيد“ (ص ٣٤): التوحيد ضد الشرك كما أن الحق ضد الباطل. وإذا انتقض التوحيد بطل العمل؛ لأن التوحيد هو الأصل، والعمل فرع له. وإذا فسد الأصل فسد الفرع، ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ ﴿٦٥﴾ بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿الزمر﴾. اهـ.

في تأثير الشرك الأصغر على التوحيد والعمل:

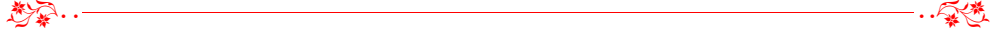
وأما الشرك الأصغر فلا يبطل أصل التوحيد، ولكن يقدح في كماله. وفي هذا المعنى ما قاله الإمام ابن رجب رحمه الله في ”مجموع رسائله“ (٢/ ٣٦٩-٣٧٠): هذا كله من فروع الشرك، ولهذا ورد إطلاق الكفر والشرك على كثير من المعاصي التي

منشؤها من طاعة غير الله، أو خوفه، أو رجائه، أو التوكل عليه، والعمل لأجله كما ورد في صحيح إطلاق الشرك على الرياء، وعلى الحلف بغير الله، وعلى التوكل على غير الله، والاعتماد عليه، وعلى من سوى بين الله وبين المخلوق في المشيئة مثل أن يقول: «ما شاء الله، وشاء فلان»، وكذا قوله: «ما لي إلا الله وأنت». كذلك ما يقدح في التوحيد وتفرد الله بالنفع والضرر كالطيرة، والرقى المكروهة، وإتيان الكهان وتصديقهم بما يقولون.

وكذلك اتباع هوى النفس في ما نهى الله عنه قاذح في تمام التوحيد وكماله. ولهذا أطلق الشرع على كثير من الذنوب التي منشؤها من اتباع هوى النفس بما هو كفر وشرك كقتال المسلم، ومن أتى حائضاً، أو امرأة في دبرها، ومن شرب الخمر في الرابعة، وإن كان ذلك لا يخرجهم عن الملة بالكلية. ولهذا قال السلف: «كفر دون كفر»، و«شرك دون شرك». اهـ.

وأما ما يتعلق بتأثير الشرك الأصغر على العمل ففي المسألة تفصيل؛ حيث قد يبطل العمل بالكلية، وقد لا يبطله بالكلية، ولكن يذهب بعض أجه...
ومن أمثلة ذلك ما أفاده الحافظ ابن رجب في "جامع العلوم" (١/ ٧٩-٨٣)؛
حيث قال: واعلم أن العمل لغير الله أقسام:

فتارة يكون مريءاً محضاً بحيث لا يراد به سوى مرآت المخلوقين لغرض دنيوي كحال المنافقين في صلاتهم، قال الله **عز وجل:** ﴿وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٤٢]... وكذلك وصف الله الكفار بالرياء في قوله: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الأنفال: ٤٧].



وهذا الرياء المحض لا يكاد يصدر عن مؤمن في فرض الصلاة والصيام. وقد يصدر في الصدقة الواجبة، والحج، وغيرهما من الأعمال الظاهرة، أو التي يتعدى نفعها؛ فإن الإخلاص فيها عزيز!! وهذا العمل لا يشك مسلم أنه حابط، وأن صاحبه يستحق المقت من الله والعقوبة.

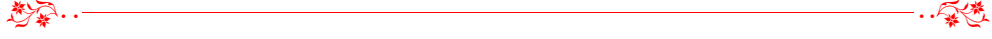
تأمره يكون العمل لله، ويشامركه الرباء، فإن شاركه من أصله فالنصوص الصحيحة تدل على بطلانه وحبوطه أيضا. وفي “صحيح مسلم” عن **أبي هريرة** رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، قال: «يقول الله **تبارك وتعالى**: أنا أغنى الشركاء عن الشرك. من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشريكه»...

فإن خالط نية الجهاد مثلاً نية غير الرباء مثل أخذه أجرة للخدمة، أو أخذ شيء من الغنيمة، أو التجارة، نقص بذلك أجر جهادهم، ولم يبطل بالكلية. وفي “صحيح مسلم” عن **عبد الله بن عمرو** رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، قال: «إن الغزاة إذا غنموا غنيمة تعجلوا ثلثي أجرهم. فإن لم يغنموا شيئاً تم لهم أجرهم». وقد ذكرنا في ما مضى أحاديث تدل على أن من أراد بجهاده عرضاً من الدنيا أنه لا أجر له، وهي محمولة على أنه لم يكن له غرض في الجهاد إلا الدنيا...

وأما إن كان أصل العمل لله، ثم طرأت عليه نية الرباء،

فإن كان خاطراً، ودفعه، فلا يضره بغير خلاف.

وإن استرسل معه فهل يحبط عمله، أم لا يضره ذلك، ويجازى على أصل نيته؟ في ذلك اختلاف بين العلماء من السلف قد حكاه الإمام أحمد وابن جرير الطبري، ورجحاً أن عمله لا يبطل بذلك، وأنه يجازى بنيته الأولى. وذكر ابن جرير أن هذا الاختلاف إنما هو في عمل يرتبط آخره بأوله كالصلاة، والصيام،



والحج. فأما ما لا ارتباط فيه كالقراءة، والذكر، وإنفاق المال، ونشر العلم، فإنه ينقطع بنية الرياء الطارئة عليه، ويحتاج إلى تجديد نية. اهـ المراد.

بِه نَكْتَةٍ فِي بَيَانِ أَهَمِّيَّةِ مَعْرِفَةِ الشَّرْكَ:

قد يقول قائل: يكفيني لنجاة نفسي العلم بتوحيد العبادة والعمل بذلك، فأني فائدة في معرفة الشرك؟! فائدة ذلك عظيمة، وهي التوقي من الوقوع في الشرك؛ فإن من لم يعرفه لا يؤمن عليه الوقوع فيه. قال الإمام ابن القيم في "الفوائد" (ص ١٥٨-١٥٩): بذلك برز الصحابة على جميع من أتى بعدهم إلى يوم القيامة؛ فإنهم نشئوا في سبيل الضلال، والكفر، والشرك، والسبل الموصلة إلى الهلاك، وعرفوها مفصلة. ثم جاءهم الرسول ﷺ، فأخرجهم من تلك الظلمات إلى سبيل الهدى وصراط الله المستقيم، فخرجوا من الظلمة الشديدة إلى النور التام، ومن الشرك إلى التوحيد، ومن الجهل إلى العلم، ومن الغي إلى الرشاد، ومن الظلم إلى العدل، ومن الحيرة والعمى إلى الهدى والبصائر.

فعرفوا مقدار ما نالوه، وظفروا به، ومقدار ما كانوا فيه؛ فإن الضد يظهر حسنه الضد، وإنما تتبين الأشياء بأضدادها. فزادوا رغبة ومحبة في ما انتقلوا إليه ونفرة وبغضا لما انتقلوا عنه. كانوا أحب الناس في التوحيد، والإيمان، والإسلام، وأبغض الناس في ضده، عالين بالسبيل على التفصيل.

وأما من جاء بعد الصحابة فمنهم من نشأ في الإسلام غير عالم بتفصيل ضده، فالتبس عليه بعض تفاصيل سبيل المؤمنين بسبيل المجرمين؛ فإن اللبس إنما يقع إذا ضعف العلم بالسبيلين، أو أحدهما، كما قال عمر بن الخطاب: «إنما تنقض عرى الإسلام عروة عروة إذا نشأ في الإسلام من لم يعرف الجاهلية».

وكون أكثر القرآن في بيان هذا الأصل من وجوه شتى...

...

وهذا من كمال علم عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ فإنه إذا لم يعرف الجاهلية وحكمها - وهو كل ما خالف ما جاء به الرسول ﷺ فإنه من الجاهلية؛ فإنها منسوبة إلى الجهل، وكل ما خالف الرسول ﷺ فهو من الجهل -، فمن لم يعرف سبيل المجرمين، ولم تستب له، أو شك أن يظن في بعض سبيلهم أنها من سبيل المؤمنين كما وقع في هذه الأمة من أمور كثيرة في باب الاعتقاد، والعلم، والعمل، هي من سبيل المجرمين، والكفار، وأعداء الرسل، أدخلها من لم يعرف أنها من سبيلهم في سبيل المؤمنين، ودعا إليها، وكفر من خالفها، واستحل منه ما حرمه الله ورسوله، كما وقع لأكثر أهل البدع من الجهمية، والقدرية، والخوارج، والروافض، وأشباههم ممن ابتدع بدعة، ودعا إليها، وكفر من خالفها. اهـ المراد.

قوله: {من وجوه شتى} بينها الإمام ابن القيم في ”المدارج“ (٤/ ٤٤٢)؛ فقال: إن كل آية في القرآن فهي متضمنة للتوحيد، شاهدة به، داعية إليه؛ فإن القرآن إما خبر عن الله، وأسمائه، وصفاته، وأفعاله، فهو التوحيد العلمي الخبري. وإما دعوة إلى عبادته وحده لا شريك له، وخلع كل ما يعبد من دونه، فهو التوحيد الإرادي الطلبي.

وإما أمر، ونهي، وإنزام بطاعته في نهيه وأمره، فهي حقوق التوحيد ومكملاته. وإما خبر عن كرامة الله لأهل توحيده وطاعته، وما فعل بهم في الدنيا، وما يكرمهم به في الآخرة، فهو جزاء توحيده.

وإما خبر عن أهل الشرك، وما فعل بهم في الدنيا من النكال، وما يجل بهم في العقبي من العذاب، فهو خبر عمن خرج عن حكم التوحيد. اهـ المراد.

بكلام يفهمه أبلد العامة.

...

قوله: { يفهمه أبلد العامة } قال العلامة الفيروزآبادي **رحمة الله** في "القاموس" في مادة «بلد»: التبذل ضد التجلد. بلد ككُرْم، وفرح، فهو بليد وأبلد. اهـ المراد. ومن هنا يتضح ما أفاده الشيخ ابن برجس **رحمة الله تعالى** (ص ٣٣) في شرح هذا الكلام للمصنف وبيان مراده؛ فقال: البليد هو من إذا تنشط، وأخذ المنشطات، فإنه لا ينشط. وعلى الرغم من ذلك فإن من كان بهذه البلادة الشديدة، وتليت عليه آيات القرآن، فسوف يعلم مراد الله منها؛ لأن هذا القرآن ميسر من عند الله، واضح، ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا﴾ [مريم: ٩٧]، ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [الدخان: ٥٨]، ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ [القمر: ٢٢]. اهـ المراد.

به القلب ملك الأعضاء إن لم يلبس:

وسبب ما تقدم ذكره من المصيبة التي أصابت المسلمين، وعمت، إلا من شاء الله ما بينه **سبحانه** من هو القلوب عند استماع الذكر؛ فقال **عز وجل**: ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِّن ذِكْرِ مِّن رَّبِّهِمْ فُحِّدَتْ إِلَّا أَسْتَمِعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٢٦﴾ لَا هِيَ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنبياء: ٢٦]. والقلب ملك الأعضاء، فإذا لها فاته فائدة الذكرى، قال الله **سبحانه وتعالى**: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧]. قال الإمام ابن القيم **رحمة الله تعالى** في كلامه على هذه الآية في "المدارج" (٤ / ٨١): جعل الله **سبحانه** كلامه ذكرى، لا ينتفع بها إلا من جمع هذه الأمور الثلاثة: **أحدها** أن يكون له قلب حي، واع. فإذا فقد هذا القلب لم ينتفع بالذكرى.

ثم لما صار على أكثر الأمة ما صار...

.....

الثاني أن يصغي بسمعه، فيميله كله نحو المخاطب. فإن لم يفعل لم ينتفع بكلامه.

الثالث أن يحضر قلبه وذهنه عند المكلّم له، وهو الشهيد، أي: الحاضر غير الغائب. فإن غاب قلبه، وسافر، في موضع آخر لم ينتفع بالمخاطب. وهذا كما أن المبصر لا يدرك حقيقة المرئي إلا إذا كانت له قوة مبصرة، وحقّق بها نحو المرئي، ولم يكن قلبه مشغولاً بغير ذلك. فإن فقد القوة المبصرة، أو لم يحدّق نحو المرئي، أو حدّق نحوه، ولكن قلبه كله في موضع آخر، لم يدركه. فكثيراً ما يمر بك إنسان، أو غيره، وقلبك مشغول بغيره فلا تشعر بمروره. اهـ المراد.

قوله: «ثم صار على أكثر الأمة» قال الشيخ ابن برجس في شرحه لـ “الأصول الستة” (ص ٣٣): فيه بيان أن الأمة مرت بمرحلتين، مرحلة سليمة، وهي زمن النبي ﷺ وزمن القرون المفضلة، التي شهد لها الرسول ﷺ بالخيرية. وهذه القرون سلمت من الشرك، حتى يؤس الشيطان أن يعبد في جزيرة العرب. ولما بعدت هذه القرون صارت الأمة إلى ما صارت إليه من انتشار الجهل وقلة العلم، مما كان سبباً في انتشار الشرك بالله وانتشار البدع والمحدثات. اهـ.

به برو التوحيد وانتشاره:

وفي بيان بدو التوحيد ما وصفه به جعفر بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في ما أخرج الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ في “المسند” (١/ ٢٠١-٢٠٣) من حديث **أم سلمة** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، زوج النبي ﷺ، في حديث طويل في قصة الهجرة إلى الحبشة، وفيه: قالت: فكان

..

الذي كلمه جعفر بن أبي طالب. فقال له: أيها الملك! كنا قوما أهل جاهلية نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، يأكل القوي منا الضعيف.

فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولا منا نعرف نسبه، وصدقه، وأمانته، وعفافه، فدعانا إلى الله؛ لنوحده، ونعبده، ونخلع ما كنا نحن نعبد وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان. وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء. ونهانا عن الفواحش، وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنة. وأمرنا أن نعبد الله وحده، لا نشرك به شيئا. وأمرنا بالصلاة، والزكاة، والصيام - قالت: فعدد عليه أمور الإسلام -. فصدقناه، وآمنا به، واتبعناه على ما جاء به.

فعبدنا الله وحده، فلم نشرك به شيئا، وحرمنا ما حرم علينا، وأحللنا ما أحل لنا. فعدا علينا قومنا؛ فعذبونا، وفتنونا عن ديننا، ليردونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث... الحديث.

وقد حسن هذا الحديث الشيخ مقبل في "الجامع الصحيح" (٣٤٦٧).

وقد ذكر الإمام الشاطبي رحمته الله في "الاعتصام" كلاما في هذا الصدد، ثم قال في سبب هذا العداء وما حصل بعد ذلك من انتشار الإسلام (١/ ٤٨ - ٤٩): إنما كان هذا جهلا منهم بمواقع الحكمة، وأن ما جاءهم به نبيهم عليه السلام هو الحق، ضد ما هم عليه، فمن جهل شيئا عاداه.

فلو علموا لحصل الوفاق، ولم يسع الخلاف، ولكن سابق القدر حتم على الخلق ما هم عليه، قال الله **نعم: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۖ إِلَّا مَن رَّجِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ [هود].**

..

ثم استمر مزيد الإسلام، واستقام طريقه، على مدة حياة النبي ﷺ ومن بعد موته، وأكثر قرن الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ. اهـ.

بعد انتشار الشر والشركة بعد وسمرة الأمة:

قال الإمام الشاطبي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بعد ما سبق نقله (ص ٥٠): كان الإسلام في أوله وجدته مقاوما -بل ظاهرا-، وأهله غالبين، وسوادهم أعظم الأسود، فخلا من وصف الغربة بكثرة الأهل والأولياء الناصرين. فلم يكن لغيرهم ممن لم يسلك سبيلهم، أو سلكه ولكنه ابتدع فيه، صولة يعظم موقعها، ولا قوة يضعف دونها حزب الله المفلحون. فصار على استقامة، وجرى على اجتماع واتساق، فالشاذ مقهور مضطهد...

إلى أن أخذ اجتماعه في الافتراق الموعود، وقوته إلى الضعف المنتظر، والشاذ عنه تقوى صولته، ويكثر سواده، فاقتضى سر التآسي المطالبة بالموافقة. ولا شك أن الغالب أغلب، فتكالت على سواد السنة البدع والأهواء، ففرق أكثرهم شيئا. اهـ.

بعد التصرف من البرع التي تسببت في انتشار الشركة:

فافتقرت الأمة، وازداد انتشار الشر، ولا يزال... وقد أخرج الإمام البخاري في “صحيحه” (٧١١٦) والإمام مسلم في “صحيحه” (٥١) - (٢٩٠٦) - وهذا لفظه - من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى تضطرب أليات نساء دوس حول ذي الخلصة». وكانت صنما تعبدوها دوس في الجاهلية بتبالة.

...

وأخرج الإمام مسلم عقبه من حديث **عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا**، قالت: سمعت رسول الله ﷺ، يقول: «لا يذهب الليل والنهار حتى تعبد اللات والعزى». فقلت: يا رسول الله! إن كنت لأظن حين أنزل الله ﷻ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿التوبة: ٣٣﴾ أن ذلك تاما. قال: «إنه سيكون من ذلك ما شاء الله، ثم يبعث الله ريحا طيبة فتوفي كل من في قلبه مثقال حبة خردل من إيمان. فيبقى من لا خير فيه، فيرجعون إلى دين آبائهم».

وممن أعان على انتشار الشرك قوم آخرون جاءوا به ظلما وزورا، هم الصوفية المتأخرون. قال الشيخ النجمي **رحمه الله تعالى** في «الدرر النجمية» (ص ٣٨-٣٩): إن أصل التصوف مبالغة في التعبد وزهد في الدنيا. وكان ذلك في أوله فيه شيء من التقرب إلى السنة والاعتدال، كما كان في الصوفية القدامى كأمثال الداراني، وابن أبي الحواري، والجنيد، وبشر الحافي، وإبراهيم بن أدهم، وأمثال هؤلاء... إلا أنه قد تطور التصوف من سيئ إلى أسوأ، وبعد عن السنة بعدا عظيما، فنشأ عن ذلك ما يسمى بالفناء، وما يسمى أيضا، بالمحو، والسكر، والغيبة، والطي، والحضور بالحق، والجلوة، والإحسان، حتى قال قائلهم:

يا رب جوهر علم لو أبوح به لقليل لي: أنت ممن يعبد الوثنا
ولا ستحل رجال مسلمون دمي يرون أقبح ما يأتونه حسنا

حتى أن الصوفية وقعوا في وحدة الوجود، ومن ذلك قولهم:

وهل أنا إلا أنت ذاتا ووحدة وهل أنت إلا نفس عين هويت
كأنني لم أحجب بها وكأنما هي احتجبت بي فازدهى الناس عشقتي
فدنت بأمر حرمة شريعتي وأحييت حكما قد أماتته سنتي

أظهر لهم الشيطان الإخلاص في صورة تنقص الصالحين...

...

وأقول: ليست صوفية أهل القرن الثاني كصوفية المتأخرين، فالأولون بدأت صوفيتهم بالزهد والاجتهاد في العبادة، فيها التي قد تخرج عن الحد المعقول الذي قرره الله ﷻ على لسان نبي الهدى ورسول الرحمة ﷺ؛ حيث قال: «والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكنني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني». اهـ المراد.

قوله: ﴿أظهر لهم الشيطان الإخلاص﴾ قد أقسم الشيطان -لعنه الله- بربه على إغواء جميع عباد الله بتزيين المعاصي لهم، قال الله تعالى عنه: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر: ٣٩].

به التبعة في إيقاع المشركين الأولين في الشرك:

مما استعمله الشيطان الرجيم من الوسائل لإغواء مشركي العرب في الجاهلية تزيين الشرك في أعينهم وإشراجه في قلوبهم ما ذكره العلامة المعلمي رحمه الله تعالى من الشبهة التي قال فيها في ”رفع الاشتباه“ (٢/ ٨٥١): شبهة هذا الفريق هي القياس على ملوك الدنيا، كأنهم يقولون: «إننا نرى الملك من ملوك الدنيا لا يخلو أن يكون لديه أشخاص مقربون، تعرض الناس عليهم حوائجهم، فيعرضها المقربون على الملك، ويسألونه قضاءها، فيقضيها إكراما لهؤلاء المقربين». ويعد هذا من تمام عظمة الملك؛ لأن من الحوائج ما لا يحسن عرضها على الملك بدون واسطة، ومن أصحاب الحوائج من لا يليق لمخاطبة الملك إما لدنائه، وإما لإساءة تقدمت منه. ومنهم من لا يستحق أن تقضى حاجته، ولكن إذا شفع فيها أحد المقربين قضاها الملك؛ لأن ذلك المقرب يستحق الإكرام. اهـ.

بعض الشبهة في إيقاع المتأخرين في الشرك:

ونظير ما تقدم من الوسيلة هو الذي استعمله الشيطان لإغواء المتأخرين، والتاريخ يعيد نفسه... قال الحافظ ابن كثير في "تفسيره" (٤/ ٥٩-٦٠): ثم أخبر **نعم** عن عباد الأصنام من المشركين أنهم يقولون: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٣]، أي: إنما يحملهم على عبادتهم لهم أنهم عمدوا إلى أصنام اتخذوها على صورة الملائكة المقربين في زعمهم. فعبدوا تلك الصور تنزيلاً لذلك منزلة عبادتهم الملائكة؛ ليشفعوا لهم عند الله في نصرهم، ورزقهم، وما ينوبهم من أمر الدنيا. فأما المعاد فكانوا جاحدين له، كافرين به.

قال قتادة، والسدي، ومالك، عن زيد بن أسلم وابن زيد: ﴿إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾، أي: ليشفعوا لنا، ويقربونا عنده منزلة. ولهذا كانوا يقولون في تلبيتهم إذا حجوا في جاهليتهم: لبيك، لا شريك لك إلا شريكاً هو لك، تملكه وما ملك.

وهذه الشبهة هي التي اعتمدها المشركون في قديم الدهر وحديثه. وجاءتهم الرسل **صلوات الله وسلامه عليه** بردها، والنهي عنها، والدعوة إلى إفراد العبادة لله وحده لا شريك له، وأن هذا شيء اخترعه المشركون من عند أنفسهم، لم يأذن الله فيه، ولا رضي به.

بل أبغضه، ونهى عنه... ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]. وأخبر أن الملائكة التي في السماوات من المقربين وغيرهم كلهم عبيد، خاضعون لله، لا يشفعون عنده إلا

..

بإذنه لمن ارتضى، وليسوا عنده كالأمراء عند ملوكهم يشفعون عندهم بغير إذنهم في ما أحبه الملوك، وأبوه، ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ﴾ [النحل: ٧٤]. اهـ المراد. فتبين بما تقدم كون قياس الخالق **نبارك ونعالى** على المخلوق من الوسائل الشيطانية للوقوع في الشرك. وقد نقل الحافظ ابن كثير **رحمته الله** في “تفسيره” (٢/ ٢٨١) عن الإمام الطبري أنه قال: «**مهرني** عمرو بن مالك، ثني يحيى بن سليم الطائفي، عن هشام، عن ابن سيرين، قال: أول من قاس إبليس، وما عبدت الشمس والقمر إلا بالمقاييس»، إسناد صحيح أيضا. اهـ.

وعلى هذه الوتيرة أتى الشيطان وجنوده إلى العباد فزينوا لهم عبادة الصالحين. ولبسوا عليهم في هذه الشبهة، وألبسوها لباس تعظيم قدر هؤلاء الصالحين بأنهم أهل لذلك ومستحقوه، لما لهم عند الله من المنزلة بسبب ما كانوا فيه من الصلاح والعبادة.

وأوقعهم الشيطان -لعنه الله- وحزبه في اليأس من رحمة الله لما هم فيه من المعاصي الكثيرة، وأنه ليس من قدرهم طلب قضاء الحوائج من الله مباشرة، ولا هم أهل لذلك، وأنهم لو فعلوا، وطلبوا من الله، ودعوه، مباشرة لما قضيت لهم حاجة. وزينوا لهم بهذه الخرافات التوسل في دعائهم **له عز وجل** بمن هو أهل لذلك من الصالحين والأولياء... -زعموا-، فيرفعون حوائجهم إلى الله!!

وهذا الفعل نفسه هو الذي أنكره الله **عز وجل** على الأولين، وسماه شركا. وقد قال العلامة السعدي في تفسير ذلك (ص ٧٢٧): ﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ﴾ لا يسمعوكم؛ لأنهم ما بين جماد، وأموات، وملائكة مشغولين بطاعة ربهم. ﴿وَلَوْ سَمِعُوا﴾ على وجه الفرض والتقدير ﴿مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ﴾؛ لأنهم لا يملكون شيئا، ولا يرضى

والتقصير في حقوقهم،...

...

أكثرهم بعبادة من عبده، ولهذا قال: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكْفُرُونَ بِشْرِكِكُمْ﴾، أي: يتبرءون منكم، ويقولون: ﴿سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ﴾. اهـ.
قوله: ﴿التقصير في حقوقهم﴾ وهذه شبهة أخرى أوردتها الشيطان إتماماً لتزيين ما سبق من التوسل. وذلك حيث يزين ذلك التوسل في صورة تعظيم الصالحين، كما يزين تركه في صورة التقصير في حق هؤلاء الصالحين.

بعبادة الصالحين تقصير في حق الله:

والحق ما ورد من الأدلة في تعظيم الصالحين ومحبتهم بقدر ما لهم من الخير، والنهي عن الغلو فيهم ورفعهم فوق منزلتهم التي يستحقونها.
 ومن الغلو فيهم أن يصرف لهم شيء من حق الله، الذي هو عبادته وحده، كما تقدم بيانه. والتوسل بالصالحين، وطلب قضاء الحوائج منهم، ودعائهم، عبادة لهم! والعبادة لا يستحقها إلا الله سبحانه وتعالى.
 فظهر بهذا كون التوسل بالصالحين غلوا في حقهم، وحقيقته الشرك في عبادة الله؛ لأنه صرف شيء من عبادة الله لغيره. وهذا يدل على وقوع تقصير في حق الله.

بفتح الشرك معلوم بالعقل:

ولما غطى ما تقدم ذكره من الشبهات الشيطانية على عقول من استجاب لها لم يدرك أصحابها قبح الشرك. وإلا فالأمر فيه ما أفاده الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى في "المدارج" (٤/٥٠٧-٥٠٨)؛ حيث قال: اعلم أنه إن لم يكن حسن التوحيد وقبح الشرك معلوماً بالعقل، مستقراً في الفطر، فلا وثوق بشيء من قضايا العقل؛ فإن

..

هذه القضية من أجل القضايا البديهيات وأوضح ما ركب الله في العقول والفطر. ولهذا يقول سبحانه عقيب تقرير ذلك: أفلا تعقلون؟ أفلا تذكرون؟ وينفي العقل عن أهل الشرك، ويخبر عنهم بأنهم يعترفون في النار أنهم لم يكونوا يسمعون، ولا يعقلون، وأنهم خرجوا عن موجب السمع والعقل. وأخبر عنهم أنهم ﴿صُمُّ بُكْمٌ عُمًى فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٧١]، وأخبر عنهم أن سمعهم، وأبصارهم، وأفئدتهم، لم تغن عنهم شيئا. وهذا إنما يكون في حق من خرج عن موجب العقل الصريح والفطرة الصحيحة. ولو لم يكن في صريح العقل ما يدل على ذلك لم يكن في قوله تعالى: «انظروا»، و«اعتبروا»، و«سيروا في الأرض فانظروا»، فائدة؛ فإنهم يقولون: عقولنا لا تدل على ذلك، وإنما هو مجرد إخبارك. فما هذا النظر، والتفكير، والاعتبار، والسير في الأرض؟ وما هذه الأمثال المضروبة، والأقيسة العقلية، والشواهد العيانية؟ أفليس في ذلك أظهر دليل على حسن التوحيد والشكر؟

وقبح الشرك والكفر مستقر في العقول والفطر، معلوم لمن كان له قلب حي، وعقل سليم، وفطرة صحيحة، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [الزمر: ٢٧]، وقال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧]، وقال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦]، وقال تعالى: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ [البقرة: ٢٤٠]

...

[٢٦٦]، وقال **نعل**: ﴿قُلْ أَنْظَرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْأَيَّاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١]، وقال **نعل**: ﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [إبراهيم: ٢٥]. اهـ.

بِهِ حَقِيقَةُ الْغُلَا فِي الصَّالِحِينَ خَمْسَ مَقَاصِدَ:

قال شيخ الإسلام **رمه الله تعالى** في "الاستغاثة" (٢/٤٩٧-٤٩٨) ما المراد منه: الغلاة المشركون هم في الحقيقة بخسوا الرسل ما يستحقونه من التعظيم دون الأمة الوسط، أهل التوحيد، المتبعين لشريعة الرسل. وبيان ذلك بأمور، منها أن النصارى يقولون أنهم يعظمون المسيح - وكذلك الغالية في علي، والأئمة، أو الشيوخ، أو غيرهم -، وهم في الحقيقة متنقصون لهم؛ فإن المسيح **عليه السلام** أمرهم بعبادة الله وحده، لا شريك له، وأخبرهم أنه عبد الله. فهم إذا تبعوه كان له من الأجر مثل أجورهم من غير أن ينقص من أجورهم شيئاً، كما ثبت في "الصحيح" عن النبي **ﷺ**، أنه قال: «من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه من غير أن ينقص من أجورهم شيئاً...»، ويكونون سعداء، أولياء الله، من أهل الجنة.

... وإذا غلوا فيه، واتخذوه ربا، انقطع العمل الصالح الذي كان يحصل بتوحيدهم وطاعتهم، وحصل لهم مع ذلك عذاب أليم، وإن كان هو سليماً من العذاب. لكن فوتوه الأجر الذي كان يحصل له بتوحيدهم وطاعتهم. وأما أهل الاستقامة فهم إذا وحدوا الله، وعبدوه، كما شرعته لهم الرسل، وأطاعوهم، صاروا أولياء الله مستيقنين لثوابه. وحصل للرسول بالذي دعاهم مثل أجورهم، وكان في هذا من التعظيم للرسول ما ليس في طريق الغلاة. اهـ.

وأظهر لهم الشرك بالله في صورة محبة الصالحين وأتباعهم.

...

قوله: ﴿محبة الصالحين﴾ في ما سبق ما يبين المقدار المشروع في محبة الصالحين والنهي عن الغلو فيها. ويزيد لذلك تقريراً القاعدة التي أفادها شيخ الإسلام في الفصل التالي...

بـ فاجرة في رد الغلو في الصالحين:

قال شيخ الإسلام **رحمه الله تعالى** في "الاستغاثة" (١/٣٥٣-٣٥٥): فمن غلا في طائفة من الناس فإنه يذكر له من هو أعلى منه، ويبين أنه لا يجوز هذا الغلو فيه، فكيف يجوز الغلو في الأدنى؟

كما قال بعض الشيعة لبعض شيوخ أهل السنة: تقول: إن مولانا أمير المؤمنين علياً كان معصوماً؟ فقال: أبو بكر وعمر عندنا أفضل منه، وما كانا معصومين. وكما يقال لمن يعظم شيخه، أو أميره، بأنه يطاع في كل شيء، وأنه لا تنبغي مخالفته، فيقال له: أبو بكر أفضل منه، وقد قال: أطيعوني ما أطعت الله، فإذا عصيت الله فلا طاعة لي عليكم. إنما أنا متبع، ولست بمبتدع. فإن أحسنت فأعينوني، وإن زغت فقوموني.

وكما ظن الغالي أن الصالحين لا يؤذيهم عدوهم، ولا يجرحون، لاعتقاده أن ذلك نقص فيهم، وأنهم قادرون على دفع كل أذى. فيقال: أفضل الخلق محمد **ﷺ** قد أؤذي، وقد جرح، يوم أحد، وذلك كرامة من الله **تعالى**؛ ليعظم أجره، ويزيده رفعة بالصبر على الأذى في الله.

وكذلك لو حلف حالف بشيخه، فقيل له: لا تحلف بغير الله، فمن حلف بغير الله فقد أشرك. وكذلك إذا اعتقد معتقد بشيخه أنه يشفع لمريديه، وأن له راية



..

خاتمة في هذا الأصل

والسعادة الأبدية منوطة بتوحيد العبد لربه **نعم**؛ فإنه لا يدخل الجنة إلا نفس طيبة، قال الله **عز وجل**: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ [الزمر: ٧٣]، وقال الله **جل وعلا**: ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّيْهُمْ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٣٢].

وطيب النفس بسبب توحيد العبادة لله، وقد قال الله **عز وجل**: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾ [إبراهيم: ٢٤]، قال الإمام ابن جرير في “تفسيره” (٢٠٣/١١): ﴿كَلِمَةً طَيِّبَةً﴾، ويعني بالطيبة الإيمان به **جل نازه**. اهـ المراد.

ويوضح هذا المعنى ما قاله شيخ الإسلام **رحمه الله** في هذه الآية كما في “تفسيره” (١١١/٤): الكلمة الطيبة هي التوحيد، وهي كالشجرة، والأعمال ثمارها في كل وقت. فجميع الأعمال الحسنة تضاعف لصاحبها، وجميعها من عبادة الله وحده، وهي من فروع قول: «لا إله إلا الله». بل الأعمال تحقق قول: «لا إله إلا الله»؛ فإن الإيمان قول وعمل. اهـ المراد.

ويزيد لهذا المعنى تقريراً ما أخرجه الإمام مسلم **رحمه الله** في “صحيحه” (٦٥) - (١٠١٥) عن **أبي هريرة رضى الله عنه**، قال: قال رسول الله **ﷺ**: «أيها الناس! إن الله طيب، لا يقبل إلا طيباً...» الحديث، إضافة إلى ما أخرجه **رحمه الله** تحت رقم (٤٦) - (٢٩٨٥) عن **أبي هريرة رضى الله عنه**، قال: قال رسول الله **ﷺ**: «قال الله **تبارك وتعالى**: أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركه».

...

فتقييد النظر في هذين الحديثين بما تقدم في تفسير الآية المتقدمة يفيد أن الله **نعال** لا يقبل من العمل إلا ما أخلص العبد فيه لله وحده لا شريك له، وهذا هو العمل الطيب، الذي لا يقبل الله غيره.

وأما الشرك فخييث ونجس؛ قال الله **نعال**: ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ [التوبة: ٢٨]، قال الحافظ ابن كثير **رحمه الله** في "تفسيره" (٢/ ٤٧٢): أمر **نعال** عباده المؤمنين الطاهرين دينا وذاتا بنفي المشركين، الذين هم نجس دينا، عن المسجد الحرام. اهـ المراد.



الأصل الثاني

الأصل الثاني: أمر الله بالاجتماع في الدين والنهي عن التفرق...

.....

قوله: {التفرق} قال العلامة ابن الأثير في مادة «فرق» من «النهاية»: «والتفرق والافتراق سواء. اهـ».

مع المراد بالتفرق المنهي عنه:

ولابد من تقييد التفرق السابق الذكر في كلام المصنف بما أفاد الإمام الشاطبي رحمه الله تعالى في «الاعتصام» (٢/ ١٨٦-١٨٧)؛ حيث قال بعد ذكر روايات لحديث الافتراق: لا يصح أن يراد مطلق الافتراق بحيث يطلق صور لفظ الاختلاف على معنى واحد؛ لأنه يلزم أن يكون المختلفون في مسائل الفروع داخليين تحت إطلاق اللفظ. وذلك باطل بالإجماع؛ فإن الخلاف من زمان الصحابة إلى الآن واقع في المسائل الاجتهادية. وأول ما وقع الخلاف في زمان الخلفاء الراشدين، المهديين، ثم في سائر الصحابة، ثم في التابعين، ولم يعب أحد ذلك منهم. وبالصحابة اقتدى من بعدهم في تسويغ الخلاف، فكيف يمكن أن يكون الافتراق في المذاهب مما يقتضيه إطلاق الحديث؟!

وإنما يراد افتراق مقيد، وإن لم يكن في الحديث نص عليه ففي الآيات ما يدل عليه، قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ۚ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا

فبين الله هذا بيانا شافيا تفهمه العوام.

شِعَاعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿١٥٨﴾، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِعَاعًا لَّسَتْ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٩]، وما أشبه ذلك من الآيات الدالة على التفرق الذي صاروا به شعاعا.

ومعنى «صاروا شيعا»، أي: جماعات بعضهم قد فارق البعض، ليسوا على تألف، ولا تعاضد، وتناصر. بل على ضد ذلك؛ فإن الإسلام واحد، وأمره واحد، فاقضى أن يكون حكمه على الائتلاف التام، لا على الاختلاف.

وهذه الفرقة مشعرة بتفريق القلوب المشعر بالعداوة والبغضاء، ولذلك قال:

﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٠٣]، فين أن التألف

إنما يحصل عند الائتلاف على التعلق بمعنى واحد.

وأما إذا تعلقت كل شيعة بحبل غير ما تعلقت به الأخرى فلا بد من التفرق، وهو معنى قوله **نمل:** ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

وإذا ثبت هذا تنزل عليه لفظ الحديث، واستقام معناه، والله أعلم. اهـ.

قوله: ﴿فبين الله هذا بيانا شافيا﴾ قد بين الله **جمل وعمله** هذا الأصل العظيم بيانا لا يترك بعده للعليل علة ولا للغليل عطشا.

ويقرب معنى هذا الأصل الصورة الشاملة التي قال فيها العلامة بكر أبو زيد رحمه الله تعالى في "حكم الانتفاء" (ص ٧٨): الإسلام مبني على الوحدةانية، فالرب، الخالق، المعبود، واحد، والرسول واحد، والقبلة واحدة، والحق واحد، فالدعوة

..

إلى ذلك واحدة بسبيل واحدة. والمسلمون حزب واحد، ﴿أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة: ٢٢]، والوشيجة بينهم واحدة هي الإسلام، ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ الآية [المجادلة: ٢٢].

والطريق الجامعة لذلك، الموصلة إلى الله والدار الآخرة هي الإسلام، ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، وهي الشريعة، لا غير، ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا﴾ [الحاشية: ١٨]. وهذا هو الحق، وهو واحد، لا يتعدد، ﴿فَمَاذَا بَعَدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾ [يونس: ٣٢].

ودارهم هي دار الإسلام، وما عداها فلا، ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ [يوسف: ١٠٨] في غيرها من النظائر. وعليه إن تعدد السبل بتعدد الأحزاب حل لعرى الجماعة وتبديد للسبيل إلى سبل بينهما من الاختلاف والاضطراب ما هو معلوم!! اهـ.

﴿أمر الله أمر الكوني وسرهي﴾

وأمر الله **جل وجله** منقسم إلى قسمين، قال الإمام ابن أبي العز **رحمته الله** في التمثيل لكل واحد منهما في ”شرح الطحاوية“ (ص ٤٢٢):

وأما الأمر الكوني ففي قوله **نالا**: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ وَاكُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]، وكذا قوله **نالا**: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ [الإسراء: ١٦] في أحد الأقوال، وهو أقواها.

[النساء: ٥٨]. اهـ.

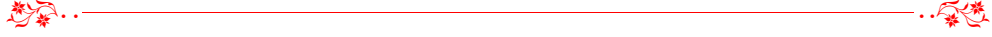
بما يتعلق بالأمر الكوناني في مسائلنا:

وأدلة ذلك آت، إن شاء الله.

مَقْدُورًا ﴿[الأحزاب: ٣٨].

الآية [البقرة: ٢١٣].

الإنسان به، أو يشقى، في الآخرة والدنيا. اهـ.



سبب تفرق الناس إلى ملل شتى محرم توحيد العباد لله:

قال الإمام الشاطبي في ”الاعتصام“ (١٥٩/٢-١٦٠) بعد ما سبق: وأصل هذا الاختلاف هو في التوحيد والتوجه للواحد الحق سبحانه؛ فإن الناس في عامة الأمر لم يختلفوا في أن لهم مدبراً يدبرهم وخالقاً أوجدهم، إلا أنهم اختلفوا في تعيينه على آراء مختلفة، من قائل بالاثنين، أو بالخمسة، أو بالطبيعة، أو بالدهر، أو بالكواكب... إلى أن قالوا: بالآدميين، والشجر، والحجارة، وما ينحتونه بأيديهم. ومنهم من أقر بواجب الوجود الحق، لكن على آراء مختلفة أيضاً...

إلى أن بعث الله الأنبياء مبينين لأمرهم حق ما اختلفوا فيه من باطله، فعرفوا بالحق على ما ينبغي، ونزهوا رب الأرباب عما لا يليق بجلاله من نسبة الشركاء، والأنداد، وإضافة الصاحبة والأولاد، فأقر بذلك من أقر به، وهم الداخلون تحت مقتضى قوله: ﴿إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ﴾ [هود: ١١٨]. وأنكر من أنكر فصار إلى مقتضى قوله: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود: ١١٩]. وإنما دخل الأولون تحت وصف الرحمة؛ لأنهم خرجوا عن وصف الاختلاف إلى وصف الوفاق والألفة، وهو قوله: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٠٣]. اهـ المراد.

وهذا الوصف إنما هو توحيد العبادة لله وتوحيد المتابعة لرسول الله ﷺ، كما يأتي إيضاحه، إن شاء الله. ونكتفي لفهم المراد في هذا الموضع بما قاله الإمام ابن جرير الطبري في ”تفسيره“ (١٤٢/١٢) أثناء كلامه على الآيتين في سورة هود: أولى الأقوال في تأويل ذلك بالصواب قول من قال: ولا يزال الناس مختلفين في أديانهم وأهوائهم على أديان، وملل، وأهواء، شتى، ﴿إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ﴾، فآمن

...

بالله، وصدق رسله. فإنهم لا يختلفون في توحيد الله، وتصديق رسله، وما جاءهم من عند الله. اهـ.

بـ الشرك ماوة التفرق:

وأما الشرك فهو مادة التفرق، قال الحافظ ابن كثير **رحمه الله تعالى** في "تفسيره" (٥٨٧/٣): وقوله: ﴿مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [الروم: ٣٢]، أي: لا تكونوا من المشركين الذين قد فرقوا دينهم، أي: بدلوه، وغيروه، وآمنوا ببعض، وكفروا ببعض.

وقرأ بعضهم: «فارقوا دينهم»، أي: تركوه وراء ظهورهم، وهؤلاء كاليهود، والنصارى، والمجوس، وعبداء الأوثان، وسائر أهل الأديان الباطلة، مما عدا أهل الإسلام، كما قال **تعالى**: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٥٩]. اهـ المراد.

ومن هنا تظهر المناسبة في كلام المصنف **رحمه الله تعالى** بين هذا الأصل والأول. وفي ما ذكره الله **تبارك وتعالى** في كتابه من قصة أهل سبأ عبرة لأولي الألباب، قال الحافظ ابن كثير **رحمه الله تعالى** في "تفسيره" (٧٢٠/٣): ... كما قال **تبارك وتعالى**: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكِنِهِمْ آيَةٌ﴾ [سبأ: ١٥]، ثم فسرهما بقوله **عز وجل**: ﴿جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ﴾، أي: من ناحيتي الجبلين، والبلدة بين ذلك. ﴿كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَأَشْكُرُوا لَهُ بَلَدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبِّ غَفُورٌ﴾ [سبأ: ١٥]، أي: غفور لكم إن استمررتم على التوحيد.

وقوله **تعالى**: ﴿فَاعْرِضُوا﴾ [سبأ: ١٦]، أي: عن توحيد الله، وعبادته، وشكره على ما أنعم به عليهم. وعدلوا إلى عبادة الشمس من دون الله، كما قال الهدهد

..

لسليمان عليه الصلاة والسلام: ﴿وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّي وَجَدْتُ أَمْرًا تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيْنَ لَهُمْ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾ [النمل]. اهـ المراد.

ثم قال رحمه الله (ص ٧٢١) في تنمة تفسيره للآيات المتعلقة بهذه القصة: وقال تعالى في حق هؤلاء: ﴿فَقَالُوا رَبَّنَا بَعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ [سبأ: ١٩]، أي: بكفرهم، ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَرْقَنَهُمْ كُلَّ مُمَرِّقٍ﴾، أي: جعلناهم حديثا للناس، وسمرا، يتحدثون به من خبرهم، وكيف مكر الله بهم، وفرق شملهم بعد الاجتماع، والألفة، والعيش الهنيء، تفرقوا في البلاد ههنا ههنا. ولهذا تقول العرب في القوم إذا تفرقوا: «تفرقوا أيدي سبأ»، و«أيادي سبأ»، و«تفرقوا شذر مذر». اهـ.

بعض أسباب تفرق الأمة إلى فخذ شتى حرم التمسك بالسنة:

أخرج الإمام ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى في “تفسيره” (١٤٢/١٢) بإسناد حسن ما قال فيه: **حمرنا** بشر، قال: ثنا يزيد، قال: ثنا سعيد، عن قتادة، قوله: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١٧٨﴾ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ﴾ [هود]، فأهل رحمة الله أهل جماعة، وإن تفرقت دورهم وأبدانهم. وأهل معصية الله أهل فرقة، وإن اجتمعت دورهم وأبدانهم. اهـ.

وبداهة المراد بأهل الجماعة أهل السنة، قال الإمام الشاطبي في “الاعتصام” (١٦٥/٢) أثناء كلامه على الآيتين المتقدمتين: قد ذهب جماعة من المفسرين إلى أن المراد بالمختلفين في الآية أهل البدع، وأن من رحم ربك أهل السنة. اهـ.

...

سموا بهذا لتمسكهم بالسنة النبوية، فأوجب لهم الأمان من الفرقة. وفي ذلك ما قال فيه الإمام أبو داود في "سننه" (٤٦٠٧): **حمرنا** أحمد بن حنبل، ثنا الوليد بن مسلم، ثنا ثور بن يزيد، قال: ثني خالد بن معدان، قال: ثني عبد الرحمن بن عمرو السلمي وحجر بن حجر، قالوا: أتينا **العرباض بن سارية** **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ** - وهو ممن نزل فيه ﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ [التوبة: ٩٢] -، فسلمنا، وقلنا: أتيناك زائرين، وعائدين، ومقتبسين. فقال **العرباض**: صلى بنا رسول الله ﷺ ذات يوم، ثم أقبل علينا فوعظنا موعظة بليغة، ذرفت منها العيون، ووجلت منها القلوب. قال قائل: يا رسول الله! كأن هذه موعظة مودع، فماذا تعهد إلينا؟ فقال: «أوصيكم بتقوى الله، والسمع، والطاعة، وإن عبدا حبشيا. فإنه من يعش منكم بعدي فسيرى اختلافا كثيرا، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين، المهديين، تمسكوا بها، وعضوا عليها بالنواجذ. وإياكم ومحدثات الأمور؛ فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة».

وقد حسن الحديث الشيخ مقبل **رمه** **اللهم تعال** في "الجامع الصحيح" (٢٥٣).

بسم البرج ماوة التفريق:

قال الحافظ ابن كثير **رمه** **اللهم تعال** في "تفسيره" (٥٨٧/٣): هذه الأمة أيضا، اختلفوا في ما بينهم على نحل كلها ضلالة إلا واحدة، وهم أهل السنة والجماعة، المتمسكون بكتاب الله وسنة رسول الله ﷺ، وبما كان عليه الصدر الأول من الصحابة، والتابعين، وأئمة المسلمين في قديم الدهر وحديثه. اهـ.

قال شيخ الإسلام **رمه** **اللهم تعال** في "مجموعة الفتاوى" (٥٢/٤): ولست تجد اتفاقا وائتلافا إلا بسبب اتباع آثار الأنبياء من القرآن، والحديث، وما يتبع ذلك.

..

ولا تجد افتراقا واختلافا إلا عند من ترك ذلك، وقدم غيره عليه، قال **نعل:** ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۖ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ [هود]، فأخبر أن أهل الرحمة لا يختلفون. وأهل الرحمة هم أتباع الأنبياء قولا وفعلا، وهم أهل القرآن والحديث من هذه الأمة.

فمن خالفهم في شيء فاته من الرحمة بقدر ذلك. ولهذا لما كانت الفلاسفة أبعد عن اتباع الأنبياء كانوا أعظم اختلافا. والخوارج، والمعتزلة، والروافض، لما كانوا أيضا، أبعد عن السنة والحديث كانوا أعظم افتراقا في هذه، لاسيما الرافضة؛ فإنه يقال: إنهم أعظم الطوائف اختلافا. وذلك لأنهم أبعد الطوائف عن السنة والجماعة. اهـ المراد.

في التفرق في توحيد العبادة وفي توحيد التوحيدي فطره (الله):

ولفظ الآيتين في سورة هود يشمل التفسيرين المتقدمين، فيكون تفرق الناس في توحيد العبادة لله إلى ملل شتى وتفرق هذه الأمة إلى نحل عدة في توحيد التوحيدي للرسول ﷺ مما قدره الله سبحانه على عباده. وذلك كائن، لا محالة، ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾ [الأحزاب: ٣٧].

وعلى هذا فتفسير قوله **نعل:** ﴿وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ [هود: ١١٩] ما قاله الإمام ابن جرير **رحمه الله نعل:** في “تفسيره” (١٢ / ١٤٤): وأولى القولين في ذلك بالصواب قول من قال: وللاختلاف بالشقاء والسعادة خلقهم؛ لأن الله **جل ثناؤه** ذكر صنفين من خلقه، أحدهما أهل اختلاف وباطل، والآخر أهل حق، ثم عقب ذلك بقوله: ﴿وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾. فعم بقوله: ﴿وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ صفة الصنفين، فأخبر عن كل فريق منهما أنه ميسر لما خلق له.

ونهانا أن نكون كالذين تفرقوا...

فإن قال قائل: فإن كان تأويل ذلك كما ذكرت فقد ينبغي أن يكون المختلفون غير ملومين على اختلافهم؛ إذ كان لذلك خلقهم ربهم، وأن يكون المتمتعون هم الملوّمين؟ قيل: إن معنى ذلك بخلاف ما إليه ذهبت، وإنما معنى الكلام: ولا يزال الناس مختلفين بالباطل من أديانهم ومللهم، ﴿إِلَّا مَنْ رَّحِمَ رَبُّكَ﴾، فهذه للحق ولعلمه، وعلى علمه النافذ فيهم قبل أن يخلقهم أنه يكون فيهم المؤمن والكافر، والشقي والسعيد، خلقهم. فمعنى اللام في قوله: ﴿وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ بمعنى على، كقولك للرجل: «أكرمتك على برك بي»، و«أكرمتك لبرك بي». اهـ.

قال أبو عبد الله: ثم وراء هذا أن العبد لا علم له بما قدره الله سبحانه ونعماء عليه من السعادة والشقاوة. ولكن يعلم الطريق الموصلة إلى السعادة، وهي الطريق التي أمر الله أمرا شرعيا سائر عبادته بسلوكها، وذلك بامثال أمره بإخلاص العبادة له سبحانه ونعماء واتباع سنة نبيه ﷺ. ويأتي لهذا المعنى مزيد إيضاح، إن شاء الله.

قوله: ﴿ونهانا أن نكون كالذين تفرقوا﴾ والآيات التي نهانا الله سبحانه ونعماء فيها عن التفرق في الدين كثيرة. وقد جمع الإمام الشنقيطي في "تفسيره" (١٩٠/٧-١٩١) في المسألة جمعا طيبا، وبين رحمه الله وجوه الدلالة فيها؛ حيث قال: قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣]، الضمير في قوله: ﴿فِيهِ﴾ راجع إلى ﴿الدين﴾ في قوله: ﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ﴾ [الشورى: ١٣]. وما تضمنته هذه الآية الكريمة من النهي عن الافتراق في الدين جاء مبينا في غير هذا الموضع.

وقد بين تعالى أنه وصى خلقه بذلك، فمن الآيات الدالة على ذلك قوله تعالى: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ الآية [آل عمران: ١٠٣]، وقوله تعالى:

واختلفوا، قبلنا فهلكوا.

﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّيْنَاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

قد بين **نعم** في بعض المواضع أن بعض الناس لا يجتنبون هذا النهي، وهددهم على ذلك، كقوله **نعم**: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيْعًا لَّسْتُ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾؛ لأن قوله: ﴿لَسْتُ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ إلى قوله: ﴿يَفْعَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٩] فيه تهديد عظيم لهم. وقوله **نعم** في سورة قد أفلح المؤمنون: ﴿وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ ۖ فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ۖ فَذَرَهُمْ فِي غَمَرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ﴾، فقوله: ﴿وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾، أي: إن هذه شريعتكم شريعة واحدة، ودينكم دين واحد، وربكم واحد، فلا تتفرقوا في الدين.

وقوله **حمد وحمد**: ﴿فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا﴾ دليل على أنهم لم يجتنبوا ما نهوا عنه من ذلك. وقوله **نعم**: ﴿فَذَرَهُمْ فِي غَمَرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ﴾، فيه تهديد لهم ووعيد عظيم على ذلك.

ونظير ذلك قوله **نعم** في سورة الأنبياء: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ۖ وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ كُلُّ إِلَيْنَا رَاغِبُونَ﴾، فقوله **نعم**: ﴿كُلُّ إِلَيْنَا رَاغِبُونَ﴾ فيه أيضا، تهديد لهم ووعيد على ذلك. اهـ.

قوله: ﴿فهلكوا﴾ والتفرق يسبب للأمة ضعفا، قال الله **حمد وحمد**: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [الأنفال: ٤٦]. قال الإمام

..

السعدي في "تفسيره": ﴿وَلَا تَنَزَعُوا﴾ تنازعا يوجب تشتت القلوب وتفرقها، ﴿فَتَفْشَلُوا﴾، أي: تجنبوا، ﴿وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾، أي: تنحل عزائمكم، وتفرق قوتكم، ويرفع ما وعدتم به من النصر على طاعة الله ورسوله. اهـ.

مع كل فرق هذه الأمة هالكة إلا واحدا:

قال شيخ الإسلام **رحمه الله تعالى** في "الاقتضاء" (ص ٩٥-٩٦): الاختلاف على ما ذكره الله في القرآن قسما؛

أحدهما يذم الطائفتين جميعا، كما في قوله: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۖ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ [هود]، فجعل أهل الرحمة مستثنين من الاختلاف. وكذلك قوله **تعالى**: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ [البقرة: ١٧٦]، وكذلك قوله: ﴿وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوْتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾ [آل عمران: ١٩]، وقوله: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ [آل عمران: ١٠٥]، وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٥٩].

كذلك وصف اختلاف النصارى بقوله: ﴿فَأَعْرَبْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [المائدة: ١٤]، ووصف اختلاف اليهود بقوله: ﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ﴾ [المائدة: ٦٤]، وقال: ﴿فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٣].

وذكر أنه أمر المسلمين بالاجتماع في الدين، ونهاهم عن التفرق فيه. ويزيده وضوحاً ما وردت به السنة من العجب العجيب في ذلك.

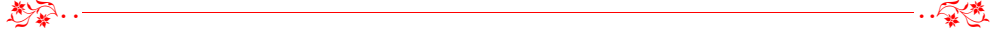
...

وكذلك النبي ﷺ لما وصف أن الأمة تفترق على ثلاث وسبعين فرقة قال: «... كلها في النار إلا واحدة، وهي الجماعة»، وفي الرواية الأخرى: «من كان على مثل ما أنا عليه اليوم وأصحابي». فبين أن عامة المختلفين هالكون من الجانبين إلا فرقة واحدة، وهم أهل السنة والجماعة. اهـ المراد.

قول: «يزيده وضوحاً ما وردت به السنة» قد سبق من أدلة كتاب الله تعالى مما يبين هذا الأصل الخير الكثير، وزاده تجلية ما تقدم من كلام العلماء.

وأما توضيح السنة لهذا الأصل فالأمر في ذلك كما قاله المصنف؛ فإنه لا يخفى على من أمعن النظر في ذلك أدنى نظر. وقد ذكر شيخ الإسلام من هذه الأحاديث جملة في «الاقتضاء»، ثم قال (ص ٩٣-٩٤): وهذا المعنى محفوظ عن النبي ﷺ من غير وجه، يشير إلى أن التفرقة والاختلاف لابد من وقوعهما في الأمة. وكان يحذر أمته منه؛ لينجو من الوقوع فيه من شاء الله له السلامة، كما روى النزال بن سبرة، عن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: سمعت رجلاً قرأ آية سمعت النبي ﷺ يقرأ خلافاً. فأخذت بيده فانطلقت به إلى النبي ﷺ، فذكرت ذلك له، فعرفت في وجهه الكراهية، وقال: «كلاهما محسن، ولا تختلفوا؛ فإن من كان قبلكم اختلفوا فهلكوا»، رواه مسلم.

نهى النبي ﷺ عن الاختلاف الذي فيه جحد كل واحد من المختلفين ما مع الآخر من الحق؛ لأن كلا القارئ كان محسناً في ما قرأه. وعلل ذلك بأن من كان قبلنا اختلفوا، فهلكوا. ولهذا قال حذيفة لعثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «أدرك هذه الأمة، لا



تختلف في الكتاب كما اختلف فيه الأمم قبلهم» لما رأى أهل الشام وأهل العراق يختلفون في حروف القرآن الاختلاف الذي نهى عنه النبي ﷺ .
فأفاد ذلك بشيئين:

أحدهما تحريم الاختلاف في مثل هذا.

والثاني الاعتبار بمن كان قبلنا والحذر من مشابهتهم. اهـ.

وقد نبه على أمر مهم لو تنبه له المختلفون، وعملوا بمقتضاه، لزال اختلاف كثير؛ فقال **رحمته الله** عقب ما تقدم نقله: واعلم أن أكثر الاختلاف بين الأمة الذي يورث الأهواء تجده من هذا الضرب. وهو أن يكون كل واحد من المختلفين مصيباً في ما يثبت، أو في بعضه، مخطئاً في نفي ما عليه الآخر، كما أن القارئ كل منهما كان مصيباً في القراءة بالحرف الذي علمه، مخطئاً في نفي حرف غيره.
فإن أكثر الجهل إنما يقع في النفي الذي هو الجحود والتكذيب، لا في الإثبات؛ لأن إحاطة الإنسان بما يثبت أسير من إحاطته بما ينفيه. اهـ المراد.

بعض أسباب التفرق والجمعة إلى فوائد المختلفين:

قد تقدم ما يبين كون سبب اختلاف الناس إلى ملل شتى بعدهم عن توحيد العبادة، كما تقدم بيان كون بعد هذه الأمة عن توحيد المتابعة من أسباب اختلافهم إلى فرق عديدة. وإنما القصد في هذا الموضع بيان بعض أسباب اختلاف هذه الأمة التي ترجع إلى ذات المختلفين. وقد تقدم في كلام شيخ الإسلام **رحمته الله تعالى** ذكر الجهل، وقد أعاده لأهميته بعد ذلك في كلامه، وأضاف إليه أسباباً أخرى؛ إذ قال (ص ٩٦ و ١٠١): فبين أن عامة المختلفين هالكون من الجانبين إلا فرقة واحدة، وهم أهل السنة والجماعة. وهذا الاختلاف المذموم من الطرفين يكون سببه،

..

تأمر فساد النية لما في النفوس من البغي، والحسد، وإرادة العلو في الأرض بالفساد، ونحو ذلك، فيحب لذلك ذم قول غيره، أو فعله، أو غلبته؛ لتمييز عليه. أو يحب قول من يوافقه في نسب، أو مذهب، أو بلد، أو صداقة، ونحو ذلك... لما في قيام قوله من حصول الشرف والرئاسة له. وما أكثر هذا من بني آدم، وهذا ظلم.

ويكون سببه تأمر أخرى جهل المختلفين بحقيقة الأمر الذي يتنازعان فيه، أو الجهل بالدليل الذي يرشد به أحدهما الآخر، أو جهل أحدهما بما مع الآخر من الحق في الحكم، أو في الدليل، وإن كان عالما بما مع نفسه من الحق حكما ودليلا... وأكثر الاختلاف الذي يؤول إلى الأهواء بين الأمة من القسم الأول الذي تقدم نقله. وكذلك آل إلى سفك الدماء واستباحة الأموال، والعداوة والبغضاء؛ **لأن إحدى الطائفتين لا تعترف للأخرى بما معها من الحق**، ولا تنصفها. بل تزيد على ما مع نفسها من الحق زيادات من الباطل، والأخرى كذلك.

وكذلك جعل الله مصدرا لاختلاف البغي في قوله: ﴿وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾ [البقرة: ٢١٣]. اهـ المراد.

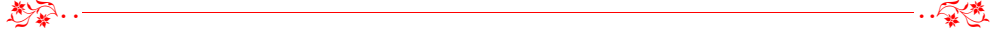
بسم ما يحسم ماوة التفرق:

إذا تبينت الأسباب المتقدمة إضافة إلى ما ذكر قبلها من البعد عن التوحيدين فليعلم أن لا علاج لحسم مادة التفرق إلا بتوحيد الله في العبادة وتوحيد متابعة النبي ﷺ. قال الإمام ابن القيم في “المدارج” (٣/ ٢٠٥): فهما توحيدان لا نجاة للعبد من عذاب الله إلا بهما؛ توحيد المرسل وتوحيد متابعة الرسول ﷺ. اهـ.

ومن عذاب الله ما وقع من التفرق في هذه الأمة وفي غيرها، قال الله **نعل:** ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبَسَكُمْ شِيْعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ﴾ [الأنعام: ٦٥].

وإذا علم ما سبق من قول الإمام ابن القيم، وتبين ما استظهره شيخ الإسلام ههنا، علم أن لا نجاة للعباد من هذا العذاب الدنيوي إلا بتوحيد عبادتهم لله سبحانه وتوحيد متابعتهم للرسول ﷺ.

ومن المعلوم أن الذي جاء به النبي ﷺ هو توحيد العبادة وتوحيد المتابعة، وقد دل الحديث بكون ذلك هو سبب اجتماع الأنصار بعد تفرقهم.



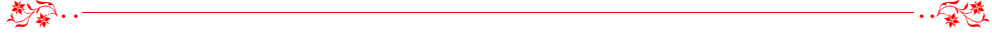
والفرقة الناجية هم من وصفهم النبي ﷺ بأنهم الجماعة، وأنهم المتمسكون بما كان عليه هو ﷺ وأصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ...

في الفرقة الناجية والجماعة على مضي الزمان:

قال الشيخ بكر رحمته الله في ”حكم الانتماء“ (ص ٢٦-٢٧): قد كان المسلمون، وهم الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، قبل بزوغ بذرة التفرق والانشقاق ليس لهم اسم يتميزون به؛ لأنهم كما ذكر يمثلون الإسلام والامتداد الطبعي له. لكن لما حصلت تلك الفرق الضالة، التي يشملها لفظ «أهل الأهواء» لغلبة اتباع الهوى عليهم، ولفظ «أهل البدع» لاتباعهم ما هو خارج عن الدين، أجنبي عنه، و«أهل الشبهات»؛ لأنهم يلبسون الحق بالباطل، فيشبهون به على العامة لبناء خروجهم عن السنة على مرض الشبهة الفاسدة... لما حصلت تلك الفرق منتسبة إلى الإسلام، منشقة عن العمود الفقري للمسلمين، ظهرت ألقابهم الشرعية، المميزة لجماعة المسلمين، لنفي الفرق والأهواء عنهم، سواء ما كان من الأسماء ثابتا لهم بأصل الشرع، «الجماعة»، «جماعة المسلمين»، «الفرقة الناجية»، «الطائفة المنصورة»، أو بواسطة التزامهم بالسنن أمام أهل البدع، ولهذا حصل الربط لهم بالصدر الأول فقيل: «السلف»، «أهل الحديث»، «أهل الأثر»، «أهل السنة والجماعة».

وهذه الألقاب الشريفة تخالف أي لقب كان لأي فرقة كانت من وجوه:

الأول أنها نسب لم تنفصل، ولا لحظة واحدة، عن الأمة الإسلامية منذ تكونها على منهاج النبوة. فهي تحوي جميع المسلمين على طريقة الرعيل الأول ومن يقتدي بهم في تلقي العلم، وطريقة فهمه، وبطبيعة الدعوة إليه.



فلم يعد إذن محصوراً في دور تاريخي معين.

بل يجب أن يفهم على أن مدلوله مستمر استمرار الحياة، وضرورة انحصار
الفرقة الناجية في أهل الحديث والسنة، وهم أصحاب هذا المنهج. وهي لا تزال
باقية إلى يوم القيامة أخذاً من قوله ﷺ: «لا تزال طائفة من أمتي منصورّة على
الحق، لا يضرهم من خالفهم ولا من خذلهم».

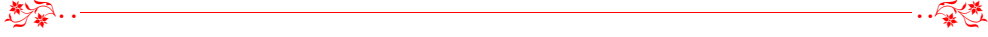
الثاني أنها تحوي كل الإسلام، الكتاب والسنة، فهي لا تختص برسم يخالف
الكتاب والسنة زيادة، أو نقصاً.

الثالث أنها ألقاب منها ما هو ثابت بالسنة الصحيحة، ومنها ما لم يبرز إلا في
مواجهة مناهج أهل الأهواء والفرق الضالة لرد بدعتهم، والتميز عنهم، وإبعاد
الخلطة بهم، ولما بذتهم. فلما ظهرت البدعة تميزوا بالسنة، ولما حُكِّم الرأي تميزوا
بالحديث والأثر، ولما فشت البدع والأهواء في الخلوف تميزوا بهدي السلف،
وهكذا...

ومن الملاحظ أنه لو كانت الأمة في قالب الإسلام الصحيح، خالية من البدع
والأهواء، كما كان الصدر الأول ومقدمة السلف الصالح، لغابت هذه الألقاب
المميزة لعدم وجود المناهض لها.

الرابع أن عقد الولاء، والبراء، والموالاتة، والمعاداة، لديهم هو على الإسلام،
لا غير، لا على رسم باسم معين، ولا على رسم محدد، إنما هو الكتاب والسنة
فحسب.

الخامس أن هذه الألقاب لم تكن داعية لهم للتعصب لشخص دون رسول
الله ﷺ. اهـ المراد.



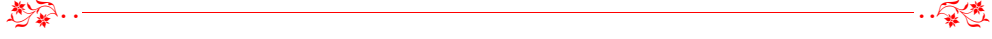
بفتح القاف الفرقة الناجية على حسب الحاجة:

وهذا المعنى هو الذي نبه عليه العلامة بكر أبو زيد رحمته الله في الملاحظة السابق ذكرها في الوجه الثالث.

وهذا نظير ما صدر من بعض الأئمة في رد الباطل الذي جاء به أهل البدع في ما يتعلق ببعض صفات الله سبحانه وتعالى. فزاد هؤلاء الأئمة في سبيل ذلك في كلامهم ألفاظا لم تعهد في زمان الصحابة رضي الله عنهم؛ ليتضح للناس الحق الذي يحاول أهل البدع أن يلبسوه بالباطل. قال العلامة الألباني في ”مختصر العلو“ (ص ١٧-١٨): ومن هذا العرض يتبين أن هاتين اللفظتين «بذاته» و«بائن» لم تكونا معروفتين في عهد الصحابة رضي الله عنهم. ولكن لما ابتدع الجهم وأتباعه القول بأن الله في كل مكان اقتضى ضرورة البيان أن يتلفظ هؤلاء الأئمة بالأعلام بلفظ «بائن»، دون أن ينكره أحد منهم.

ومثل هذا تماما قولهم في القرآن الكريم: «إنه غير مخلوق»؛ فإن هذه الكلمة لا تعرفها الصحابة أيضا، وإنما كانوا يقولون فيه: «كلام الله تبارك وتعالى» لا يزيدون على ذلك. وكان ينبغي الوقوف فيه عند هذا الحد لولا قول جهم وأشياعه من المعتزلة: «إنه مخلوق». ولكن إذا نطق هؤلاء بالباطل وجب على أهل الحق أن ينطقوا بالحق، ولو بتعابير وألفاظ لم تكن معروفة من قبل.

وإلى هذه الحقيقة أشار الإمام أحمد رحمته الله حين سئل عن الواقعة الذين لا يقولون في القرآن: «إنه مخلوق»، أو: «غير مخلوق»؛ هل لهم رخصة أن يقول الرجل: «كلام الله»، ثم يسكت؟ قال: ولم يسكت؟ لولا ما وقع فيه الناس كان يسعه السكوت. ولكن حيث تكلموا في ما تكلموا لأي شيء لا يتكلمون!؟



سمعه أبو داود منه كما في "مسائله" (ص ٢٦٣-٢٦٤). اهـ المراد.

بمعنى كلمة «السلف» و«السلفي» و«السلفية»:

وقد أفاد الشيخ بكر أبو زيد في المصدر المتقدم ما يزيد إيضاحاً لمعاني الألقاب السابقة الذكر. وإنما قصدنا في هذا الموضع ذكر نبذة موضحاً للمعنى المراد بلفظة «السلف»، و«السلفي»، و«السلفية». وذلك لما حصل في فهم معنى هذه الكلمات من الخطأ!!

وعسى أن ينتفع بهذه النبذة من أراد الحق، ولم يتعصب لما لا دليل عليه مما وجد عليه الأباء والأجداد، والموفق من وفقه الله تعالى.

أما كلمة «السلف» فقد قال الشيخ محمد أمان الجامي رحمه الله تعالى في «الصفات الإلهية» (ص ٤٩) في بيان المراد منها: عندما نطلق كلمة «السلف» إنما نعني بها من الناحية الاصطلاحية أصحاب رسول الله ﷺ الذين حضروا عصره، فأخذوا منه هذا الدين مباشرة غضا، طريا، في أصوله وفروعه، كما يدخل في هذا الاصطلاح التابعون لهم الذين ورثوا علمهم قبل أن يطول عليه الأمد والذين شملتهم شهادة الرسول لهم وثناؤه عليهم بأنهم خير الناس؛ حيث يقول ﷺ: «خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم»، كما يشمل الاصطلاح تابعي التابعين.

وهو لفظ مصطلح عليه... وقد ظهر هذا الاصطلاح، واشتهر، حين ظهر النزاع، ودار، حول أصول الدين بين الفرق الكلامية، وحاول الجميع الانتساب إلى السلف، وأعلن أن ما هو عليه هو ما كان عليه السلف الصالح. فإذا لا بد أن تظهر -والحالة هذه- أسس وقواعد واضحة المعالم وثابتة للاتجاه السلفي، حتى لا يلتبس الأمر على كل من يريد الاقتداء بهم، وينسج على منوالهم. اهـ.

..

ثم قال رحمه الله تعالى (ص ٥٦) في بيان المعنى المراد بكلمة «السلفية»: إن مدلول السلفية أصبح اصطلاحاً معروفاً، يطلق على طريقة الرعيل الأول ومن يقتدون بهم في تلقي العلم، وطريقة فهمه، وبطبيعة الدعوة إليه. اهـ المراد.

ونستعين بما تقدم لفهم ما قاله الشيخ بكر أبو زيد رحمه الله تعالى في المعنى المراد بكلمة «السلفي» في «حكم الانتفاء» (ص ٢٩-٣٠): وإذا قيل: «السلف»، أو: «السلفيون»، أو لجادتهم: «السلفية»، فهي هنا نسبة إلى السلف الصالح، جميع الصحابة رضي الله عنهم فمن تبعهم بإحسان، دون من مالت بهم الأهواء بعد الصحابة رضي الله عنهم من الخلف الذين انشقوا عن السلف الصالح باسم، أو برسم. ومن هنا قيل لهم: «الخلف»، والنسبة: «خلفي».

والثابتون على منهاج النبوة نسبوا إلى سلفهم الصالح في ذلك، ف قيل لهم: «السلف» و«السلفيون»، والنسبة إليهم: «سلفي»...

وعلى هذا كلمة أهل العلم، فهي نسبة ليس لها رسوم خارجة عن مقتضى الكتاب والسنة، وهي نسبة لم تنفصل لحظة واحدة عن الصدر الأول، بل هي منهم وإليهم. اهـ المراد.

وإذ الأمر كذلك علم أنه لا يسع أحداً رزقه الله عقلاً، وفهم معاني ما تقدم من الكلمات، وهو يريد النجاة لنفسه في الدنيا والآخرة، إلا أن يكون سلفياً!! قال الشيخ مقبل رحمه الله في «تحفة المجيب» (ص ١٩٨-١٩٩): إن الاتجاه السلفي اتجاه إلى كتاب الله وإلى سنة رسول الله ﷺ على فهم السلف الصالح.

والمراد بالسلف الصالح هي القرون المفضلة، التي جاء ذكرها في حديث عمران بن حصين وعبد الله بن مسعود رضي الله عنهما - والمعنى متقارب -: «خير الناس

ثم صار الأمر إلى أن الافتراق في أصول الدين وفروعه هو العلم والفقه في الدين.

...

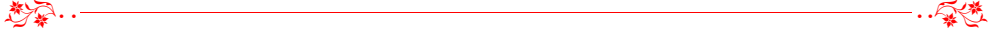
قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم. ثم يأتي أقوام يخونون، ولا يؤتمنون، ويشهدون، ولا يستشهدون، وينذرون، ولا يفون، ويظهر فيهم السمن». ويقول الله عز وجل في كتابه الكريم: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥]، فالصحابة هم رؤوس المؤمنين، فاتباع سبيلهم هو النجاة.

وقبل هذا كله اتباع سنة رسول الله ﷺ الذي يقول فيه ربنا عز وجل: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ [الحشر: ٧].

وفي "الصحيحين" من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن النبي ﷺ، أنه قال: «إذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه، وإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم»، وكما في "الصحيحين" من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله ﷺ: «ومن رغب عن سنتي فليس مني».

فالطريق الصحيح للإسلام هي طريقة السلف الذين يعبدون الله على بصيرة، ليس فيها جدل المعتزلة ولا غلو الشيعة والصوفية، بل كتاب وسنة: ﴿اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٣]. اهـ.

قوله: ﴿أن الافتراق في أصول الدين وفروعه هو العلم والفقه﴾ منشأ هذا العلم المزعوم والفقه المدعى الحديث الذي اشتهر بين الناس ولا أصل له، وهو حديث: «اختلاف أمتي رحمة».



بسمه حمالي حمريش: «اختلاف أمتي رحمة»:

قال العلامة الألوسي في ”روح المعاني“ (٢٤ / ٤): اعترض الإمام السبكي بأن «اختلاف أمتي رحمة» ليس معروفا عند المحدثين. ولم أقف له على سند صحيح، ولا ضعيف، ولا موضوع. ولا أظن له أصلا إلا أن يكون من كلام الناس بأن يكون أحد قال: «اختلاف الأمة رحمة»، فأخذه بعضهم، فظنه حديثا، فجعله من كلام النبوة. وما زلت أعتقد أن هذا الحديث لا أصل له. اهـ.

وبهذا الحكم جزم العلامة الألباني في ”الضعيفة“ (١ / ١٤١)، ثم قال: ثم إن معنى هذا الحديث مستنكر عند المحققين من العلماء، فقال العلامة ابن حزم في ”الإحكام في أصول الأحكام“ (٥ / ٦٤) بعد أن أشار إلى أنه ليس بحديث: وهذا من أفسد قول يكون؛ لأنه لو كان الاختلاف رحمة لكان الاتفاق سخطا. وهذا ما لا يقوله مسلم؛ لأنه ليس إلا اتفاق، أو اختلاف، وليس إلا رحمة، أو سخط. وقال في مكان آخر: باطل، مكذوب. اهـ المراد.

بسمه ما سببه حمريش: «اختلاف أمتي رحمة» من الآثار السنية:

لعل للمقرين الافتراق في أصول الدين وفروعه غير هذا الحديث من الأشياء التي يتكلفون بها دعم ما ذهبوا إليه، ورأوه.

بل هذا هو الظاهر، إلا أن أصل مستندهم الحديث المذكور، ولهذا حصره فيه الإمام الألباني؛ فقال بعد ما تقدم (ص ١٤٣): وجملة القول أن الاختلاف مذموم في الشريعة، فالواجب محاولة التخلص منه ما أمكن؛ لأنه من أسباب ضعف الأمة كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَنَزَعُوا فِتْفَشْلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [الأنفال: ٤٦].

...

أما الرضا به وتسميته رحمة فخلاف الآيات الكريمة، المصرحة بدمه، ولا مستند له إلا هذا الحديث الذي لا أصل له عن رسول الله ﷺ. اهـ.

ويؤيد الحصر المذكور ما قاله الشيخ مقبل حين سئل عن قول بعض الناس: الاختلاف رحمة؟ فأجاب بقوله: أما الحديث الذي يعتمدون عليه -وهو حديث: «اختلاف أمتي رحمة»- فهو لا سند ولا متن. اهـ من «إجابة السائل» (ص ٥٣٤).

وقد أفاد العلامة الألباني رحمه الله تعالى قبل كلامه السابق الذكر؛ حيث قال في بيان بعض ما سببه هذا الحديث ونحوه من الشر العظيم: وبسبب هذا الحديث ونحوه ظل أكثر المسلمين بعد الأئمة الأربعة إلى اليوم مختلفين في كثير من المسائل الاعتقادية والعملية.

ولو أنهم كانوا يرون أن الخلاف شر، كما قال ابن مسعود وغيره رضي الله عنهم، ودلت على ذمه الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الكثيرة، لسعوا إلى الاتفاق، ولأمكنهم ذلك في أكثر هذه المسائل بما نصب الله تعالى عليها من الأدلة التي يعرف بها الصواب من الخطأ والحق من الباطل، ثم عذر بعضهم بعضاً في ما قد يختلفون فيه. ولكن لماذا هذا السعي وهم يرون أن الاختلاف رحمة، وأن المذاهب على اختلافها كشرائع متعددة؟! اهـ.

بعد العلم والفقه في إزالة النزاع النزاعي بسبب افتراق الأمة:

والواجب على الأمة السعي الحثيث لإزالة النزاع في ما بينهم، كما أمرهم الله عز وجل بقوله: ﴿فَإِنْ تَنَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [النساء: ٥٩]، وهذا عين العلم والفقه. قال الحافظ ابن كثير رحمه الله تعالى في «تفسيره» (٧١٣/١) في كلامه على هذه الآية: هذا أمر من الله عز وجل

..

بأن كل شيء تنازع الناس فيه من أصول الدين وفروعه أن يرد التنازع في ذلك إلى الكتاب والسنة، كما قال **نعا**: ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ **[الشورى: ١٠]**، فما حكم به كتاب الله والسنة، وشهدا له بالصحة، فهو الحق.

وماذا بعد الحق إلا الضلال، ولهذا قال **نعا**: ﴿إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾، أي: ردوا الخصومات والجهالات إلى كتاب الله وسنة رسوله، فتحاكموا إليهما في ما شجر بينكم. اهـ المراد.

والذين يحسنون رد المتنازع فيه إلى كتاب الله وسنة نبيه **ﷺ** هم العلماء، قال الإمام القرطبي **رحمه الله نعا** في سياق كلامه على الآية المتقدمة في “جامع الأحكام” (٦/ ٤٣١): أمر الله **نعا** برد المتنازع فيه إلى كتاب الله وسنة نبيه **ﷺ**، وليس لغير العلماء معرفة كيفية الرد إلى الكتاب والسنة. اهـ المراد.

وأما غير العلماء فالواجب عليهم في ما يتنازعون فيه أن يمثلوا ما أمرهم به الله **نعا**؛ حيث قال: ﴿فَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ **[الأنبياء: ٧]**، وقال **نعا**: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولَى الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعِلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ **[النساء: ٨٣]**.

وحين يرد المسلمون ما تنازعوا فيه إلى الكتاب والسنة زال الشر والاختلاف المؤدي إلى الافتراق، ولذلك قال الله **جل وعلا** في آخر الآية المتقدمة في سورة النساء: ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ **[النساء: ٥٩]**. قال الحافظ ابن كثير **رحمه الله** بعد ما تقدم: الرجوع إليهما في فصل النزاع خير ﴿وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾، أي: وأحسن عاقبة ومآلا. اهـ المراد.

يعني لأنه في مسائل الاجتهاد التي لا نص فيها يقطع العذر. بل لهم فيه أعظم العذر، مع أن الشارع لما علم أن هذا النوع من الاختلاف واقع أتى فيه بأصل يرجع إليه، وهو قول الله **تعالى**: ﴿فَإِنْ تَنَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ الآية **[النساء: ٥٩]**. فكل اختلاف من هذا القبيل حكم الله فيه أن يرد إلى الله، وذلك رده إلى كتابه، وإلى رسول الله **ﷺ**، وذلك رده إليه إذا كان حيا وإلى سنته بعد موته. وكذلك فعل العلماء. اهـ المراد.

..

بعض أئمة الحس: أهل رحمة الله لا يختلفون اختلافا يضرهم:

لما لأثر الإمام الحسن البصري من الأهمية في فهم المعنى المتقدم كان من المهم بيان ثبوته. وقد أخرجه الإمام الطبري رحمته الله في “تفسيره” (١٢/١٤٣)؛ حيث قال: **حمرنا** محمد بن بشار، قال: ثنا هوزة بن خليفة، قال: ثنا عوف، عن الحسن، قال: ﴿وَلَدَلِكْ خَلَقَهُمْ﴾ [هود: ١١٩]، قال: أما أهل رحمة الله فإنهم لا يختلفون اختلافا يضرهم.

قال أبو عبد الله: ورجال السند كلهم ثقات إلا هوزة، وقد قال الحافظ رحمته الله في “التقريب”: صدوق. اهـ.

وقد استضعف ابن معين رواية هوزة عن عوف في “معرفة الرجال” (١٨٧)، رواية ابن محرز؛ فقال: هوزة لم يكن بالمحمود. قيل له: لم؟ قال: لم يأت أحد بهذه الأحاديث عن عوف كما جاء بها. وكان أطروشا أيضا. اهـ.

وفي هذا الغمز من ابن معين نظر لما قاله أحمد عن هذه الرواية. وذلك ما نقله الحافظ رحمته الله في “تهذيب التهذيب”؛ حيث قال: وقال الأثرم: سمعت أحمد ذكر عوفا، فقال: أدرك شريحا، ما كان أضبط هذا الأصم عنه -يعني هوزة-. أرجو أن يكون صدوقا، إن شاء الله **نعم**. اهـ المراد.

وبعد هذا الكلام تبين كون غمز ابن معين في رواية هوزة عن عوف من حدته المعهودة عنه في الجرح.

ثم يؤيد ترجيح قول أحمد ما قاله الدارقطني في “العلل” (٦/٣٥٣-٣٥٤) في سياق كلامه على حديث ما: يرويه عوف الأعرابي، واختلف عنه؛ فرواه عثمان بن الهيثم ويحيى بن أبي الحجاج، عن عوف، عن ابن سيرين، عن أبي هريرة. وخالفهما

..

هوذة بن خليفة؛ رواه عن عوف، عن شهر بن حوشب، عن أبي هريرة. والقلب إلى قول هوذة أميل. اهـ المراد.

قال الحافظ في "التقريب" في ترجمة ابن أبي الحجاج: لين الحديث. اهـ.

وقال رحمه الله في ترجمة عثمان بن الهيثم: ثقة، تغير فصار يلحق. اهـ.

والظاهر من حال عثمان هذا عدم بلوغه درجة الثقة، بل أقصى مرتبته كونه صدوقا. قال الحافظ الذهبي في ترجمته من "السير" (١٠ / ٢١٠): قال أبو حاتم: صدوق، غير أنه كان بأخرة يلحق.

قلت: يعني أنه كان يحدثهم بالحديث، فيتوقف فيه، ويتغلط، فيردون عليه، فيقول. ومثل هذا غض عن رتبة الحفظ لجواز أن في ما رد عليه زيادة، أو تغييرا يسيرا، والله أعلم. اهـ.

وعلى هذا يكون حكم مجموع رواية عثمان وابن أبي الحجاج للحديث المشار إليه في "العلل" الجودة، على ما يقتضيه ما قرر في مصطلح الحديث. ومع هذا فقد رجح الدارقطني في الحديث المشار رواية هوذة عن عوف، وهذا يقتضي حكمه لهذه الرواية بالجودة على الأقل.

والسبب في ذلك ما قاله ابن سعد عن شيخه هوذة: طلب الحديث، وكتب. فذهبت كتبه، ولم يبق عنده إلا كتاب عوف الأعرابي وشيء يسير لابن عون وابن جريج. اهـ المراد من "تهذيب التهذيب".

ولا يخفى ما في هذا الكلام من دلالة على مزيد عناية هوذة لرواية عوف.

والحاصل مما تقدم الحكم لحديث هوذة بالحسن على سبيل العموم، ولما له من مزيد ضبط لرويته عن عوف كان مقتضى ذلك الحكم عليها بالجودة على الأقل. وعلى هذا كان الحكم على أثر الحسن البصري المذكور الجودة.

وصار الأمر بالاجتماع لا يقوله إلا زنديق، أو مجنون.

...

قوله: {زنديق} قال العلامة الفيروزآبادي **رحمه الله تعالى** في ”القاموس“: الزنديق بالكسر من الثنوية، أو القائل بالنور والظلمة، أو من لا يؤمن بالآخرة وبالربوبية، أو من يبطن الكفر ويظهر الإيمان. اهـ المراد.

قوله: {وصار الأمر بالاجتماع لا يقوله إلا زنديق} ومعنى كلام المصنف **رحمته الله** ما قاله الشيخ صالح بن فوزان في شرحه على ”الأصول الستة“ (ص ٣٣): الذي يأمر بالاجتماع وترك الخلاف يقولون عنه: «هذا خارج على الأمة، هذا زنديق»؛ لأنه يلغي أقوال العلماء. اهـ.

وتوجيه ذلك بالنظر إلى ما تولد بسبب اختلاف العلماء من اختلاف الأمة؛ حيث صارت كل جماعة منها تتبع قولاً من أقوال العلماء، ويدينون الله **سبحانه وتعالى** بذلك، ويرونه ديناً. فإذا جاءهم من يأمرهم بالاجتماع على كتاب الله وسنة رسول الله **ﷺ**، والاعتصام بهما، وترك أقوال العلماء المخالفة لذلك، رأوه ملغياً لأقوال العلماء، وقالوا فيه: «إن هذا خرج عن الدين، وترندق».

فإذا كانوا يرون اتباع أقوال العلماء ديناً كان أمرهم بترك ذلك في أعينهم وما يعتقدونه أمراً بترك الدين، والأمر بترك الدين زندقة.

وهذا قلب من هؤلاء للحقائق؛ إذ الأمر بالاجتماع على الكتاب والسنة ونبذ التفرق هو من الدين الذي شرعه الله للأمة، قال **تعالى**: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣].

قال الإمام السعدي **رحمه الله تعالى** في ”تفسيره“ (ص ٨٠٠) في سياق كلامه على الآية المتقدمة: ﴿وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾، أي: ليحصل منكم الاتفاق على أصول الدين

❁ .. ❁ ..

وفروعه، واحرصوا على أن لا تفرقكم المسائل، وتحزبكم أحزابا، وتكونون شيعا يعادي بعضكم بعضا مع اتفاقكم على أصل دينكم. ومن أنواع الاجتماع على الدين وعدم التفرق فيه ما أمر به الشارع من الاجتماعات العامة كاجتماع الحج، والأعياد، والجمع، والصلوات الخمس، والجهاد، وغير ذلك من العبادات التي لا تتم، ولا تكمل، إلا بالاجتماع لها وعدم التفرق. اهـ.

وقال القاضي ابن عطية في "المحرر" (٢٩/٥): وقوله: ﴿وَلَا تَتَفَرَّقُوا﴾ نهي عن المهلك من تفرق الأنحاء والمذاهب. والخير كله في الألفة واجتماع الكلمة. اهـ المراد.



..

خاتمة في هذا الأصل

سبق في قدر الله سبحانه وتعالى أن جعل التفرق في الدين أليف العذاب، والعداوة، والبغضاء، والاختلاف، كما سبق في قدره تبارك وتعالى التأليف بين التمسك بالدين، والرحمة، والأخوة، والمحبة، والاتلاف.

واقترضت حكمته جل وعلا التمييز بين المتصفين بهذه الأوصاف وبين المتصفين بتلك، فجعل المتمسكين بدينه أصحاب جنته ورحمته، وجعل المتفرقين فيه أهل عذابه، أو مستحققيه، قال الله تعالى: ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ (٧) وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يَدْخُلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ ﴿[الشورى].

وبهذا تتجلى أهمية معرفة الأوصاف المذكورة؛ إذ بمعرفة ذلك يعلم العبد إلى أي فريق ينتمي، وبالتالي فإن كان من المتمسكين بدين الله الحق استمر في مضيه إلى دار كرامة ربه سبحانه، وإلا فليحذر عذاب ربه، وليرجع إلى جادة الصواب، صراط الله المستقيم، الموصل إلى رحمة ربه تبارك وتعالى.

ولأهمية هذا الأمر بين تعالى تلك الأوصاف والمتصفين بها في مواضع كثيرة من كتابه العزيز، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، فبين جل وعلا أن ابتعاد العباد عن الصراط المستقيم سبب لاتباعهم سبلا متفرقة. ومآل هذه السبل وانتهاءها المشاهدة المؤلمة التي يشاهدها كل واحد من التمزيق شيعا متفرقة وأحزابا مختلفة، ﴿فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا﴾ [المؤمنون: ٥٣].

وأعجب كل حزب برأيه، ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٣]، إضافة إلى ما أقسم عليه الشيطان من التزيين، كما أخبر الله تعالى عنه؛ إذ قال: ﴿قَالَ

فعلى سبيل الاعتبار بسوء عاقبة من تنازع في دين الله، واختلف فيه، ما ذكره الله **تعالى** عن أتباع السامري؛ فقال الله **تبارك وتعالى**: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُتَّخَذُوا الْعِجَلُ سَيَنَالُهُمْ

غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذَلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ [الأعراف: ١٥٢].

وفي الباب ما ورد على سبيل النهي الصريح، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا تَنْزَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [الأنفال: ٤٦].

ومن ذلك النهي عن مشابهة المتفرقين والمختلفين، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ [آل عمران: ١٠٥]، وفي ذلك أيضاً، قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (٣١) مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا ﴿الرَّوم﴾.

فمن اتعظ بمآل المختلفين، وابتعد عن مشابهتهم، وامثل الأمر بالاجتماع في دين الله، فقد أصاب السنة. ومن أعرض عن ذلك، وتماذى في التحزب، فليعلم أنه قد جانب السنة، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٥٩].

ثم أوردته اختلافاً لجادة الحق الموارد الشديدة والشقاق البعيد، قال الله سبحانه: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ [البقرة: ١٧٦]، وألحقه من العذاب بقدر مشاقته، قال الله عز وجل: ﴿وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ﴾ (٣) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴿الحشر﴾، وقال الله تبارك وتعالى: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الأنفال: ١٣].

وفي الجانب الآخر فالتمسك بالدين سبب ينال به العبد رحمة الله، قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ﴾ [الحديد: ٢٨]، وقال الله عز وجل: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [آل

...

عمران: ١٣٢، قال الله **جاءكم**: ﴿أَوْ عَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ **[الأعراف: ٦٣]**.

وإذا امتثل العباد الأوامر بالاجتماع في الدين والاعتصام بكتاب ربهم وسنة نبيهم ﷺ حصلت بينهم من الأخوة ما وعد به الله في قوله **جاءكم**: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ **[آل عمران: ١٠٣]**، وحلت بقلوبهم من الألفة ما امتن به **نبارك ونعال** في قوله: ﴿هُوَ الَّذِي آتَاكَ بِبَصِيرَةٍ وَالْمُؤْمِنِينَ﴾ **[الأنفال]**.



الأصل الثالث

الأصل الثالث: أن من تمام الاجتماع السمع والطاعة لمن تأمر علينا...

.....

قوله: «السمع والطاعة لمن تأمر علينا» قال الحافظ ابن رجب رحمته الله في “جامع العلوم والحكم” (١١٧/٢): ... وأما السمع والطاعة لولاة أمور المسلمين ففيها سعادة الدنيا، وبها تنتظم مصالح العباد في معاشهم، وبها يستعينون على إظهار دينهم وطاعة ربهم. اهـ.

في المناسبة بين هذا الأصل والأصلين المتقدمين:

في كلام الحافظ ابن رجب المتقدم إشارة إلى المناسبة لذكر المصنف رحمه الله تعالى هذا الأصل عقب المتقدمين.

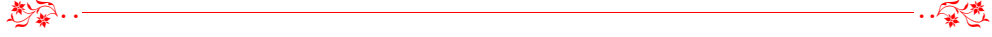
ويوضح المعنى المشار إليه ما أفاد الشيخ بكر أبو زيد رحمته الله في “حكم الانتماء” (ص ٣٦)؛ حيث قال: علم بالضرورة من دين الإسلام أن الأصل أنه لا دين إلا بجماعة، ولا جماعة إلا بإمامة، ولا إمامة إلا بسمع وطاعة.

وهذه الثلاثة متلازمة، آخذ بعضها ببعض، فلا قوام لسوق الإسلام، وقيام جماعة المسلمين، وصلاحهم في معاشهم ومعادهم، تحت ولاية إسلامية ذات شوكة ومنعة، إلا بهذا. ويروى عن عمر رضي الله عنه، أنه قال: «لا إسلام إلا بجماعة، ولا جماعة إلا بإمامة، ولا إمامة إلا بطاعة»، رواه الدارمي.

فالإسلام هو الأصل في تكوين الجسم النامي للأمة، والإمامة وسيلة لحراسة ذلك الجسم في أمر الدين والدنيا. اهـ.

ولأهمية هذه الأصول الثلاثة، وعظم أمر التمسك بها، وما يترتب على العناية بها ومراعاتها من الخير العظيم، والنفع العميم، وما ينتجه الإخلال بها من الفساد الكبير والشر المستطيل، جعل النبي ﷺ هذه الثلاثة كلها مما لا يغفل عليهن قلب المؤمن.

وذلك ما أخرجه الإمام أحمد رحمته الله في "مسنده" (٢١٥٩٠)؛ إذ قال: **حمرنا** يحيى بن سعيد، ثنا شعبة، ثنا عمر بن سليمان -من ولد عمر بن الخطاب رضي الله عنه- ، عن عبد الرحمن بن أبان بن عثمان، عن أبيه، أن **زيد بن ثابت** رضي الله عنه، خرج من عند مروان نحواً من نصف النهار، فقلنا: ما بعث إليه الساعة إلا شيء سأل عنه. فقمنا إليه فسألته، فقال: أجل، سألنا عن أشياء سمعتها من رسول الله ﷺ. سمعت رسول الله ﷺ يقول: «نضر الله امرأ سمع منا حديثاً، فحفظه حتى يبلغه غيره؛ فإنه رب حامل فقه ليس بفقيه، ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه. ثلاث خصال لا يغل عليهن قلب مسلم أبداً: إخلاص العمل لله، ومناصحة ولاة الأمر، ولزوم الجماعة؛ فإن دعوتهم تحيط من ورائهم». وقال: «من كان همه الآخرة جمع الله شمله، وجعل غناه في قلبه، وأتته الدنيا وهي راغمة. ومن كانت نيته الدنيا فرق الله عليه ضيعته، وجعل فقره بين عينيه، ولم يأتها من الدنيا إلا ما كتب له».



وسألنا عن الصلاة الوسطى، وهي الظهر.

وقد صحح الحديث الإمام الألباني رحمه الله تعالى في “الصحيحة” (٤٠٤).

قال العلامة السندي رحمه الله تعالى في شرحه رواية للحديث المذكور في “سنن ابن ماجه” (١٥٢ / ١): قوله: «لا يغل» بكسر الغين المعجمة وتشديد اللام على المشهور، والياء تحتل الضم والفتح. فعلى الأول من «أغل» إذا خان، وعلى الثاني من «غل» إذا صار ذا حقد وعداوة. اهـ المراد.

وشرح الإمام ابن القيم رحمه الله الحديث في “المدارج” (٣١١ / ٢)؛ فقال عقب ذكره: أي: لا يبقى فيه غل، ولا يحمل الغل، مع هذه الثلاثة. بل تنقي عنه غله، وتنقيه منه، وتخرجه عنه؛ فإن القلب يغل على الشرك أعظم غل، وكذلك يغل على الغش، وعلى خروجه عن جماعة المسلمين بالبدعة والضلالة. اهـ المراد.

ودواء هذه الثلاثة بما ذكر في الحديث من إخلاص العبادة لله وحده لا شريك له، ولزوم الجماعة، والمناصحة. ولهذا قال العلامة السندي في شرحه لرواية أخرى لهذا الحديث في “سنن ابن ماجه” (٤٨٧ / ٣): و«عليهن» في موضع الحال، أي: ثلاث لا يحوي قلب المؤمن، ولا يدخل فيه الحقد كائنا عليهن، أي: دوام المؤمن على هذه الخصال لا يدخل في قلبه خيانة، أو حقد. اهـ.

وبداهة تشتمل مناصحة ولالة الأمور على الطاعة لهم في غير معصية الله، وقد نقل الحافظ ابن رجب رحمه الله في “جامع العلوم والحكم” (٢٢٣ / ١) عن الحافظ ابن الصلاح أنه قال: والنصيحة لأئمة المسلمين معاوتهم على الحق، وطاعتهم فيه، وتذكيرهم به، وتنبيههم في رفق ولطف، ومجانبة الوثوب عليهم، والدعاء لهم بالتوفيق، وحث الأغيار على ذلك. اهـ.

بعد من نواح الاجتماع طائفة ولي الأمر في خير معصية الله:

ويوضح ما قاله المصنف رحمته الله في هذا المعنى ما أفاده العلامة بكر أبو زيد في "حكم الانتماء" (ص ٣٧-٣٨)؛ إذ قال: ... أن منهاج جماعة المسلمين هو الإسلام على منهاج النبوة، الكتاب والسنة، قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤]. فهذا حل الإسلام جميع الامتيازات على الكتاب والسنة، فطرح عن محل العناية، والنصرة، والولاء، والبراء، أي محل سواهما. واعتبار ذلك بنتيجتهما التقوى، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]. فحظ جماعة المسلمين من التقوى على قدر نصيبهم من العمل بالوحيين الشريفين، وهما ميزان الولاء والبراء، فبقدر الحظ منهما يكون الولاء، وبقدر الفوت يكون البراء.

وهذا لا يمكن له أن ينضبط إلا في حق من كان على الصراط المستقيم والخط القويم، من كان على مثل ما عليه النبي وأصحابه، جماعة المسلمين.

هذا هو المفهوم الشرعي لجماعة المسلمين، متأخون على منهاج النبوة، الكتاب والسنة، ينتظمهم إمام ذو شوكة ومنعة. وهذه هي الروابط العامة بين المسلمين لوحدهم وتماسك جماعتهم.

وبقدر التفريط يحصل الاختلاف والاضطراب. فإذا انخزل فرد من أفراد المسلمين، أو انخذلت فرقة، عنهم فهذا انشقاق على المسلمين وتفريق لجماعتهم. وهو عكس لما أوصى به النبي ﷺ من اعتزال الفرق كلها ولزوم جماعة المسلمين. فهذا اعتزل جماعة المسلمين، والتزم بالفرقة المفارقة لهم باسم، أو رسم. وبعده، أو

ولو كان عبدا حبشيا.
فبين النبي ﷺ هذا بيانا شائعا، ذائعا، بكل وجه من أنواع البيان...

...

قربه، من الإسلام وجماعة المسلمين بقدر ما لدى هذا الفريق المنعزل عن جماعتهم من أمر كلي، أو جزئيات متكاثرة.

واختلال القوام، أحكام الإسلام، بمثابة فصد شريان منه، فيصيب الجسم من الذبول بقدر ما يستفرغ منه. وإذا اختل السمع والطاعة في الطاعة والمعروف وقعت الشناعة والتشفي من الجسم وقوامه، وحينئذ تختل الجماعة لضعف السلطة الحامية. اهـ المراد.

قوله: ﴿ولو كان عبدا حبشيا﴾ هذه إشارة من المصنف رحمه الله تعالى إلى قطعة من حديث العرباض بن سارية رضي الله عنه، وقد تقدم ذكره. قال الحافظ ابن رجب رحمته الله في شرحه لهذا الحديث في “جامع العلوم والحكم” (١١٨/٢-١١٩): قوله ﷺ: «وإن تأمر عليكم عبد»، وفي رواية: «حبشي»، هذا مما تكاثرت به الروايات عن النبي ﷺ، وهو مما اطلع عليه النبي ﷺ من أمر أمته بعده وولاية العبيد عليهم. وفي “صحيح البخاري” عن أنس رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، قال: «اسمعوا، وأطيعوا، وإن استعمل عليكم عبد حبشي كأن رأسه زبيبة».

وفي “صحيح مسلم” عن أبي ذر رضي الله عنه، قال: إن خليلي ﷺ أوصاني أن أسمع، وأطيع، ولو كان عبدا حبشيا، مجدع الأطراف. اهـ.

قوله: ﴿فبين النبي ﷺ هذا﴾ قال الحافظ ابن رجب رحمه الله تعالى عقب ما تقدم: والأحاديث في المعنى كثيرة جدا. اهـ.

وأيضاح ذلك آت، إن شاء الله، ونبين قبله دلالة الكتاب على هذا الأصل.

...

بسم الله الكتاب على هذا الأصل:

وفي الأمر بهذا الأصل يقول الله **مر ربه** في كتابه العزيز: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ [النساء: ٥٩]. ففي هذا أمر صريح في هذا الباب، وإن وقع اختلاف في المعنى المراد بأولي الأمر في الآية. وهذا الاختلاف لا يضر لما أفاده الإمام ابن القيم **رحمه الله**؛ حيث قال في سياق كلامه على هذه الآية كما في "تفسيره" (١/ ٢٧٨-٢٧٩): قد اختلفت الرواية عن الإمام أحمد **رحمه الله** في أولي الأمر. وعنه فيهم **رحمه الله** روايتان؛

إحداهما أنهم العلماء،

والثانية أنهم الأمراء.

القولان ثابتان عن الصحابة في تفسير الآية. والصحيح أنها متناولة للصنفين جميعاً؛ فإن العلماء والأمراء ولاية الأمر الذي بعث الله به رسوله. فإن العلماء ولاته حفظاً، وبياناً، وذبا عنه، وردا على من ألد فيه، وزاغ عنه. وقد وكلهم الله بذلك؛ فقال **نعم**: ﴿فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾ [الأنعام: ٨٩]. فإيا لها من وكالة أوجبت طاعتهم، والانتهاى إلى أمرهم، وكون الناس تبعاً لهم.

والأمراء ولاته قياماً، وعناية، وجهاداً، وإلزماً للناس به، وأخذهم على يد من خرج عنه. اهـ.

وبهذا القول أخذ الحافظ ابن كثير **رحمه الله** في "تفسيره" (١/ ٧١٣)؛ حيث قال في سياق كلامه على الآية: الظاهر - والله أعلم - أنها عامة في كل أولي الأمر من الأمراء والعلماء. اهـ.

..

بينما ذهب آخرون إلى اختصاص وجوب الطاعة في هذه الآية بالأمراء. وقرر ذلك الإمام الطبري رحمه الله تعالى أحسن تقرير في “تفسيره” (٥ / ١٥٠)؛ حيث قال: **هرثنا** ابن المثني، قال: ثنا يحيى، عن عبيد الله، قال: أني نافع، عن **عبد الله** رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، قال: «على المرء المسلم السمع والطاعة في ما أحب، وكره، إلا أن يؤمر بمعصية، فإن أمر بمعصية فلا طاعة».

حدثني ابن المثني، قال: ثنا خالد، عن عبيد الله، عن نافع، عن **ابن عمر** رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ نحوه.

فإذ كان معلوما أنه لا طاعة واجبة لأحد غير الله، أو رسوله، أو إمام عادل، وكان الله قد أمر بقوله: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ بطاعة ذوي أمرنا، كان معلوما أن الذين أمر بطاعتهم تعالى فذكره من ذوي أمرنا هم الأئمة ومن ولوه أمر المسلمين دون غيرهم من الناس.

وإن كان فرضا القبول من كل أمر أمر بترك معصيته، ودعا إلى طاعته، غير أنه لا طاعة تجب لأحد فيما أمر، ونهى، في ما لم تقم حجة وجوبه إلا للأئمة الذين ألزم الله عباده طاعتهم في ما أمروا به رعيته مما هو مصلحة لعامة الرعية؛ فإن على من أمروه بذلك طاعتهم، وكذلك في كل ما لم يكن لله معصية.

وإذ كان ذلك كذلك كان معلوما بذلك صحة ما اخترنا. اهـ المراد.

وأفاد العلامة تقي الدين الهلالي رحمته الله في “سبيل الرشاد” (٢ / ١٥٢) تفصيلا في ما يأمر به الأمراء؛ فقال أثناء كلامه على الآية المذكورة: إذا كان الأمراء علماء، وكان الأمر واضحاً، فقد اجتمع فيهم الفريقان. وإن لم يكن واضحاً وجب عليهم أن يستشيروا العلماء، كما كان عمر رضي الله عنه يفعل. وإن لم يكن الأمراء علماء وجب على العلماء أن يبينوا حكم الله، وعلى الأمراء أن ينفذوا. اهـ.

به ولله السنة على هذا الأصل:

فقد وردت السنة في بيان هذا الأصل بأساليب شتى، نذكر منها ما يلي...

الأمر الصريح بطاعة الأمراء، ومن ذلك ما أخرجه الإمام البخاري رحمته الله في "صحيحه" (٧١٤٢) عن أنس رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «اسمعوا، وأطيعوا، وإن استعمل عليكم عبد حبشي كأن رأسه زبيبة».

الترغيب في طاعة الأمراء، ومن ذلك ما أخرجه الإمام الترمذي رحمه الله تعالى في "السنن" (٦١٦)؛ حيث قال: **حمرنا** موسى بن عبد الرحمن الكندي، الكوفي، قال: ثنا زيد بن الحباب، قال: أنا معاوية بن صالح، قال: ثني سليم بن عامر، قال: سمعت **أبا أمانة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ**، يقول: سمعت رسول الله ﷺ، يخطب في حجة الوداع، فقال: «اتقوا الله ربكم، وصلوا خمسكم، وصوموا شهركم، وأدوا زكاة أموالكم، وأطيعوا إذا أمركم، تدخلوا جنة ربكم».

وقد حسن الحديث الشيخ مقبل **رحمه الله تعالى** في "الجامع الصحيح" (٣١٥٤).

الترهيب من ترك طاعة الأمراء، ومن ذلك ما أخرجه الإمام مسلم رحمته الله في "صحيحه" (٥٨) - (١٨٥١) عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، قال: سمعت رسول الله ﷺ، يقول: «من خلع يدا من طاعة لقي الله يوم القيامة لا حجة له. ومن مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية».

قال العلامة القرطبي في "المفهم" (٤ / ٦٢): «لا حجة له»، أي: لا يجد حجة يحتاج بها عند السؤال، فيستحق العذاب والنكال؛ لأن رسول الله ﷺ قد أبلغه ما أمره الله بإبلاغه من وجوب السمع والطاعة لأولي الأمر في الكتاب والسنة. اهـ.

..

وفي الحديث ترهيب من جهتين آخرين؛ الأولى مشابهة تارك طاعة الأمراء بأهل الجاهلية، والثانية سوء خاتمته إن مات على تلك الحال. قال الإمام القرطبي رحمه الله تعالى في “المفهم” (٥٩ / ٤): ويعني بميتة الجاهلية أنهم كانوا فيها لا يبايعون إماما، ولا يدخلون تحت طاعته. فمن كان من المسلمين لم يدخل تحت طاعة إمام فقد شابههم في ذلك، فإن مات على تلك الحالة مات على مثل حالهم مرتكبا كبيرة من الكبائر. اهـ المراد.

تبري النبي ﷺ من ترك طاعة الأمراء، وذلك في ما أخرج الإمام مسلم رحمه الله في “صحيحه” (٥٣) - (١٨٤٨) عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، أنه قال: «من خرج من الطاعة، وفارق الجماعة، فمات مات ميتة جاهلية. ومن قاتل تحت راية عمية يغضب لعصبة، أو يدعو إلى عصبة، أو ينصر عصبة، فقتل فقتله جاهلية. ومن خرج على أمتي يضرب برها وفاجرها، ولا يتحاش من مؤمنها، ولا يفي لذي عهد عهده، فليس مني ولست منه».

قال العلامة القرطبي رحمه الله في “المفهم” (٦٠ / ٤): قوله: «ولا يفي لذي عهد بعهده» يعني به عهد البيعة والولاية.

قوله: «فليس مني، ولست منه» هذا التبري ظاهره أنه ليس بمسلم. وهذا صحيح إن كان معتقدا لحلية ذلك. وإن كان معتقدا لتحريمه فهو عاص من العصاة، مرتكب كبيرة، فأمره إلى الله تعالى. ويكون معنى التبري على هذا، أي: ليست له ذمة ولا حرمة. بل إن ظفر به قتل، أو عوقب، بحسب حاله وجريمته. ويحتمل أن يكون معناه ليس على طريقتي، ولست أرضى طريقتي، كما تقدم أمثال هذا. اهـ.

...

الجمع بين الترغيب والترهيب، ومنه ما أخرجه الإمام البخاري في "صحيحه" (٧١٣٧) والإمام مسلم في "صحيحه" (٣٣) - (١٨٣٥) عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن رسول الله ﷺ، قال: «من أطاعني فقد أطاع الله، ومن عصاني فقد عصى الله. ومن أطاع أميري فقد أطاعني، ومن عصى أميري فقد عصاني».

في عقبة أهل السنة في هذا الباب:

قال الشيخ أحمد النجمي في "الدرر النجمية" (ص ١٣٥-١٣٦): في "أصول أهل السنة" للإمام المجلد، إمام أهل السنة، أحمد بن حنبل رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ، رواية عبدوس بن مالك العطار رَحِمَهُ اللَّهُ، تحقيق الوليد بن محمد نبيه بن سيف النصر - الناشر مكتبة ابن تيمية، القاهرة -، (ص ٦٤): «والسمع والطاعة للأئمة، وأمير المؤمنين، البار والفاجر، ومن ولي الخلافة، واجتمع عليه الناس، ورضوا به، ومن عليهم بالسيف حتى صار خليفة، وسمي أمير المؤمنين. والغزو ماض مع الأمراء إلى يوم القيامة، البار والفاجر. وقسمة الفيء وإقامة الحدود إلى الأئمة ماض، ليس لأحد أن يطعن عليهم، أو ينازعهم. ودفع الصدقات إليهم جائزة نافذة. من دفعها إليهم أجزأت عنه، برا كان، أو فاجرا...».

إلى أن قال: «ومن خرج على إمام من أئمة المسلمين، وقد كان الناس اجتمعوا عليه، وأقروا له بالخلافة بأي وجه كان بالرضا، أو الغلبة، فقد شق هذا الخارج عصا المسلمين، وخالف الآثار عن رسول الله ﷺ. فإن مات الخارج عليه مات ميتة جاهلية».

..

ولا يحل قتال السلطان ولا الخروج عليه لأحد من الناس. فمن فعل ذلك فهو مبتدع على غير السنة والطريق». اهـ.

هذه عقيدة أهل السنة والجماعة، فمن خالفها فهو مبتدع. اهـ المراد.
قال الإمام الطحاوي كما في ”شرح العقيدة الطحاوية“ (ص ٣٦٠): ولا نرى الخروج على أئمتنا وولاة أمورنا، وإن جاروا، ولا ندعوا عليهم، ولا ننزع يدا من طاعتهم. اهـ.

بمعصية الله ومجوب طاعة الأئمة بما ليس فيه معصية لله:

قال الإمام الطحاوي عقب كلامه المتقدم: ونرى طاعتهم من طاعة الله عز وجل فريضة ما لم يأمروا بمعصية، وندعوا لهم بالصلاح والمعافة. اهـ.

وهذا التقييد وردت بعض الأحاديث، وقد أخرج بعضها الإمام مسلم رحمه الله في ”صحيحه“، وبوب عليها الإمام النووي رحمه الله؛ إذ قال: وجوب طاعة الأئمة في غير معصية الله، وتحريمها في المعصية.

ومن ذلك ما أخرجه الإمام البخاري في ”صحيحه“ (٤٣٤٠) والإمام مسلم في ”صحيحه“ (٣٩) - (١٨٤٠) - وهذا اللفظ له - عن علي رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ بعث جيشا، وأمر عليهم رجلا. فأوقد نارا، وقال: ادخلوها. فأراد ناس أن يدخلوها، وقال الآخرون: إنا قد فررنا منها. فذكر ذلك لرسول الله ﷺ، فقال للذين أرادوا أن يدخلوها: «لو دخلتموها لم تزالوا فيها إلى يوم القيامة». وقال للآخرين قولا حسنا، وقال: «لا طاعة في معصية الله، إنما الطاعة في المعروف».

ويشرح قول النبي ﷺ: «لا طاعة في معصية الله» ما قاله العلامة القرطبي رحمه الله تعالى في ”المفهم“ (٣٩ / ٤): فأما لو أمر بمعصية مثل أخذ مال بغير حق، أو

وقال العلامة الإثيوبي **رمه (عليه السلام)** في "الذخيرة" (٣٢ / ٣٢٩ - ٣٣٠) في شرحه لآخر الحديث: قال أبو العباس القرطبي **رمه (عليه السلام)**: «إنها» هذه للتحقيق والحصص، فكأنه قال: لا تكون الطاعة إلا في المعروف. ويعني بالمعروف هنا ما ليس بمنكر ولا معصية، فيدخل فيها الطاعة الواجبة، والمندوب إليها، والأمور الجائزة شرعا. فلو أمر بجائز لصارت طاعته واجبة، ولما حلت مخالفته.

فلو أمر بما زجر الشرع عنه زجر تنزيه، لا تحريم، فهذا مشكل؟! والأظهر جواز المخالفة تمسكا بقوله **عليه السلام**: «إنما الطاعة في المعروف». وهذا ليس بمعروف إلا بأن يخاف على نفسه منه فله أن يمثل، والله **تعالى** أعلم. انتهى كلام القرطبي.

قال الجامع - عفا الله **عنه** -: قوله: «فهذا مشكل» فيه نظر لا يخفى؛ إذ هو منكر شرعا، لأن الشارع لا يزجر إلا عن منكر فكيف يشكل هذا؟ اهـ المراد.

وقد استنبط الحافظ ابن القيم **رحمه الله تعالى** تقييد وجوب طاعة الأمراء بما ليس فيه معصية لله من الآية التي سبق الكلام عليها، وذلك ما قال فيه كما في **"تفسيره"** (١/ ٢٧٧-٢٧٨): ... ثم قال **تعالى**: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ **[النساء: ٥٩]**، فقرن بين طاعة الله والرسول وطاعة أولي الأمر، وسلط عليهما عاملا واحدا. وقد كان ربما يسبق إلى الوهم أن الأمر يقتضي عكس هذا؛

..

فإنه من يطع الرسول ﷺ فقد أطاع الله، ولكن الواقع هنا في الآية المناسب. وتحت سر لطيف، وهو دلالة على أن ما يأمر به رسوله ﷺ يجب طاعته فيه، وإن لم يكن مأمورا به بعينه في القرآن.

طاعة الرسول ﷺ مفردة ومقرونة، فلا يتوهم متوهم أن ما يأمر به الرسول ﷺ إن لم يكن في القرآن، وإلا فلا تجب طاعته فيه، كما قال النبي ﷺ: «يوشك رجل شبعان، متكئ على أريكته، يأتيه الأمر من أمري، فيقول: بيننا وبينكم كتاب الله **نعال**، ما وجدنا فيه من شيء اتبعناه. ألا وإني أوتيت الكتاب ومثله معه».

أما أولو الأمر فلا تجب طاعة أحدهم إلا إذا اندرجت تحت طاعة الرسول ﷺ، لا طاعة مفردة مستقلة، كما صح عن النبي ﷺ، أنه قال: «على المرء السمع والطاعة في ما أحب، وكره، ما لم يؤمر بمعصية الله **نعال**. فإذا أمر بمعصية الله **نعال** فلا سمع ولا طاعة». اهـ.

وأبلغ مما تقدم في وجوب طاعة الأمراء في ما ليس فيه معصية لله الأحاديث المصرحة بذلك وإن منعوا حق رعيته. فقد أخرج الإمام مسلم في “صحيحه” (٤٩) - (١٨٤٦) بإسناده إلى علقمة بن وائل الحضرمي، عن أبيه **رضي الله عنه**، قال: سأل سلمة بن يزيد الجعفي رسول الله ﷺ؛ فقال: يا نبي الله! أرأيت إن قامت علينا أمراء يسألونا حقهم، ويمنعوننا حقنا، فما تأمرنا؟ فأعرض عنه. ثم سألته فأعرض عنه. ثم سألته في الثانية، أو في الثالثة، ف جذبته الأشعث بن قيس. وقال: «اسمعوا، وأطيعوا؛ فإنما عليهم ما حملوا، وعليكم ما حملتم».

وفي معنى هذا الحديث قول عمر **رضي الله عنه** الذي أخرجه الإمام الآجري **رحمته الله** في “الشرعة” (٧٠) بسند صحيح؛ حيث قال: **مرفنا** أبو شعيب عبد الله بن الحسن

وقال الإمام الأجرى رحمه الله تعالى (١/ ٢٢٤) في بيان معنى هذا الأثر: فإن قال قائل: أيش الذي يحتمل عندك قول عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في ما قاله؟ قيل له: يحتمل - والله أعلم - أن نقول: من أَمَرَ عليك من عربي، أو غيره، أسود، أو أبيض، أو عجمي، فأطعه في ما ليس لله فيه معصية، وإن حرمك حقاً لك، أو ضربك ظلماً لك، أو انتهك عرضك، أو أخذ مالك. فلا يحملك ذلك على أن تخرج عليه بسيفك حتى تقتله، ولا تخرج مع خارجي يقتله، ولا تحرض غيرك على الخروج عليه، ولكن اصبر عليه.

قوله: {شرعا وقدرًا} فأما ما يتعلق ببيان النبي ﷺ لهذا الأصل شرعا ففي ما تقدم كفاية. ولنذكر هنا بعض ما يتعلق بذلك قدرا، وهو ما أخبر ﷺ به مما وقع من الخروج على الأمراء بعد موته.

..

ومن الأحاديث في هذا الباب ما في ”صحيح البخاري“ (٧٠٨٤) و”صحيح مسلم“ (٥١) - (١٨٤٧) - وهذا لفظه - من حديث **حذيفة بن اليان** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أنه قال: قلت: يا رسول الله! إنا كنا في جاهلية وشر، فجاءنا الله بهذا الخير، فهل بعد هذا الخير شر؟ قال: «نعم». فقلت: هل بعد ذلك الشر من خير؟ قال: «نعم، وفيه دخن». قلت: وما دخنه؟ قال: «قوم يستنون بغير سبتي، ويهدون بغير هديي، تعرف منهم، وتنكر». فقلت: هل بعد ذلك الخير من شر؟ قال: «نعم، دعاة على أبواب جهنم، من أجابهم إليها قذفوه فيها». فقلت: يا رسول الله! صفهم لنا. قال: «نعم، قوم من جلدتنا، ويتكلمون بألسنتنا». قلت: يا رسول الله! فما ترى إن أدركني ذلك؟ قال: «تلتزم جماعة المسلمين وإمامهم». فقلت: فإن لم تكن لهم جماعة ولا إمام؟ قال: «فاعتزل تلك الفرق كلها، ولو أن تعض على أصل شجرة حتى يدركك الموت وأنت على ذلك».

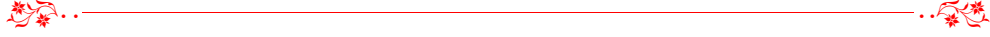
وقد أفاد الحافظ ابن حجر في ”الفتح“ (٤٦/١٣) في بيان المراد بالدعاة على أبواب جهنم ما قال فيه: من قام في طلب الملك من الخوارج وغيرهم، وإلى ذلك الإشارة بقوله: «الزم جماعة المسلمين وإمامهم»، يعني ولو جار. ويوضح ذلك في رواية أبي الأسود: «ولو ضرب ظهرك، وأخذ مالك». وكان مثل ذلك كثيرا في إماراة الحجاج ونحوه. اهـ.

وأصرح من الحديث المتقدم ما أخرجه الإمام مسلم في ”صحيحه“ (٥٩) - (١٨٥٢) من حديث **عرفجة** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنه ستكون هنات وهنات، فمن أراد أن يفرق أمر هذه الأمة، وهي جميع، فاضربوه بالسيف كائنا من كان».

وفي هذا الباب أيضا، ما في "صحيح البخاري" (٣٦١١) و"صحيح مسلم" (١٥٤)-(١٠٦٦) -وهذا لفظه- عن **علي رضي الله عنه**، قال سمعت رسول الله **ﷺ**، يقول: «سيخرج في آخر الزمان قوم أحداث الأسنان، سفهاء الأحلام، يقولون من خير قول البرية، يقرءون القرآن لا يجاوز حناجرهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية. فإذا لقيتموهم فاقتلوهم؛ فإن في قتلهم أجرا لمن قتلهم عند الله يوم القيامة».

ونظير هذا الحديث ما في "صحيح البخاري" (٣٦١٠) و"صحيح مسلم" (١٤٨) - (١٠٦٤) عن **أبي سعيد الخدري** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: بينا نحن عند رسول الله ﷺ وهو يقسم قسماً، أتاه ذو الخويصرة - وهو رجل من بني تميم -، فقال: يا رسول الله! اعدل. قال رسول الله ﷺ: «ويلك! ومن يعدل إن لم أعدل؟! قد خبت، وخسرت، إن لم أعدل». فقال عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: يا رسول الله! ائذن لي فيه، أضرب عنقه. قال رسول الله ﷺ: «دعه. فإن له أصحاباً يحقر أحدهم صلاته مع صلاتهم، وصيامه مع صيامهم، يقرءون القرآن لا يجاوز تراقيهم. يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية، ينظر إلى نصله فلا يوجد فيه شيء، ثم ينظر إلى رصافه فلا يوجد فيه شيء، ثم ينظر إلى نضيه فلا يوجد فيه شيء - وهو القدح -، ثم ينظر إلى قذذه فلا يوجد فيه شيء، سبق الفرث والدم. آيتهم رجل أسود، إحدى عضديه مثل ثدي المرأة، أو مثل البضعة، تتدردر. يخرجون على حين فرقة من الناس».

وما أخبر به النبي ﷺ في هذه الأحاديث واقع على مضي التاريخ. ولا يزال - عياذاً بالله -، كما يتبين في الفصل التالي...



في الخروج على الحاكم والأمر بالمسلمين سنة خمارجية سيئة:

وعلى هذا المعنى نبه العلامة الألباني؛ إذ ذكر في ”الصحيحة“ حديث **عبادة بن الصامت** رضي الله عنه: «بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة في العسر، واليسر، والمنشط، والمكره، وعلى أثرة علينا، وعلى أن لا ننازع الأمر أهله [إلا أن تروا كفرا بواحا، عندكم من الله فيه برهان]، وعلى أن نقول بالحق أينما كنا، لا نخاف في الله لومة لائم»، ثم قال **رمحه الله تعالى** (٧ / ١٢٤٠ - ١٢٤١): ثم إن في هذا الحديث فوائد ومسائل فقهية كثيرة، تكلم عليها العلماء في شروحهم، وبخاصة منهم الحافظ ابن حجر العسقلاني في ”فتح الباري“.

والذي يهمني منها هنا أن فيه ردا صريحا على الخوارج الذين خرجوا على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب؛ فإنهم يعلمون دون أي شك، أو ريب، أنه لم يروا منه كفرا بواحا، ومع ذلك استحلوا قتاله وسفك دمه هو ومن معه من الصحابة والتابعين، فاضطر لقتالهم واستئصال شأفتهم، فلم ينج منهم إلا القليل.

ثم غدروا به رضي الله عنه، كما هو معروف في التاريخ.

والمقصود أنهم سنوا في الإسلام سنة سيئة، وجعلوا الخروج على حكام المسلمين دينا على مر الزمان والأيام، رغم تحذير النبي ﷺ منهم في أحاديث كثيرة، منها قوله ﷺ: «الخوارج كلاب النار»، ورغم أنهم لم يروا كفرا بواحا منهم، وإنما ما دون ذلك من ظلم، وفجور، وفسق!!

واليوم -والتاريخ يعيد نفسه، كما يقولون- فقد نبتت نابتة من الشباب المسلم لم يتفقهوا في الدين إلا قليلا، ورأوا أن الحكام لا يحكمون بما أنزل الله إلا قليلا. فرأوا الخروج عليهم دون أن يستشيروا أهل العلم، والفقه، والحكمة، منهم.

بل ركبوا رءوسهم، وأثاروا فتنًا عمياء، وسفكوا الدماء، في مصر، وسوريا، والجزائر، وقبل ذلك فتنة الحرم المكي! فخالفوا بذلك هذا الحديث الصحيح الذي جرى عليه عمل المسلمين سلفًا وخلفًا إلا الخوارج. اهـ.

يحيى في التاريخ عبدة لمن يعقل مفاسد الخروج على الأمراء:

من نتائج الخروج على الأمراء المسلمين التي يشهد لها التاريخ أيضاً، اشتداد الشر بعده أكثر مما كان عليه قبل. قال الشيخ الفوزان في شرح "العقيدة الطحاوية" (٣/ ١٠): قال شيخ الإسلام **رحمه الله**: ما خرج قوم على إمامهم إلا كانت حالتهم بعد الخروج أسوأ من حالتهم قبل الخروج. اهـ المراد.

كفى بهذه الشهادة التاريخية عبرة للمسلمين، وبحسب هذه النتيجة عظمة لمن يعقل. وفي هذا الصدد ما قاله الإمام الآجري **رحمته الله** في "الشریعة" (١ / ٢٣١): قد ذكرت هذا الباب في كتاب الفتن في أحاديث كثيرة. وقد ذكرت ههنا طرفاً منه؛ ليكون المؤمن العاقل محتاطاً لدينه. فإن الفتن على وجوه كثيرة...

قد مضى منها فتن عظيمة، نجا منها أقوام، وهلك فيها أقوام باتباعهم الهوى وإيثارهم للدنيا.

فمن أراد الله به خيراً فتح له باب الدعاء، والتجأ إلى مولاه الكريم، وخاف على دينه، وحفظ لسانه، وعرف زمانه، ولزم المحجة الواضحة، السواد الأعظم، ولم يتلون في دينه، وعبد ربه **تعالى**، فترك الخوض في الفتنة؛ فإن الفتنة يفتضح عندها خلق كثير.

ألم تسمع إلى قول النبي ﷺ وهو محذر أمته الفتن، قال: «يصبح الرجل مؤمناً، ويمسى كافراً، ويمسى مؤمناً، ويصبح كافراً». اهـ.

ثم صار هذا الأصل لا يعرف عند أكثر من يدعي العلم، فكيف العمل

به؟

قوله: ﴿هذا الأصل لا يعرف عند أكثر من يدعي العلم﴾ قال الشيخ العثيمين

رحمه الله تعالى في شرحه لـ "الأصول الستة" (ص ٦٢) في سياق كلامه على هذه الفقرة من كلام المصنف: لما أحدثت الأمة الإسلامية ما أحدثت، وفرقوا دينهم، وتمردوا على أئمتهم، وخرجوا عليهم، وكانوا شيعة، نزعت المهابة من قلوب أعدائهم... وتنازعوا، ففشلوا، وذهب ريحهم، وتداعت عليهم الأمم، وصاروا غثاء كغثاء السيل.

وصار هذا الأصل لا يعرف عند أكثر من يدعي العلم والغيرة على دين الله، وترك العمل به، ورأى كل فرد من أفراد الرعية نفسه أميراً، أو بمنزلة الأمير المنابذ للأمير. اهـ.

وأول من شمله هذا الكلام هم الخوارج لما تقدم في حديث **أبي سعيد الخدري** **رحمه الله عنه** من وصف رسول الله **ﷺ** لهم بقوله: «يقرءون القرآن لا يجاوز تراقيهم». وقد قال الحافظ **رحمته الله** في "الفتح" (٣٦٧/١٢) في شرحه لهذه الرواية للحديث: في رواية شعيب ويونس: «يقرءون القرآن لا يجاوز تراقيهم» بمثناة وقاف، جمع ترقوة بفتح أوله، وسكون الراء، وضم القاف، وفتح الواو، وهي العظم الذي بين نقرة النحر والعاتق. والمعنى أن قراءتهم لا يرفعها الله، ولا يقبلها.

وقيل: لا يعملون بالقرآن، فلا يثابون على قراءته، فلا يحصل لهم إلا سرده. وقال النووي: المراد أنهم ليس لهم فيه حظ إلا مروره على لسانهم، لا يصل إلى حلوقهم فضلاً عن أن يصل إلى قلوبهم؛ لأن المطلوب تعقله وتدبره بوقوعه في القلب. اهـ.

فلما لم يمثل الخوارج هذا الأمر الإلهي كان هذا دليلا على عدم وصول القرآن إلى قلوبهم. وذلك لما عليها من الأقفال والرين بسبب ما هم فيه من البدعة، قال الله **سبحانه**: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: ٢٤]، وقال الله **تعالى**: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤].

فظهر بهذا عدم عمل الخوارج بهذا الأصل لعدم معرفتهم بفقهه، مع ما لديهم من العلم وحفظ للقرآن، كما يدل عليه ما تقدم في حديث **علي رضي الله عنه** من وصف النبي **ﷺ** إياهم بقوله: «يقولون من خير قول البرية...» الحديث. وفي الحديث الآخر الذي أخرجه الإمام مسلم في «صحيحه» (١٥٧) - (١٠٦٦) عن بسر بن سعيد، عن عبيد الله بن أبي رافع مولى رسول الله **ﷺ**، أن الحرورية لما خرجت، وهو مع علي بن أبي طالب، قالوا: لا حكم إلا لله. قال **علي رضي الله عنه**: كلمة حق أريد بها باطل. إن رسول الله **ﷺ** وصف ناسا إني لأعرف صفتهم في هؤلاء: «يقولون الحق بألستهم، لا يجوز هذا منهم - وأشار إلى حلقه -، من أبغض خلق الله إليه، منهم أسود إحدى يديه طبي شاة، أو حلمة ثدي».

لكن ما دام لم يقيم الخوارج بيئة على علمهم، وذلك بالعمل به، انتفى وصفهم بالعلم حقيقة. بل غاية أمرهم أن يكونوا مدعين للعلم، وعلى المدعى البيئة!

..

والدعاوي ما لم تقيموا عليها بينات أبناؤها أدياء
فتبين بهذا دخول الخوارج دخولا أوليا في قول المصنف رحمته الله: «ثم صار هذا
الأصل لا يعرف عند أكثر من يدعي العلم، فكيف العمل به؟!».

به إخواننا نفاهر الأمير بمعصية ووه الكفر:

أخرج الإمام البخاري في “صحيحه” (٧٠٥٣) والإمام مسلم في “صحيحه”
(٥٦) - (١٨٤٩) - واللفظ له -، من حديث **ابن عباس** رضي الله عنهما، عن رسول الله
ﷺ، قال: «من كره من أميره شيئا فليصبر عليه؛ فإنه ليس أحد من الناس خرج
من السلطان شبرا فمات عليه إلا مات ميتة جاهلية».

أفاد الحافظ **رمه الله تعالى** في شرحه لهذا الحديث في “فتح الباري” (١٣ / ١٠) ما
قال فيه: قال ابن بطال: في الحديث حجة في ترك الخروج على السلطان، ولو جار.
وقد أجمع الفقهاء على وجوب طاعة السلطان المتغلب والجهاد معه، وأن طاعته
خير من الخروج عليه لما في ذلك من حقن الدماء وتسكين الدهماء، وحجتهم هذا
الخبر وغيره مما يساعده. اهـ المراد.

قال أبو عبد الله: ومن الأحاديث التي تساعد المعنى المذكور ما أخرجه الإمام
البخاري في “صحيحه” (٧٠٥٢) والإمام مسلم في “صحيحه” (٤٥) - (١٨٤٣)
- وهذا اللفظ له - عن **عبد الله بن مسعود** رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إنها
ستكون بعدي أثرة وأمور تنكرونها». قالوا: يا رسول الله! كيف تأمر من أدرك منا
ذلك؟ قال: «تؤدون الحق الذي عليكم، وتسألون الله الذي لكم».

قال الإمام النووي **رمه الله تعالى** في شرحه للحديث في “المنهاج” (١٢ / ٢٠٢ -
٢٠٣): فيه الحث على السمع والطاعة، وإن كان المتولي ظالما، عسوفاً. فيعطى حقه

..

من الطاعة، ولا يخرج عليه، ولا يخلع. بل يتضرع إلى الله **تعالى** في كشف أذاه، ودفع شره، وإصلاحه. اهـ.

وإعطاء حق الأمير من الطاعة مقيد بما ليس فيه معصية لله، كما تقدم بيانه.

بـ وجوب كراهة المعاصي ممن جاء بها:

أخرج الإمام مسلم **رحمه الله تعالى** في "صحيحه" (٦٦) - (١٨٥٥) من حديث **عوف بن مالك رضي الله عنه**، قال: سمعت رسول الله **ﷺ**، يقول: «خيار أئمتكم الذين تحبونهم، ويحبونكم، وتصلون عليهم، ويصلون عليكم. وشرار أئمتكم الذين تبغضونهم، ويبغضونكم، وتلعنونهم، ويلعنونكم». قالوا: قلنا: يا رسول الله! أفلا ننبذهم عند ذلك؟ فقال: «لا، ما أقاموا فيكم الصلاة، ما أقاموا فيكم الصلاة. ألا من ولي عليه وال، فرآه يأتي شيئا من معصية الله، فليكره ما يأتي من معصية الله، ولا ينزعن يدا من طاعة».

قال الإمام الشوكاني **رحمته الله** في "النيل" (٤٦٦ / ١٣): قوله: «فليكره ما يأتي من معصية الله، ولا ينزعن يدا من طاعة» فيه دليل على أن من كره بقلبه ما يفعله السلطان من المعاصي كفاه ذلك، ولا يجب عليه زيادة عليه. وفي "الصحيح": «من رأى منكم منكرا فليغيره بيده، [فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه]».

ويمكن حمل حديث الباب وما ورد في معناه على عدم القدرة على التغيير باليد واللسان. ويمكن أن يجعل مختصا بالأمراء إذا فعلوا منكرا لما في الأحاديث الصحيحة من تحريم معصيتهم ومناذتهم. فكفى في الإنكار عليهم مجرد الكراهة بالقلب؛ لأن في إنكار المنكر عليه باليد واللسان تظهرا بالعصيان، وربما كان ذلك وسيلة إلى المناظرة بالسيف. اهـ.

..

قال أبو عبد الله: وأما قول الإمام الشوكاني: «يمكن حمل حديث الباب وما ورد في معناه على عدم القدرة على التغيير باليد» فليس مراده جواز الخروج على الأمراء إذا أتوا بمعصية الله. وذلك لقول رسول الله ﷺ في نفس الحديث: «لا ينزعن يدا من طاعة»، وقوله ﷺ فيه أيضا، جوابا لمن سأله عن منابذة شرار الأمراء: «لا ما أقاموا فيكم الصلاة».

وإنما المراد بالتغيير باليد مع القدرة ما قال فيه الحافظ ابن رجب **رحمه الله تعالى** في **“جامع العلوم والحكم”** (٢/٢٤٨-٢٤٩): وقد يجاب عن ذلك بأن التغيير باليد لا يستلزم القتال. وقد نص على ذلك أحمد أيضا، في رواية صالح؛ فقال: التغيير باليد ليس بالسيف والسلاح.

وحينئذ فجهاد الأمراء باليد أن يزيل بيده ما فعلوه من المنكرات مثل أن يريق خمرهم، أو يكسر آلات الملاهي التي لهم، أو نحو ذلك، أو يبطل بيده ما أمروا به من الظلم إن كان له قدرة على ذلك. وكل هذا جائز، وليس هو من باب قتالهم ولا من الخروج عليهم الذي ورد النهي عنه. اهـ المراد.

وهو ما ذهب إليه بعض العلماء من الخروج على أمراء الظلمة:

وذلك ما أفاده العلامة صديق حسن خان في **“الروضة الندية”** (٣/٥٠٩)؛ إذ قال: وذهب بعض أهل العلم إلى جواز الخروج على الظلمة -أو وجوبه- تمسكا بأحاديث الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. اهـ.

ثم أجاب **رحمه الله تعالى** عن الإيراد، وقد ذكر الإمام الشوكاني **رحمته الله** في **“النيل”** (١٣/٤٦٩) نحوه، وزاد؛ حيث قال: قد استدلل القائلون بوجوب الخروج على الظلمة، ومنابذتهم بالسيف، ومكافحتهم بالقتال، بعمومات من الكتاب والسنة

..

في وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. ولا شك، ولا ريب، أن الأحاديث التي ذكرها المصنف في هذا الباب، وذكرناها، أخص من تلك العمومات مطلقاً، وهي متواترة المعنى، كما يعرف ذلك من له أنسة بعلم السنة.

ولكنه لا ينبغي لمسلم أن يحط على من خرج من السلف الصالح من العترة وغيرهم على أئمة الجور؛ فإنهم فعلوا ذلك باجتهاد منهم، وهم أتقى الله وأطوع لسنة رسول الله من جماعة ممن جاء بعدهم من أهل العلم. اهـ.

وقد قال العلامة المعلمي في "رفع الاشتباه" (١/ ٢٣٧): ما نقله الشاطبي في "الاعتصام" عن ابن جرير الطبري، وحاصله أن أحاديث السواد الأعظم خاصة بمسألة الإمارة. والمعنى أنه إذا اجتمع أكثر المسلمين على تأمير أحدهم وجب عليهم وعلى غيرهم طاعته.

أقول: هذا هو الذي يدل عليه سياق تلك الأحاديث، وقد بين في بعضها أن المراد الطاعة في غير معصية الله تعالى، وقد دلت على ذلك الآية السابقة.

وبين في بعض الأحاديث أن الخروج على الأمير لا يجوز إلا أن يكفر كفراً بواحاً، أو يترك الصلاة. وعلى هذا، أو ما في معناه، يحمل عمل الحسين بن علي عليه السلام، ثم خلافاً لابن الزبير وأهل المدينة، ثم ابن الأشعث ومن خرج معه من الأئمة كسعيد بن جبير، والشعبي، وغيرهما. اهـ.

قال أبو عبد الله: في هذا الكلام والذي قبله ما رآه بعض الأئمة عن اجتهاد من الخروج على الأمراء الظلمة.

ولكن ليس في هذا ما يقتضي إطلاق كون هذا الرأي مذهباً للعلماء، ولا ما يفيد تعميمه لهم كلهم. ولهذا قال الشيخ النجفي في "الدرر النجمية" (ص ١٣٥) عقب ذكر أحاديث من النمط الذي تقدم: وهذه الأحاديث أدلة واضحة على

..

عدم جواز الخروج والمنازعة إلا عند وجود الكفر البواح. أما بدون ذلك من فسق وجور فإنه لا يجوز ذلك!

ولا اغترار بما ذكره الحافظ في “الفتح” عن ابن التين نقلا عن الداودي، قال: الذي عليه العلماء في أمراء الجور أنه إن قدر على خلعه من غير فتنة ولا ظلم وجب، وإلا فالواجب الصبر. اهـ.

أقول: ماذا بعد الحق إلا الضلال! إن عقيدة أهل السنة والجماعة متفقة على متابعة الأدلة بأنه لا يجوز الخروج ولا المنازعة إلا أن يرى الخارجين كفرا بواحا، معهم من الله فيه برهان. اهـ.

قال أبو عبد الله: وبهذا أيضا، يزول الاغترار بما قاله الحافظ في ترجمة الحسن بن صالح بن حي من “تهذيب التهذيب”: قولهم: «كان يرى السيف» يعني كان يرى الخروج بالسيف على أئمة الجور. وهذا مذهب للسلف قديم، لكن استقر الأمر على ترك ذلك لما رأوه قد أفضى إلى أشد منه. اهـ المراد.

ففي إطلاق عزو هذا المذهب للسلف نظر لا يخفى! بل هو خطأ؛ لأن ما رآه بعض السلف باجتهادهم في مسائل لا يصح أن يطلق عليه كونه مذهباً للسلف قاطبة. وإنما الذي دل عليه ما تقدم من الأدلة والآثار كون مذهب السلف قديماً وأبداً عدم الخروج على الأمراء الظلمة! وعلى رأس السلف الصحابة، وقد تقدم نقل عبادة **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ** مبايعتهم للرسول **ﷺ** على عدم منازعتهم الأمر أهله إلا عند رؤية كفر بواح، عندهم فيه برهان.

ومن هذا الباب ما أخرج الإمام البخاري **رحمه الله تعالى** في “صحيحه” (٧٠٦٨) بإسناده إلى الزبير بن عدي، قال: أتينا **أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ** فشكونا إليه ما يلقون من الحجاج، فقال: اصبروا... الحديث.



بمجرد مئذنة الجواب عنه:

قد يستشكل بعضهم ما تقدم بيانه لورود أحاديث مصرحة بمجاهدة الأمراء الظلمة باليد؟! ومن تلك الأحاديث ما أخرجه الإمام البيهقي رحمته الله في "الشعب" (٨١٨١) عن **عمر بن الخطاب** رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إنه سيصيب أمتي في آخر الزمان من سلطانهم شذائد، لا ينجو فيه إلا رجل عرف دين الله، فجاهد عليه بلسانه، ويده، وقلبه، فذلك الذي سبقت له السوابق. ورجل عرف دين الله، فصدق به. ورجل عرف دين الله فسكت، فإن رأى من يعمل الخير أحبه عليه، وإن رأى من يعمل بباطل أبغضه عليه، فذلك الذي ينجو على أبطانه كله».

وهذا الحديث ضعفه الحافظ ابن رجب رحمته الله تعالى في "جامع العلوم والحكم" (٢/ ٢٤٤)؛ حيث قال عقب ذكره: وهذا غريب، وإسناده منقطع. اهـ.

وبهذه العلة ضعفه أيضا، العلامة الألباني رحمته الله، وأضاف إليها ثانية؛ فقال في "الضعيفة" (١٤ / ٥٠٤): وهذا إسناد ضعيف، وله علتان؛

الأولى الانقطاع بين جابر بن زيد - وهو أبو الشعثاء البصري - وعمر بن الخطاب رضي الله عنه؛ فإنهم لم يذكروا له رواية عنه، وإنما عن ابنه عبد الله، وعبد الله بن عباس، وأمثاله. وبين وفاتيهما سبعون، أو ثمانون سنة.

والأخرى ضعف سالم المرادي، وهو ابن عبد الواحد، أو ابن العلاء، أبو العلاء. اهـ المراد.

وبعد العلم بهذا يزول الإشكال؛ إذ الحديث الضعيف لا يعارض به الحديث الصحيح. فكيف وفي الباب عدة أحاديث صحيحة، لا حديث واحد فقط، تأمر بالصبر على الأمراء الظلمة، وتنتهي عن منازعتهم!؟

..

وهناك حديث آخر قد يستشكله البعض كذلك، وهو ما ذكره الإمام أبو بكر الخلال **رحمه الله تعالى** في “السنة” (١٠٣)؛ حيث قال: **أُخْبِرْنَا** سليمان بن الأشعث أبو داود، قال: سمعت أبا عبد الله ذكر حديث صالح بن كيسان، عن الحارث بن فضيل الخطمي، عن جعفر بن عبد الله بن الحكم، عن عبد الرحمن بن المسور بن خرملة، عن أبي رافع، عن **عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ**، عن النبي **ﷺ**: «يكون أمراء يقولون ما لا يفعلون، فمن جاهدكم بيده».

قال أحمد: جعفر هذا هو أبو عبد الحميد بن جعفر، والحارث بن فضيل ليس بمحمود الحديث. وهذا الكلام لا يشبه كلام ابن مسعود، **ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ**، يقول: قال رسول الله **ﷺ**: «اصبروا حتى تلقوني». اهـ.

قال أبو عبد الله: يفسر قول أحمد: «ليس بمحمود الحديث» ما نقله الحافظ عنه في ترجمة الحارث بن فضيل من “تهذيب التهذيب”؛ إذ قال: وقال مهنا عن أحمد: ليس بمحفوظ الحديث. اهـ.

وظاهر هاتين العبارتين الإطلاق، فيكون حديثه عند أحمد غير محمود، أو غير محفوظ، على إطلاقه!

لكن ما فهمه الحفاظ من كلام أحمد مخالف لهذا الإطلاق؛ فإنهم جزموا بكونه أراد به حديثاً واحداً، وهو المتقدم. قال النووي أثناء كلامه على هذا الحديث في “المنهاج” (٢/٢٦): وقد قال أبو علي الجبائي عن أحمد بن حنبل **رحمته الله**، قال: «هذا الحديث غير محفوظ. قال: وهذا الكلام لا يشبه كلام ابن مسعود، وابن مسعود يقول: «اصبروا حتى تلقوني»». هذا كلام القاضي **رحمته الله**.

وقال الشيخ أبو عمرو: هذا الحديث قد أنكره أحمد بن حنبل. اهـ.

..

وهؤلاء الثلاثة رَوَاهُ عن الحارث، عن جعفر بن عبد الله بن الحكم، عن عبد الرحمن بن المسور، عن أبي رافع، عن **عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ**، أن رسول الله ﷺ قال: «ما من نبي بعثه الله في أمة قبلي إلا كان له من أمته حواريون وأصحاب يأخذون بسنته، ويقتدون بأمره. ثم إنها تخلف من بعدهم خلوف يقولون ما لا يفعلون، ويفعلون ما لا يؤمرون. فمن جاهدكم بيده فهو مؤمن، ومن جاهدكم بلسانه فهو مؤمن، ومن جاهدكم بقلبه فهو مؤمن، وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل».

والأمر كما ترى... فإنه ليس في لفظ الحديث عند هؤلاء كلهم ذكر الأمراء!! بل هو عندهم بلفظ «خلوف»، وعند ابن حبان بدله «أقوام»! قال الشيخ أحمد شاكر في تحقيقه على «المسند» (٢٣٦/٤) أثناء كلامه على هذا الحديث حيث أخرج أحمد بن حنبل متنه إلى قوله ﷺ: «ما لا يؤمرون»: خلوف جمع خلف بسكون اللام. قال ابن الأثير: الخلف، بالتحريك والسكون، كل من يجيء بعد من مضى. اهـ.

وعليه فالحديث عام، يخص منه ما يتعلق بالأمراء الظلمة بالأحاديث التي تقدم بيانه بعدم جواز الخروج عليهم والمنازعة لهم إلا عند وجود الكفر البواح فيه من الله برهان.

وأما لفظ الحديث الذي نقله الخلال فمحمول على رواية أحمد لذلك الحديث بالمعنى الذي فهمه هو منه، فخصه بالأمراء.

ويمكن حمله على حال المذاكرة، وقد قال شيخ الإسلام في «مجموعة الفتاوى» (٣٠-٢٩/١٨): ليس من قصد تحديث غيره بمنزلة من تكلم لنفسه؛ فإن الرجل يتكلم مع نفسه بأشياء، ويسترسل في الحديث، فإذا عرف أن الغير يتحمل ذلك

..

تحفظ. ولهذا كانوا لا يرون أحاديث المذاكرة بذاك. وكان الإمام أحمد يذكر بأشياء من حفظه، فإذا طلب المستمع الرواية أخرج كتابه فحدث من الكتاب. اهـ. ثم على فرض ثبوت لفظ الحديث المذكور في "السنة" للخلال فمقتضى الجمع بين النصوص في هذا الباب بحمل مجاهدة الأمراء الظلمة باليد على قول الإمام ابن رجب المتقدم: جهاد الأمراء باليد أن يزيل بيده ما فعلوه من المنكرات، مثل أن يريق خمرهم، أو يكسر آلات الملاهي التي لهم، ونحو ذلك. اهـ المراد.

به إخواننا ظاهر الأمير بكفر:

قال الشيخ ابن عثيمين **رحمه الله تعالى** في "الشرح الممتع" (١١/٣٢٣): والأئمة لا يجوز الخروج عليهم إلا بشروط مغلظة؛ لأن أضرار الخروج عليهم أضعاف ما يريد هؤلاء من الإصلاح. اهـ، واستفيد الوصول إلى هذا الكلام والآتي من شرح الشيخ عبد الحميد الحجوري لـ "شرح السنة للبرهاري" (١/٣٥٦).

ثم ذكر الشيخ ابن عثيمين **رحمه الله تعالى** هذه الشروط المغلظة؛ حيث قال:

الأول أن نعلم علم اليقين أنهم أتوا كفرا.

الثاني أن نعلم أن هذا الكفر صريح، ليس فيه تأويل، ولا يحتمل التأويل.

صريح، ظاهر، واضح؛ لأن الصريح، كما جاء في الحديث، هو الشيء الظاهر، البين، العالي، كما قال الله **تعالى** عن فرعون أنه قال لهامان: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَهْلِمَنُ آبْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ﴾ **سَبَبَ السَّمَوَاتِ** **[غافر]**، فلا بد أن يكون صريحا. أما ما يحتمل التأويل فإنه لا يسوغ الخروج عن الإيمان. اهـ المراد.

وهذا مبين لما تقدم في حديث **عبادة بن الصامت** **رضي الله عنه**: «وعلى أن لا ننازع الأمر أهله إلا أن تروا كفرا بواحا».

..

وقد قال الحافظ في شرح هذا الحديث في “الفتح” (١٣ / ١١): قال الخطابي: معنى قوله: «بواحا» يريد ظاهراً، بادياً، من قولهم: «باح بالشيء، يبوح به، بواحا وبواحا» إذا أذاعه، وأظهره. اهـ.

وفي هذا الصدد ما قاله الإمام القرطبي رحمه الله تعالى في “المفهم” (٣٩ / ٤): فأما لو ابتدع بدعة، ودعا الناس إليها، فالجمهور على أنه يخلع.

وذهب البصريون إلى أنه لا يخلع تمسكاً بقوله عليه الصلاة والسلام: «إلا أن تروا كفراً بواحا عندكم من الله فيه برهان». وهذا يدل على استدامة ولاية المتأول، وإن كان مبتدعاً. اهـ.

وفي هذا الصدد ما أفاده الحافظ في “الفتح” (١٣ / ١٤٤)؛ حيث قال: قد دعا المأمون، والمعتصم، والواثق، إلى بدعة القول بخلق القرآن، وعاقبوا العلماء من أجلها بالقتل، والضرب، والحبس، وأنواع الإهانة، ولم يقل أحد بوجوب الخروج عليهم بسبب ذلك. اهـ.

قال أبو عبد الله: وهذا القول كفر، كما صرح به الإمام أحمد في ما أخرجه الإمام الخلال رحمه الله في “السنة” (١٨١٨) بإسناد صحيح؛ حيث قال: أخبرنا سليمان بن الأشعث، وأحمد بن الحسين، ويوسف بن موسى، وإسماعيل بن إسحاق الثقفي، المعنى واحد، أنهم سمعوا أبا عبد الله، يقول: القرآن كلام الله غير مخلوق، ومن قال: «إنه مخلوق» فهو كافر. اهـ.

ومع هذا لما أراد البعض الخروج على الواثق لإظهار هذا القول أنكر عليهم الإمام أحمد. قال الإمام الخلال رحمه الله في “السنة” (٨٨): أخبرني علي بن عيسى، قال: سمعت حنبلاً، يقول في ولاية الواثق: اجتمع فقهاء بغداد إلى أبي عبد الله،

أبو بكر بن عبيد، وإبراهيم بن علي المطبخي، وفضل بن عاصم، فجاءوا إلى أبي عبد الله. فاستأذنت لهم، فقالوا: «يا أبا عبد الله! هذا الأمر قد تفاقم، وفشا»، يعنون إظهاره لخلق القرآن وغير ذلك. فقال لهم أبو عبد الله: فما تريدون؟ قالوا: «أن نشاورك في أننا لسنا نرضى بإمرته ولا سلطانه». فناظرهم أبو عبد الله ساعة، وقال لهم: عليكم بالنكرة بقلوبكم، ولا تخلعوا يدا من طاعة، ولا تشقوا عصا المسلمين، ولا تسفكوا دماءكم ودماء المسلمين معكم. انظروا في عاقبة أمركم، واصبروا حتى يستريح بر، أو يستراح من فاجر... اهـ المراد.

قال أبو عبد الله: ولم أجد لشيخ الخلال ترجمة، إلا أن أصل القصة ثابت؛ فقد نقل الحافظ الذهبي **رحمه الله تعالى** في سياق ذكر محنة الواثق في "السير" (١١/٢٦٣) عن حنبل أنه قال: جاء نفر إلى أبي عبد الله، وقالوا: «هذا الأمر قد فشا، وتفاقم، ونحن نخافه على أكثر من هذا». وذكروا ابن أبي دواد، وأنه على أن يأمر المعلمين بتعليم الصبيان في المكاتب «القرآن كذا وكذا»، فنحن لا نرضى بإمارته. فمنعهم من ذلك، وناظرهم. اهـ.

وقد صدر الحافظ الذهبي هذا النقل بصيغة الجزم؛ حيث قال: «قال حنبل»، والظاهر أنه مما استفاده من كتابه في المحنة، الذي قال عنه في "السير" (١٣/ ٥٢ - ٥٣): وقع لي جزء حنبل، وجزء فيه الرابع من "الفتن" لحنبل، وكتاب "المحنة" لحنبل. اهـ.

وفي هذه القصة نموذج من موقف أهل السنة في هذه الحال، وذلك ما دلت عليه الأدلة المتقدمة من وجوب الصبر وعدم الخروج على ولي الأمر ما دام احتمال فعله التأويل. وفي هذا المعنى ما قال فيه الحافظ **رحمه الله تعالى** في "الفتح" (١١/ ١٣) -

..

(١٢): قوله: «عندكم من الله فيه برهان»، أي: نص آية، أو خبر صحيح، لا يحتمل التأويل. ومقتضاه أنه لا يجوز الخروج عليهم ما دام فعلهم يحتمل التأويل. اهـ.

ثم قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله تعالى في تنمة ذكره للشروط المتقدمة:

الثالث أن يكون عندنا فيه من الله برهان ودليل قاطع مثل الشمس أن هذا

كفر!

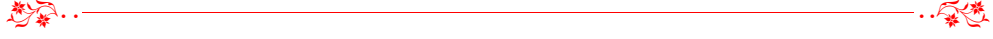
فلا بد إذن أن نعلم أنه كفر وأن نعلم أن مرتكبه كافر لعدم التأويل، كما قال النبي عليه الصلاة والسلام: «إلا أن تروا كفرا بواحا عندكم فيه من الله برهان». وقالوا: أفلا نناذبهم عند ذلك؟ قال: «لا ما أقاموا فيكم الصلاة»، أي: ما داموا يصلون.

الرابع القدرة على إزالته.

أما إذا علمنا أننا لا نزيله إلا بقتال تراق فيه الدماء، وتستباح فيه الحرمات، فلا يجوز أن نتكلم أبدا! ولكن نسأل الله أن يهديه، أو يزيله؛ لأننا لو فعلنا وليس عندنا قدرة، فهل يمكن أن يتزحزح هذا الوالي الكافر عما هو عليه؟ لا، بل يزداد إلا تمسكا بما هو عليه، وما أكثر الذين يناصرونه! إذا يكون سعينا بالخروج عليه مفسدة عظيمة، لا يزول بها الباطل. بل يقوى بها الباطل، ويكون الإثم علينا، فنحن الذين وضعنا رقابنا تحت سيوفه. اهـ المراد.

بعض من علامات أهل الأهواء (المنحرفين عن الإسلام):

أخرج الإمام أبو بكر الخلال رحمه الله تعالى في “السنة” (٦٩٦) بإسناد صحيح ما قال فيه: **أنه** الدوري، قال: ثنا قراد، قال: ثنا سليمان بن المغيرة، عن حميد بن هلال، عن عبد الله بن مغفل، قال: كان عبد الله بن سلام رحمه الله قريبا من المدينة، وكان يدخل كل جمعة على حمار، فإذا قضيت الصلاة انصرف.



قال: فلما هاج الناس لقتل عثمان رضي الله عنه جاء، فقال: يا أيها الناس! لا تقتلوا عثمان، واستعقبوه؛ فإنه ليس من أمة قتلت نبيها، فيصلح الله أمرهم أبدا حتى يهريقوا دماء سبعين ألفا، ولا قتلت أمة خليفتها، فيصلح الله أمرهم أبدا حتى يهريقوا دماء أربعين ألفا منهم، ولا هلكت أمة حتى يرفعوا القرآن على السلطان. قال سليمان: فقلت لحמיד: ما «يرفع القرآن على السلطان»؟ قال: ألم تر إلى أهل الأهواء كيف يتأولون القرآن على غير تأويله، يطعنون به على السلطان؟! اهـ المراد.

بعض من أصول أهل السنة والجماعة الرعاء للسلطان المسلم:

قال الحافظ ابن عبد البر رحمه الله تعالى في "التمهيد" (٢٣/٥٠٧): إن لم يمكن نصيح السلطان فالصبر والدعاء؛ فإنهم كانوا ينهون عن سب الأمراء. اهـ. وأخرج رحمه الله تعالى عقب هذا الكلام آثارا توضح كون مراده بهؤلاء الناهين السلف الصالح. ولذلك قال الشيخ الفوزان في شرحه لـ "العقيدة الطحاوية" (١٢/٣): لا يجوز الدعاء عليهم؛ لأن هذا خروج معنوي مثل الخروج عليهم بالسلاح، وكونه دعا عليهم؛ لأنه لا يرى ولا يتهم. فالواجب الدعاء لهم بالهدى والصلاح، لا الدعاء عليهم، فهذا أصل من أصول أهل السنة والجماعة. اهـ. ثم قال رحمته الله تعالى بعد ذلك: والإمام أحمد صبر في المحنة، ولم يثبت عنه أنه دعا عليهم، أو تكلم فيهم. بل صبر، وكانت العاقبة له. هذا مذهب أهل السنة والجماعة. اهـ.



..

خاتمة في هذا الأصل

ومما يقع فيه الناس، أو كثير منهم، حين يصابون بظلم من قبل غيرهم توجيه أنظارهم إلى ذلك الغير.

وكان المتعين المؤيد بالأدلة عدم قصر أنظارهم في تلك الجهة! وهكذا الأمر في ما يتعلق بالمسألة التي كلامنا بصددتها، قال الإمام ابن أبي العز في شرح ”العقيدة الطحاوية“ (ص ٣٦١-٣٦٢): أما لزوم طاعتهم وإن جاروا فلا أنه يترتب على الخروج عن طاعتهم من المفسد أضعاف ما يحصل من جورهم.

بل في الصبر على جورهم تكفير السيئات ومضاعفة الأجور؛ فإن الله **تعالى** ما سلطهم علينا إلا لفساد أعمالنا، والجزاء من جنس العمل! فعلينا الاجتهاد في الاستغفار، والتوبة، وإصلاح العمل، قال **تعالى**: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِّنْ مُّصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠]، وقال **تعالى**: ﴿أَوَلَمْآ أَصَابَكُمْ مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنْفُسِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٦٥]، وقال **تعالى**: ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنَ نَفْسِكَ﴾ [النساء: ٧٩]، وقال **تعالى**: ﴿وَكَذَلِكَ نُؤَلِّى بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٩]. اهـ.

وفي المعنى المذكور ما أخرجه الإمام ابن سعد في ”الطبقات“ (١٢١/٧) بسند صحيح؛ فقال: **أخبرنا** عارم بن الفضل، قال: ثنا حماد بن زيد، عن أبي التياح، قال: شهدت الحسن وسعيد بن أبي الحسن حين أقبل ابن الأشعث. فكان الحسن ينهى عن الخروج على الحجاج، ويأمر بالكف، وكان سعيد بن أبي الحسن يحضض. ثم قال سعيد في ما يقول: ما ظنك بأهل الشام إذا لقيناهم غدا، فقلنا: والله ما خلعنا

..

أمير المؤمنين، ولا نريد خلعه. ولكننا نقمنا عليه استعماله الحجاج، فاعزله عنا؟ فلما فرغ سعيد من كلامه تكلم الحسن، فحمد الله، وأثنى عليه، ثم قال: يا أيها الناس! إنه والله ما سلط الله الحجاج عليكم إلا عقوبة، فلا تعارضوا عقوبة الله بالسيف. ولكن عليكم السكينة والتضرع. اهـ المراد.

وفي هذا الكلام علاج المشكل السابق الذكر، وهو الذي ذكره الإمام ابن أبي العز؛ حيث قال عقب كلامه المتقدم: فإذا أراد الرعية أن يتخلصوا من ظلم الأمير الظالم فليتركوا الظلم. اهـ.

ويوضح ذلك ما أفاد الإمام الألباني رحمته الله في تعليقه على "العقيدة الطحاوية" (ص ٧٨)؛ حيث قال: وفي هذا بيان لطريق الخلاص من ظلم الحكام الذين هم من جلدتنا، ويتكلمون بألسنتنا، وهو أن يتوب المسلمون إلى ربهم، ويصححوا عقيدتهم، ويربوا أنفسهم وأهلهم على الإسلام الصحيح، تحقيقاً لقوله **نصاً**: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١]. اهـ.



الأصل الرابع

الأصل الرابع: بيان العلم...

قوله: {بيان العلم} لما كان شرف العلم بالمنزلة التي لا تخفى على كل ذي عقل ادعاه الكثير قاصداً بذلك نيل شرف تلك المنزلة. ولكن حقيقة ما عند أكثر هؤلاء كلام وآراء، قال الحافظ ابن القيم في ”الفوائد“ (ص ١٥١-١٥٢): فكل طائفة اعتقدت أن العلم ما معها، وفرحت به، ﴿فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٣]، وأكثر ما عندهم كلام، وآراء، وخرص! والعلم وراء الكلام، كما قال حماد بن زيد: قلت لأيوب: العلم اليوم أكثر، أو في ما تقدم؟ فقال: «الكلام اليوم أكثر، والعلم في ما تقدم أكثر». ففرق هذا الراسخ بين العلم والكلام.

فالكتب كثيرة جداً، والكلام، والجدال، والمقدرات الذهنية، كثيرة. والعلم بمعزل عن أكثرها، وهو ما جاء به الرسول ﷺ عن الله، قال **نعمان**: ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾ [آل عمران: ٦١]، وقال: ﴿وَلَيْنِ اتَّبَعَتْ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾ [البقرة: ١٢٠]. اهـ.

وفي هذا المعنى ما أخرجه الإمام البخاري في ”صحيحه“ (٧٩) والإمام مسلم في ”صحيحه“ (١٥) - (٢٢٨٢) من حديث **أبي موسى** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن رسول الله ﷺ، قال: «إن مثل ما بعثني الله به **عز وجل** من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب

..

أرضا، فكانت منها طائفة طيبة قبلت الماء، فأُنبتت الكلاً والعشب الكثير، وكان منها أجادب أمسكت الماء، فنفع الله بها الناس، فشربوا منها، وسقوا، ورعوا. وأصاب طائفة منها أخرى إنما هي قيعان، لا تمسك ماء، ولا تنبت كلاً. فذلك مثل من فقه في دين الله، ونفعه بما بعثني الله به، فعلم، وعلم. ومثل من لم يرفع بذلك رأساً، ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به».

وفي هذا الحديث أيضاً، ما يبين كون ما جاء به الرسول ﷺ عن الله سبحانه وتعالى هو العلم النافع، قال الحافظ الذهبي رحمه الله تعالى كما في "العلم" (ص ١٣): تدري ما العلم النافع؟ هو ما نزل به القرآن، وفسره الرسول ﷺ قولاً وفعلاً، ولم يأت نهي عنه، قال عليه السلام: «من رغب عن سنتي فليس مني».

فعليك يا أخي! بتدبر كتاب الله ويأدمان النظر في "الصحيحين"، و"سنن النسائي"، و"رياض النووي"، و"أذكاره"، تفلح، وتنجح. وإياك وآراء عباد الفلاسفة، ووظائف أهل الرياضات، وجوع الرهبان، وخطاب طيش رءوس أصحاب الخلوات! اهـ المراد.

به العلم القراءة والسنة:

في ما تقدم ما يكفي من الأدلة لبيان ما هو العلم، ونضيف إلى ذلك مما يزيده وضوحاً ذكر حديثين،

أحدهما فيه تسمية الرسول ﷺ للآية من كتاب الله سبحانه وتعالى علماً، وذلك في ما أخرجه الإمام مسلم في "صحيحه" (٢٥٨) - (٨١٠) من حديث أبي بن كعب رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «يا أبا المنذر! أتدري أي آية من كتاب الله معك أعظم؟». قال: قلت: الله ورسوله أعلم. قال: «يا أبا المنذر! أتدري أي

..

آية من كتاب الله معك أعظم؟». قال: قلت: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]. قال: فضرب في صدري، وقال: «والله ليهنك العلم أبا المنذر!».

وقد أخرج هذا الحديث الحافظ ابن عبد البر في “جامع بيان العلم” (١٤١٠) مستنبطاً منه المعنى المتقدم؛ إذ ذكره تحت باب معرفة أصول العلم وحقيقته وما الذي يقع عليه اسم الفقه والعلم مطلقاً.

ثانيهما فيه تسمية الصحابي الحديث علماً، وذلك ما قال فيه الحافظ ابن عبد البر بعد ما تقدم (١٤١٢): وروى مالك، عن محمد بن شهاب، عن عبد الحميد ابن عبد الرحمن، [عن] عبد الله بن عبد الله بن الحارث، عن ابن عباس، أن عمر ابن الخطاب رضي الله عنه حين خرج إلى الشام، فأخبر أن الوباء قد وقع فيها، واختلف عليه أصحاب رسول الله ﷺ، جاء **عبد الرحمن بن عوف** رضي الله عنه، قال: إن عندي من هذا علماً، سمعت رسول الله ﷺ، يقول: «إذا سمعتم به بأرض...»، وذكر الحديث. اهـ.

وقد أخرج هذا الحديث مع القصة المذكورة في “صحيح البخاري” (٥٧٢٩) و”صحيح مسلم” (٩٨) - (٢٢١٩).

وهذان المصدران أصول العلم، قال الحافظ ابن عبد البر **رحمه الله تعالى** في المصدر المتقدم (١/ ٦٢٥): وأما أصول العلم فالكتاب والسنة. اهـ.

وتقدم ذكر ذلك من كلام الإمام الشافعي كذلك. وقد ألحق **رحمه الله تعالى** بهذين الإجماع، أخرجه الحافظ ابن عبد البر **رحمته الله** بإسناد صحيح في “جامع بيان العلم” (١٤٠٣)؛ إذ قال: **وأخبرنا** إبراهيم بن شاكراً، نا محمد بن يحيى بن عبد العزيز، نا أسلم بن عبد العزيز، نا المزني والربيع بن سليمان، قالوا: قال الشافعي **رحمته الله**: ليس

والعلماء،...

...

لأحد أن يقول في شيء: «حلال»، ولا: «حرام»، إلا من جهة العلم. وجهة العلم ما نص في الكتاب، أو في السنة، أو في الإجماع، [فإن لم يوجد في ذلك] [فالتقياس] على هذه الأصول ما [كان] في معناها. اهـ.

وتوجيه الإلحاق المذكور بما قاله الحافظ ابن عبد البر بعد ذلك: أما الإجماع فمأخوذ من قول الله **نَعْلًا**: ﴿وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ الآية **[النساء: ١١٥]**؛ لأن الاختلاف لا يصح مع هذا الظاهر، وقول النبي **ﷺ**: «لا تجتمع أمتي على ضلالة». اهـ.

قوله: {والعلماء} قال الحافظ ابن عبد البر **رحمه الله تعالى** في «جامع بيان العلم» (١٣٠ / ٢): أجمع أهل الفقه والآثار من جميع الأمصار أن أهل الكلام أهل بدع وزيف، ولا يعدون عند الجميع في طبقات الفقهاء. وإنما العلماء أهل الأثر والتفقه فيه، ويتفاضلون فيه بالإتقان، والميز، والفهم. اهـ. وللعلماء من الأوصاف الجليلة ما يأتي ذكر بعضها، إن شاء الله. ونكتفي في الفصل التالي بذكر أهم ما يتصفون به...

بعض أهم ما ينص به العلماء (الحثية):

قال الإمام ابن القيم **رحمه الله** كما في «تفسيره» (٣٤٨ / ٢) لقول الله **نَعْلًا**: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ **[فاطر: ٢٨]**: يقتضي الحصر من الطرفين؛ أن لا يخشاه إلا العلماء، ولا يكون عالماً إلا من يخشاه.

..

فلا يخشاه إلا عالم، وما من عالم إلا وهو يخشاه. فإذا انتفى العلم انتفت الخشية، وإذا انتفت الخشية دلت على انتفاء العلم. اهـ.

أما الطرف الأول فيوضحه ما قاله شيخ الإسلام **رحمه الله تعالى** كما في “تفسيره” (٣٠٦/٥) بعد ذكر الآية المتقدمة: والمعنى أنه لا يخشاه إلا عالم. فقد أخبر الله أن كل من خشي الله فهو عالم، كما قال في الآية الأخرى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَنِتٌ ءَانَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩].

والخشية أبدا متضمنة للرجاء، ولولا ذلك لكانت قنوطا، كما أن الرجاء يستلزم الخوف، ولولا ذلك لكان أمنا، فأهل الخوف لله والرجاء له هم أهل العلم. اهـ المراد.

وقال **رحمه الله** بعد ذلك بأسطر: إذا كان أهل الخشية هم العلماء الممدوحون في الكتاب والسنة لم يكونوا مستحقين للذم، وذلك لا يكون إلا مع فعل الواجبات، ويدل عليه قوله **تعالى**: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ۖ وَلَنُسَكِّنَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾ [إبراهيم]، وقوله: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ ۖ جَنَّاتٍ ۖ﴾ [الرحمن: ٤٦]، فوعد بنصر الدنيا وبثواب الآخرة لأهل الخوف، وذلك إنما يكون؛ لأنهم أدوا الواجب، فدل على أن الخوف يستلزم فعل الواجب. اهـ المراد.

وأما الطرف الثاني فيوضحه ما قاله الحافظ ابن رجب **رحمه الله** أثناء كلامه على الآية المذكورة كما في “مجموع رسائله” (٣٥٨/١): أما بيان أن انتفاء الخشية ينتفي معه العلم فإن العلم له موجب ومقتضى، وهو اتباعه والاهتداء به، وضده الجهل.

والفقه،...

...

فإذا انتفت فائدته ومقتضاه صار حالة محاله عند عدمه، وهو الجهل. وقد تقدم أن الذنوب إنما تقع عن جهالة، بينا دلالة القرآن على ذلك وتفسير السلف له بذلك، فيلزم حينئذ أن ينتفي العلم، ويثبت الجهل، عند انتفاء فائدة العلم ومقتضاه، وهو اتباعه. اهـ.

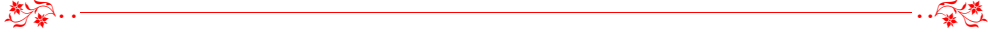
وقال **رمه (الله تعالى)** بعد ذلك: وهذا كما يوصف من لا ينتفع به بسمعه، وبصره، وعقله، في معرفة الحق والانقياد له بأنه أصم، أبكم، أعمى، قال **تعالى**: ﴿صُمُّ بُكْمٌ عُمَىٰ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٧١].

ويقال أيضا: إنه لا يسمع، ولا يبصر، ولا يعقل، كما قال **تعالى**: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَآلَا نَعِمٍ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

فسلب العلم، والعقل، والسمع، والبصر، وإثبات الجهل، والبكم، والصمم، والعمى، في حق من فقد حقائق هذه الصفات وفوائدها من الكفار، والمنافقين، أو من شركهم في بعض ذلك كله، من باب واحد، وهو سلب اسم الشيء، أو مسماه، لانتفاء مقصوده وفائدته. اهـ المراد.

قوله: {والفقه} قال العلامة الفيروزآبادي **رحمته الله** في "قاموسه": الفقه بالكسر، العلم بالشيء، والفهم له، والفتنة، وغلب على علم الدين لشرفه. اهـ.

والفقه في الدين من أعلى الهمم، قال الإمام ابن القيم **رمه (الله تعالى)** في "الفوائد" (ص ٨٤): أعلى الهمم في طلب العلم طلب علم الكتاب والسنة، والفهم عن الله ورسوله نفس المراد وعلم حدود المنزل. اهـ.



مادة الفقه الكتاب والسنة وما يتبعه

ومادة الفقه كتاب الله عز وجل وسنة رسول الله ﷺ .

أما القرآن فقد أخرج الإمام البخاري رحمه الله تعالى في ”صحيحه“ (٣٠٤٧) عن أبي جحيفة، قال: قلت لعلي رضي الله عنه: هل عندكم شيء من الوحي إلا ما في كتاب الله؟ قال: لا، والذي فلق الحبة، وبرأ النسمة، ما أعلمه إلا فهما يعطيه الله رجلا في القرآن وما في هذه الصحيفة. قلت: وما في الصحيفة؟ قال: العقل، وفكاك الأسير، وأن لا يقتل مسلم بكافر.

فقوله: «إلا فهما يعطيه الله رجلا في القرآن» بين الدلالة في المقصود.

وأما السنة فقد ورد تصريح الرسول ﷺ بذلك، ففي ما أخرجه الإمام أبو داود في ”سننه“ (٣٣٦٠) ما قال فيه: **حمرنا** مسدد، ثنا يحيى، عن شعبة، ثنا عمر ابن سليمان -من ولد عمر بن الخطاب-، عن عبد الرحمن بن أبان، عن أبيه، عن **زيد بن ثابت** رضي الله عنه، قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «نضر الله امرءا سمع منا حديثا فحفظه حتى يبلغه، فرب حامل فقه إلى من هو أفقه منه، ورب حامل فقه ليس بفقيه».

وقد صحح الحديث الشيخ مقبل رحمه الله في ”الجامع الصحيح“ (٣٩١٦).

وقال حافظ المغرب ابن عبد البر في ”جامع بيان العلم“ (٦١٢/١) عقب ذكر هذا الحديث: فسمى الحديث فقها مطلقا. اهـ المراد.

وقد تقدم بيان كون هذين المصدرين هو العلم النافع، ولكن لا بد من التقييد في فهم الكتاب والسنة بما يتبعهما من أقوال السلف. ولذلك شملتها اسم العلم النافع، قال الحافظ ابن رجب في ”فضل علم السلف“ بتصرف واختصار: والعلم

...

النافع هو ما كان ضبط نصوص الكتاب والسنة، وفهم معانيها، والتقيد في ذلك بالمأثور عن الصحابة، والتابعين، وتابعيهم، في معاني القرآن والحديث... اهـ المراد بواسطة "نصرة النعيم" (٢٩١٤ / ٧).

فأما أقوال الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ فإنه يدل على أهميتها في التقيد المذكور تسمية غير واحد من الأئمة لها علماً.

ومن ذلك ما قال الحافظ ابن عبد البر في "جامع بيان العلم" (١٣٣ / ٢): ما جاء عن النبي ﷺ من نقل الثقات وجاء عن الصحابة، وصح عنهم، فهو علم يدان به. اهـ المراد.

قال الإمام ابن القيم في "الفوائد" (ص ١٥٣): لقد أحسن القائل:

العلم قال الله قال الرسول	قال الصحابة ليس بالتمويه
ما العلم نصبك للخلاف سفاهة	بين الرسول وبين رأي فقيه
كلا ولا جحد الصفات ونفيها	حذرا من التمثيل والتشبيه

اهـ.

بل الاعتناء بأقوالهم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ سبب النجاح، فقد قال الحافظ في ترجمة الزهري من "تهذيب التهذيب": وقال معمر عن صالح بن كيسان: كنت أطلب العلم أنا والزهري، فقال: تعال نكتب السنن. قال: فكتبنا ما جاء عن النبي ﷺ. ثم قال: تعال نكتب ما جاء عن الصحابة. قال: فكتب، ولم نكتب، فأنجح، وضيعت. اهـ.

وأما أقوال التابعين فإنه يدل على أهميتها في فهم الكتاب والسنة ما نقله الحافظ مغلطاي رحمه الله تعالى في "الإصلاح" (ص ١١٢) عن الحافظ ابن الصلاح أنه قال: قال الخطيب أبو بكر في "جامعه": من الحديث المقطوع.

والفقهاء...

قال: المقاطع، هي الموقوفات على التابعين، فيلزم كتبها والنظر فيها؛ ليتخير من أقوالهم، ولا يشذ عن مذاهبهم. اهـ المراد.

والاعتناء بأقوال الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ والتابعين سبب نيل الإمامة في الدين، قال الحافظ ابن عبد البر في المرجع المتقدم (٢/ ٢٨١): إنما صار مالك ومن ذكرنا معه أئمة عند الجميع؛ لأن علم الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ والتابعين في أقطار الأرض انتهى إليهم لبحثهم عنه رَحِمَهُمُ اللَّهُ، والذي يشذ عنهم نزر يسير في جنب ما عندهم. اهـ.

قوله: «والفقهاء» قال العلامة ابن القيم في “أعلام الموقعين” (١/ ١٤): فقهاء الإسلام ومن دارت الفتيا على أقوالهم بين الأنام الذين خصوا باستنباط الأحكام، وعنوا بضبط قواعد الحلال والحرام، فهم في الأرض بمنزلة النجوم في السماء، بهم يهتدى الحيران في الظلماء. اهـ.

وتقدم قول النبي ﷺ في وصفهم: «ذلك مثل من فقه في دين الله، ونفعه بما بعثني الله به، فعلم، وعلم». قال الحافظ في “الفتح” (١/ ٢٣٢) في شرح الحديث: «فقه» بضم القاف، أي: صار فقيها. اهـ.

والفقه بالمعنى المذكور يزيد لمن اتصف به خيرا، فقد أخرج الإمام البخاري في “صحيحه” (٣٣٧٤) والإمام مسلم في “صحيحه” (١٦٨) - (٢٣٧٨) عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قيل: يا رسول الله! من أكرم الناس؟ قال: «أتقاهم». قالوا: ليس عن هذا نسألك. قال: «فيوسف نبي الله ابن نبي الله ابن نبي الله ابن خليل الله». قالوا: ليس عن هذا نسألك. قال: «فعن معادن العرب تسألوني؟ خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا».

وبيان من تشبه بهم،...

...

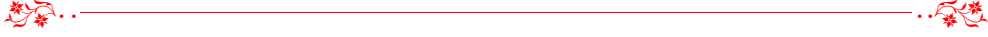
قال الحافظ رحمته الله في "الفتح" (٥٠٣/٦): فإن الأفضل من جمع بين الشرف في الجاهلية والشرف في الإسلام. وكان شرفهم في الجاهلية بالخصال المحمودة من جهة ملائمة الطبع ومنافرتة، خصوصا بالانتساب إلى الآباء المتصفين بذلك. ثم الشرف في الإسلام بالخصال المحمودة شرعا، ثم أرفعهم مرتبة من أضاف إلى ذلك التفقه في الدين. اهـ.

ويصب في نحو المعنى المذكور ما أخرجه الإمام ابن أبي شيبة في "مصنفه" (٣٧٩٢١) والإمام الدارمي في "السنن" (٣٠٣) من طريق سفيان، عن عمران القصير، قال: سألت الحسن عن شيء، فقلت: إن الفقهاء يقولون: كذا وكذا. قال: وهل رأيت فقيها بعينك؟! إنما الفقيه الزاهد في الدنيا، البصير بدينه، المداوم على عبادة ربه. اهـ.

قال أبو عبد الله: وهذا السند حسن من أجل عمران هذا، فقد قال الحافظ رحمته الله في ترجمته من "التقريب": صدوق، ربما وهم. اهـ.

فتأمل الموافقة بين قوله: «البصير بدينه» وبين قول رسول الله ﷺ في الحديث السابق الذكر: «فعلهم». ثم تأمل الموافقة بين قوله: «المداوم على عبادة ربه» وبين قوله ﷺ في الحديث نفسه: «نفعه بما بعثني الله به»...

قوله: «وبيان من تشبه بهم» لما كان شرف العلم بالمنزلة التي لا يخفى سموها على كل ذي لب، حاول من ليس من أهله حشر نفسه في زمرة العلماء. وهيهات! فإن دون ذلك مفاوز تنقطع فيها رواحل الطائشين، وعثار تكبو فيها جياذ اللاعبين، ومخاطر تغبر فيها أنوف الكاذبين، وفتن تغربل الفاتنين المفتونين...



وصدق الشاعر؛ إذ يقول:

لا تحسب المجد تمرا أنت آكله لن تبلغ المجد حتى تلعق الصبرا

لما كان التمييز بين العلماء وبين من تشبه بهم وليس منهم قد يخفى على الناس كانت الحاجة إلى بيان ذلك عظيمة. كيف لا، وقد نقل العلامة بكر أبو زيد رحمته الله في "التعالم" (ص ٣٢-٣٣) عن الحافظ ابن القيم أنه قال: وقد أقام الله سبحانه وتعالى لكل عالم، ورئيس، وفاضل، من يظهر مماثلته، ويرى الجهال، وهم الأكثرون، مساجلته، ومشاكلته، وأنه يجري معه في الميدان، وأنها عند المسابقة كفرسي رهان، ولاسيما إذا طول الأردان، وأرخی الذوائب الطويلة وراءه كذنب الأتان، وهدر باللسان، وخلا له الميدان الطويل من الفرسان،

فلو لبس الحمار ثياب خز لقال الناس يا لك من حمار

وهذا الضرب إنما يستفتون بالشكل لا بالفضل، وبالمناصب لا بالأهلية. قد غرهم عكوف من لا علم عنده عليهم ومسارة أجهل منهم إليهم، تعج منهم الحقوق إلى الله عجيجا، وتضج منهم الأحكام إلى من أنزلها ضجيجا. اهـ. وفي بيان ضرر هؤلاء يقول الشيخ بكر أبو زيد في "التعالم" (ص ٦): قال ابن حزم رحمته الله: لا آفة على العلوم وأهلها أضر من الدخلاء فيها وهم من غير أهلها؛ فإنهم يجهلون ويظنون أنهم يعلمون، ويفسدون ويقدرّون أنهم يصلحون. اهـ.

وهذه فكتة في بيان سبب عدم توفيق الله للمتشبهين بالعلماء:

وأعظم سبب لعدم توفيق الله هؤلاء المتشبهين بالعلماء تحقيرهم للعلم ولأهله وما يستلزم من ذلك من التكبر، قال الإمام ابن القيم في هذا المعنى في "الفوائد"

...

(ص ١٥٢) بعد بيانه للعلم النافع: ولما بعد العهد بهذا العلم آل الأمر بكثير من الناس إلى أن اتخذوا هواجس الأفكار وسوانح الخواطر والآراء علما، ووضعوا فيها الكتب، وأنفقوا فيها الأنفاس، فضيعوا فيها الزمان، وملئوا بها الصحف مدادا والقلوب سوادا، حتى صرح كثير منهم أنه ليس في القرآن والسنة علم، وأن أدلتها لفظية، لا تفيد يقينا ولا علما!!! وصرخ الشيطان بهذه الكلمة فيهم، وأذن بها بين أظهرهم، حتى أسمعها دانيهم لقاصيهم، فانسلخت بها القلوب من العلم والإيمان كانسلاخ الحية من قشرها والثوب عن لابسه.

لقد أخبرني بعض أصحابنا عن بعض أتباع تلاميذ هؤلاء أنه رآه يشتغل في بعض كتبهم ولم يحفظ القرآن، فقال له: لو حفظت القرآن أولا كان أولى! فقال: وهل في القرآن علم؟! اهـ المراد.

ولما كان حال هؤلاء ما ذكر صرفوا عن العلم النافع، قال الله تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَاتِي الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [الأعراف: ١٤٦].

ولم يبق بعد هذا إلى توكيلهم إلى أنفسهم، وماذا يرجوا من نفس أمارة بسوء؟! فلا جرم أنها تقود صاحبها إلى كل هلاك، فتراه لابسا رداء الكبر، تائها في الطرق التي رضي بها لنفسه، وحاد بها عن المحجة البيضاء. وقد قال الخطيب في وصفه للمتشبهين بأهل الحديث وليسوا منهم: وهم مع قلة كتبهم له وعدم معرفتهم به أعظم الناس كبرا، وأشد الخلق تبيها وعجبا. اهـ المراد بواسطة "التعالم" (ص ٥٠). ويستفاد مما تقدم أعظم وصف يميز العلماء عمن تشبه بهم وليس منهم، فإذا رأيت المحقر، المتكبر، علمت أنه ليس من العلماء وإن تظاهر بذلك لمن لم يعرف حقيقة أمره؛ فإن الله **جل وعلا** وصف العلماء بأوصاف تدل على ضد ذلك، قال الله

وليس منهم.

نعل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَنَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ [الإسراء].

قال الإمام ابن جرير في “تفسيره” (١٥ / ١٨١): يقول **نعل فكره**: ويخر هؤلاء الذين أوتوا العلم من مؤمني أهل الكتاب من قبل نزول الفرقان إذا يتلى عليهم القرآن لأذقائهم يبكون، ويزيدهم ما في القرآن من المواعظ والعبر ﴿خُشُوعًا﴾، يعني خضوعاً لأمر الله وطاعته واستكانة له. اهـ.

قوله: ﴿وليس منهم﴾ والمناسبة بين هذا الأصل وبين الأصول التي تقدمت في ما أفاد الشيخ بكر أبو زيد في “حكم الانتماء” (ص ٣٩-٤٠)؛ حيث قال: الأصل الالتزام بالكتاب والسنة، ولزوم جماعة المسلمين وإمامهم بالسمع والطاعة على غير معصية، وقيام المتأهل بالدعوة إلى الله **نعل** على منهاج النبوة، لا يخالفها باسم، ولا برسم، ولا حقيقة، ولا شكل.

وعلى المتأهل أيضاً، أن لا يرى الدعوة في بلده نهاية المطاف منه لأتمته!! بل يجب، حسب وسعه، أن يتجاوز الحدود الجغرافية لبلده بالدعوة إلى الله وإقامة الإسلام في نفوس العباد فوق أي أرض وتحت أي سماء. ولكن هذا مشروط وإيم الله أن لا يخلي موقعه! فليتنبه لهذا الشرط، والله أعلم...

وعلى أهل العلم والإيمان من جماعة المسلمين، أهل السنة والجماعة، أن تجتمع رابطتهم على هذا، رابطة العلماء، قال الله **نعل**: ﴿وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل

وقد بين الله **نعم** هذا الأصل في أول سورة البقرة من قوله **نعم**: ﴿يَبْنِي إِسْرَءِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ٤٧]، إلى قوله قبل ذكر إبراهيم **عليه السلام**: ﴿يَبْنِي إِسْرَءِيلَ﴾ [البقرة: ١٢٢].
ويزيده وضوحاً ما صرحت به السنة في هذا من الكلام الكثير...

...

عمران: ١٠٤. والأمة هنا هي أمة العلماء الذين يصلح الله بهم عموم الأمة. وهم أهل الحل والعقد في الأمة، وهم الذين تطمئن إليهم النفوس، ويشعون أنوار التنزيل، ويدعون إلى الله. وتكون هذه الرابطة رداءً عن نشوء أحزاب وجماعات على جنبي الصراط المستقيم، لا على الصراط المستقيم، ولتتم تربية شباب الأمة وتحصينهم بالعلم الشرعي، النافع، من أصوله ومعاقله، وحتى لا يسلب الشباب من بين أيديهم، تحتضنهم الفرق وعوامل التغريب، وتقصف بهم الأهواء والضلالات، وتتخطفهم شياطين الإنس والجن. اهـ المراد.

قوله: ﴿وقد بين الله نعم هذا الأصل﴾ لما كان المتعين على الإنسان أخذ الدين من العلماء الذين هم من أهل العلم حقاً، والابتعاد عما تشبه بهم وهو ليس منهم في حقيقة الأمر، بين الله **نعم** في غير ما آية من كتابه صفات هؤلاء وسمات أئلك، ثم زاد لهذا بيانا ما ورد في غير ما حديث لرسول الله **ﷺ** في هذا الصدد.

ومن هذا الباب ما بينه الله **جمل وجمل** في الآيات المشار إليها أنفاً من سمات علماء السوء من بني إسرائيل. فإذا عرفها الإنسان أمكن له بتوفيق الله تجنب الاستفادة وأخذ دينه ممن تشبه بهم في هذه السمات، قال الشاعر:

عرفت الشر لا للشر لكن لتوقيه ومن لم يعرف الشر من الخير يقع فيه

ووراء معرفة سمات علماء السوء تجلية لصفات أهل العلم الذين هم أهله.

..

وقد افتتح المصنف إشارته إلى تلك الآيات بما ذكرهم الله **جل وعلا** به من النعم الكثيرة؛ فقال الله **تعالى**: ﴿يَبْنِي إِسْرَءِيلَ أَذْكَرُوا نِعْمَتِي الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ٤٧]. قال الحافظ ابن كثير **رحمه الله** في “تفسيره” (١/ ١٤٠): يذكرهم **تعالى** بسالف نعمه على آبائهم وأسلافهم، وما كان فضلهم به من إرسال الرسل منهم، وإنزال الكتب عليهم وعلى سائر الأمم من أهل زمانهم، كما قال **تعالى**: ﴿وَلَقَدْ اخْتَرْنَا لَهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [الدخان: ٣٢]، وقال **تعالى**: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَتَقَوَّمُ أَذْكَرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلْ فِيكُمْ أَنْبِيََاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَعَاقَبَكُمْ مَا لَمْ يَأْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ [المائدة: ٢٠]. اهـ.

فقد كان من بني إسرائيل من كان على علم أنعم الله به عليهم، يميزون به بين الحق والباطل، قال الله **سبحانه وتعالى** بعد الآية المتقدمة في سورة البقرة: ﴿وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ٥٣]. قال الإمام الطبري **رحمه الله** في “تفسيره” (١/ ٢٨٤): اذكر أيضا، إذ آتينا موسى الكتاب والفرقان. ويعني بالكتاب التوراة والفرقان الفصل بين الحق والباطل. اهـ.

ويدل على التفسير المذكور ما أفاد الإمام القرطبي **رحمه الله** في “الجامع الأحكام” (٢/ ١٠٨): إذ قال: ودليل هذا التأويل قوله **عز وجل**: ﴿ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٥٤]، أي: بين الحرام والحلال، والكفر والإيمان، والوعد والوعيد، وغير ذلك. اهـ.

ثم آل الأمر ببعض هؤلاء إلى السوء، وفي بيان ذلك ما قاله الله **سبحانه** في بعض الآيات بعد التي تقدم ذكرها في سورة البقرة.

وآخر هذه الآية واضح الدلالة على كون المذكورين فيها هم العلماء من بني إسرائيل. ويبيّنه ما قاله الإمام الطبري رحمته الله عقب ما تقدم: أخبر الله **جملتنا** أنهم فعلوا ما فعلوا من ذلك على علم منهم بتأويل ما حرفوا، وأنه بخلاف ما حرفوه

..

إليه؛ فقال: ﴿يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ﴾، يعني من بعد ما عقلوا تأويله ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾، أي: يعلمون أنهم في تحريفهم ما حرفوا من ذلك مبطلون، كاذبون. وذلك إخبار من الله **جل ثناؤه** عن إقدامهم على البهت. اهـ.

وبلغوا بهذه الفعلة القبيحة الغاية في السوء، قال العلامة السعدي **رحمه الله تعالى** في تفسير قوله **نبارك ونعالى**: ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾ **[النساء: ٤٦]**: فهذا حالهم في العلم أشر حال، قلبوا فيه الحقائق، ونزلوا الحق على الباطل، وجحدوا لذلك الحق. اهـ.

وفي الآية المتقدمة في سورة البقرة من العبرة ما أفاده شيخ الإسلام؛ حيث قال كما في “تفسيره” (١/ ٢٥١-٢٥٢): وهذا حال أهل البدع؛ فإنهم أحد رجلين:

إما رجل يحرف الكلم عن مواضعه، ويتكلم برأيه، ويؤوله بما يضيفه إلى الله، فهؤلاء يكتبون الكتاب بأيديهم، ويقولون: «هو من عند الله»، ويجعلون تلك المقالات التي ابتدعوها هي مقالة الحق، وهي التي جاء بها الرسول **ﷺ**، والتي كان عليها السلف، ونحو ذلك. ثم يحرفون النصوص التي تعارضها. فهؤلاء إذا تعمدوا ذلك، وعلموا أن الذي يفعلونه مخالف للرسول **ﷺ**، فهم من جنس هؤلاء اليهود. وهذا يوجد في كثير من الملاحدة، ويوجد في بعض الأشياء في غيرهم.

وأما الذين قصدهم اتباع الرسول **ﷺ** باطنا وظاهرا، وغلطوا في ما كتبوه، وتأولوه، فهؤلاء ليسوا من جنسهم. لكن قد وقع بسبب غلطهم ما هو من جنس ذلك الباطل، كما قيل: «إذا زل العالم زل بزلته عالم»، وهذا حال المتأولين من هذه الأمة. اهـ.

وما ورد من السنة في التحذير من الأخذ ممن يحرف الحق، ويخلطه بالباطل، ما أخرجه الإمام مسلم **رحمه الله تعالى** في **”صحيحه“** (١٢٤) - (٢٢٢٩) من حديث **رجل من أصحاب النبي ﷺ من الأنصار رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ**، أنهم بينما هم جلوس ليلة مع رسول **ﷺ** رمي بنجم، فاستنار. فقال لهم رسول الله **ﷺ**: **«ماذا كنتم تقولون في الجاهلية إذا رمي بمثل هذا؟»**. قالوا: الله ورسوله أعلم، كنا نقول: ولد الليلة رجل عظيم، ومات رجل عظيم. فقال رسول الله **ﷺ**: **«فإنها لا يرمى بها لموت أحد ولا لحياته، ولكن ربنا نبارك ونعالى اسمه** إذا قضى أمرا سبح حملة العرش، ثم سبح أهل السماء الذين يلونهم، حتى يبلغ التسبيح أهل هذه السماء الدنيا. ثم قال الذين يلون حملة العرش لحملة العرش: ماذا قال ربكم؟ فيخبرونهم ماذا قال». قال: **«فيستخبر بعض أهل السماوات بعضا حتى يبلغ الخبر هذه السماء الدنيا، فتخطف الجن السمع، فيقذفون إلى أوليائهم، ويرمون به. فما جاءوا به على وجهه فهو حق، ولكنهم يقرفون فيه، ويزيدون»**.

وهذا في معنى التحريف، وقد جاءت به الرواية صريحة في "سنن الترمذي" (٣٢٢٤): «ولكنهم يحرفونه، ويزيدون»، وقد صححها الإمام الألباني.

ثم وجدت بعد هذا الشيخ العثيمين قد استفاد من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الذي أخرجه الإمام البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ في "صحيحه" (٤٧٠١) بنحو معنى الحديث

..

الذي تقدم ما قال فيه في “القول المفيد” (٣١٧ / ١): أن الساحر يصور للمسحور غير الواقع، وفي هذا تحذير من أهل التمويه والتليس، وأنهم إن صدقوا في شيء فيجب الحذر منهم بكل حال. اهـ.

بكتما العلم:

من السمات المذمومة التي اتصف بها من تقدم ذكرهم ما يستفاد مما أخبر الله به عنهم بعد الآية المتقدمة؛ حيث قال **جل وجل**: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بِعَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٧٦].

ففي قول الله **تبارك وتعالى**: ﴿أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ إخباره **عز وجل** عنهم بإنكار البعض على البعض الآخر التحديث بما فتح الله عليهم من العلم، وهذا مقتضى للأمر بكتما العلم. وكان قد أوتي هؤلاء علما لقول الله **تعالى** في أول الآية التالية للمتقدمة: ﴿أَوْ لَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ [البقرة: ٧٧].

والسبب في الكتمان ما كانوا يخشونه في إظهار العلم من بيان حقيقة حالهم، فكتموا؛ لئلا يفتضحوا في زعمهم!

وفي ما ذكره الله **سبحانه وتعالى** في هذه الآية مادة للاعتبار، فقد قال شيخ الإسلام **رحمه الله** كما في “تفسيره” (٢٤٧ / ١): وقوله في صفة ألئك: ﴿أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ﴾ حال من يكتتم النصوص التي يحتج بها منازعه، حتى وإن منهم من يمنع من رواية الأحاديث المأثورة عن الرسول **ﷺ**. ولو أمكنهم كتمان القرآن لكتموه، لكنهم يكتمون من وجوه دلالاته من

..

العلوم المستنبطة منه، ويعوضون الناس عن ذلك بما يكتبونه بأيديهم، ويضيفونه إلى أنه من عند الله. اهـ.

وقد حذر النبي ﷺ أمته عن كتمان العلم أشد تحذير، فقد أخرج الإمام أبو داود رحمه الله في "سننه" (٣٦٥٨) ما قال فيه: **حرمنا** موسى بن إسماعيل، ناحما، أنا علي بن الحكم، عن عطاء، عن **أبي هريرة** **رضي الله عنه**، قال: قال رسول الله ﷺ: «من سئل عن علم فكتمه ألجمه الله بلجام من نار يوم القيامة».

وقد حسن الحديث الشيخ مقبل **رحمه الله تعالى** في "الجامع الصحيح" (٢٨). قال العلامة ابن رسلان في شرحه لـ "سنن أبي داود" (١٥/١٠٧-١٠٨) ما المراد منه: «ألجمه الله **تعالى** بلجام من نار يوم القيامة» في هذا بيان تعظيم تحريم كتمان العلم المحتاج إليه؛ فإن التحريم يزيد بزيادة الاحتياج كمن يرى رجلا حديث عهد بالإسلام، ولا يحسن الصلاة، وقد حضر وقتها، فيقول: علمني أصلي. ومقتضى هذا الحديث أن الكاتم للعلم يفعل به ما فعل بالناس في الدنيا، فكما ألجم نفسه في الدنيا بلجام السكوت يلجمه الله يوم القيامة بلجام من نار. اهـ.

وقال **رحمه الله** قبل ذلك (ص ١٠٦) في تقييد الحديث: فما كان من العلوم غير نافع في الدين جاز كتمه. لاسيما إن كان مع ذلك خوف؛ فإن ذلك أكد في الكتمان. فقد كتم أبو هريرة راوي الحديث حين خاف؛ فقال: «حفظت من رسول الله ﷺ وعاءين. فأما أحدهما فبثته، وأما الآخر فلو بثته لقطع هذا البلعوم»، أخرجه البخاري. اهـ المراد.

وفي هذا المعنى ما أفاده الحافظ في "فتح الباري" (١/٢٩٧-٢٩٨)؛ إذ قال ما المراد منه: ومن كره التحديث ببعض دون بعض أحمد في الأحاديث التي ظاهرها

..

الخروج على السلطان، ومالك في أحاديث الصفات، وأبو يوسف في الغرائب، ومن قبلهم أبو هريرة كما تقدم عنه في الجرايين، وأن المراد ما يقع من الفتن. اهـ.

به الرحمة إلى الضلال لنيل سحاح الدنيا:

وفي ذلك يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿قَوِيلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا قَوِيلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾ [البقرة: ٧٩]. وفي معنى الآية قال الإمام الطبري في “تفسيره” (٣٧٨ / ١): يعني بذلك **جمل نفاقه** الذين حرفوا كتاب الله من يهود بني إسرائيل، وكتبوا كتابا على ما تأولوه من تأويلاتهم مخالفا لما أنزل الله عز وجل على نبيه موسى عليه السلام، ثم باعوه من قوم لا علم لهم بها ولا بما في التوراة، جهال بما في كتب الله، طلب عرض من الدنيا خسيس؛ فقال الله تعالى **فكره** لهم: ﴿قَوِيلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾. اهـ.

وفي ما ذكره الله في هذه الآية من الاعتبار ما قال شيخ الإسلام **رحمه الله تعالى** كما في “تفسيره” (٢٤٨ / ١) في أحد نوعي أهل البدع الذين ذمهم الله ورسوله ﷺ: فالأولون يبتدعون ما يخالف كتاب الله، ويقولون: «هو من عند الله»، إما أحاديث مفتريات، وإما تفسير وتأويل للنصوص باطل. ويعضدون ذلك بما يدعونه من الرأي والعقل وقصدهم بذلك الرياسة والمأكَل، فهؤلاء يكتبون الكتاب بأيديهم؛ ليشتروا به ثمنا قليلا. فويل لهم مما كتبت أيديهم من الباطل وويل لهم مما يكسبون من المال على ذلك.

هؤلاء إذا عورضوا بنصوص الكتب الإلهية، وقيل لهم: «هذه تخالفكم»، حرفوا الكلم عن مواضعه بالتأويلات الفاسدة. اهـ المراد.

وإن لم تتأت لهم هذه التأويلات لجئوا إلى ما قاله الإمام ابن القيم في "الفوائد" (ص ١٤٦) مما المراد منه: وإن كان الحق ظاهراً، لا خفاء به، ولا شبهة فيه، أقدم على مخالفته، وقال: «لي مخرج بالتوبة». وفي هؤلاء وأشباههم قال **نصاً**: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهْوَاتِ﴾ [مريم: ٥٩].

بِهٖ اِنْكَارِ مَا كَانَا مَعْرُوفًا لِّرَبِّهِمْ سَابِقًا:

ومن تلك السمات المذمومة المتصف بها من تقدم ذكره ما يستفاد مما أخبر الله به عنهم من إنكارهم ما كان معروفا لديهم سابقا، قال الله **عز وجل**: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٠١].

وفي معنى هذه الآية قال الإمام ابن جرير في "تفسيره" (١/٤٤٣-٤٤٤):
 كأن هؤلاء الذين نبذوا كتاب الله من علماء اليهود، فنقضوا عهد الله بتركهم

..

العمل بما واثقوا الله على أنفسهم العمل بما فيه، لا يعلمون ما في التوراة من الأمر باتباع محمد ﷺ وتصديقه. وهذا من الله **بملة نازله** إخبار عنهم أنهم جحدوا الحق على علم منهم به ومعرفة، وأنهم عاندوا أمر الله، فخالفوه على علم منهم بوجوبه عليهم. اهـ.

وهذا نذير شر في حق من هذه حاله من علماء السوء، وسبب لذهاب ما في قلوبهم من العلم، ومانع من الاستفادة لعلم جديد، فقد أخرج الإمام مسلم في ”صحيحه“ (٢٣١) - (١٤٤) من حديث **حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ**، أنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «تعرض الفتن على القلوب كالحصير عودا عودا، فأى قلب أشربها نكت فيه نكتة سوداء، وأى قلب أنكرها نكت فيه نكتة بيضاء، حتى تصير على قلوبين، على أبيض مثل الصفا، فلا تضره فتنة ما دامت السماوات والأرض، والآخرة أسود مربادا كالكوز مجخيا، لا يعرف معروفا، ولا ينكر منكرا، إلا ما أشرب من هواه...» الحديث.

قال الإمام النووي في شرح الحديث في ”المنهاج“ (١٥١ / ٢): وقال صاحب ”التحرير“: معنى الحديث أن الرجل إذا تبع هواه، وارتكب المعاصي، دخل قلبه بكل معصية يتعاطاها ظلمة. وإذا صار كذلك افتتن، وزال عنه نور الإسلام. والقلب مثل الكوز، فإذا انكب انصب ما فيه، ولم يدخله شيء بعد ذلك. اهـ.

فإذا كان هذا حال من لا يعرف المعروف، اللهم! إلا ما يوافق هواه، كما نص عليه الحديث، فمن كان منكرا للمعروف الذي كان يعرفه سابقا أولى بالتصاف بها! فلا يوفق علماء السوء للاستفادة للعلم النافع بعد إنكارهم للحق الذي كانوا يعرفونه. بل يعاقبون بتعلم ما يضرهم، قال الحافظ ابن كثير في تفسيره للآية المتقدمة (١ / ١٩٨): أي: طرح طائفة منهم كتاب الله الذي بأيديهم مما فيه البشارة

البين، الواضح، للعامي البليد.

ثم صار هذا أغرب الأشياء، وصار العلم والفقّه هو البدع والضلالات.

...

بمحمد ﷺ وراء ظهورهم، أي: تركوها، كأنهم لا يعلمون ما فيها. وأقبلوا على تعلم السحر واتباعه. اهـ.

ولذلك قال الله سبحانه وتعالى في الآية التالية: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكٍ سُلَيْمَنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَنُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ﴾ إلى قوله: ﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ﴾ [البقرة: ١٠٢].

وفي هذا عبرة لمن شابه هؤلاء في هذه الصفة القبيحة حذرا من أن يصرف عن العلم النافع إلى تعلم ما يضره! وفي هذا المعنى ما أخرج الإمام الترمذي رحمه الله في "السنن" (٣٢٥٣)؛ حيث قال: **سمرنا** عبد بن حميد، قال: ثنا محمد بن بشر العبدي ويعلى بن عبيد، عن حجاج بن دينار، عن أبي غالب، عن **أبي أمامة** رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل»، ثم تلا رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ [الزخرف: ٥٨].

وقد ذكر هذا الحديث الشيخ مقبل رحمه الله في "الجامع الصحيح" (١١٦).

قوله: «صار العلم والفقّه هو البدع والضلالات» قال الإمام ابن القيم رحمه الله

في "الفوائد" (ص ١٤٥-١٤٦): كل من آثر الدنيا من أهل العلم، واستحبها، فلا بد أن يقول على الله غير الحق في فتواه وحكمه، في خبره وإلزامه؛ لأن أحكام الرب سبحانه كثيرا ما تأتي على خلاف أغراض الناس. ولا سيما أهل الرياسة والذين يتبعون الشهوات؛ فإنهم لا تتم لهم أغراضهم إلا بمخالفة الحق ودفعه كثيرا.

..

فإذا كان العالم والحاكم محبا للرياسة، متبعا للشهوات، لم يتم له ذلك إلا بدفع ما يضاده من الحق. لاسيما إذا قامت له شبهة، فتتفق الشبهة والشهوة، ويثور الهوى، فيخفى الصواب، وينطمس وجه الحق! اهـ المراد.

وقال **رمه (عليه السلام)** بعد ذلك بقليل: هؤلاء لابد أن يبتدعوا في الدين مع الفجور في العمل، فيجتمع لهم الأمران؛ فإن اتباع الهوى يعمي عين القلب، فلا يميز بين السنة والبدعة، أو ينكسه فيرى البدعة سنة والسنة بدعة. فهذه آفة العلماء إذا أثروا الدنيا، واتبعوا الرئاسات والشهوات. وهذه الآيات فيهم إلى قوله: ﴿وَأَنزَلَ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي ءَاتَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ (١٧٥) وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمَلَ عَلَيْهِ يَلْهَثُ ﴿[الأعراف]. اهـ.

في كلام هذا الإمام ما يبين سبب تنكيس الحقائق لدى هؤلاء، فيصير العلم والحق لديهم ولدى متبعيهم بدعة وضلالة، والبدعة والضلالة علما وفقها! قال الشيخ عبد السلام بن برجس **رمه (عليه السلام)** في شرحه لـ ”الأصول الستة“ (ص ٩٦): فأصبح الناس لا يرجعون إلى كتاب الله ورسوله ﷺ، ولكن يرجعون إلى كتب أهل الضلال ككتب الكثير من غلاة الصوفية ممن أضلهم الله على علم فيوحون إلى متبعيهم أن الخرافات، والشركيات، والبدع، هي الحق. اهـ.

قال العلامة الفوزان في شرحه لـ ”الأصول الستة“ (ص ٤١): وصار العلم عندهم «قال فلان»، و«قال فلان»، وحكايات كقولهم: «إن القبر الفلاني ينفع من كذا»، و«إن البقعة الفلانية رأى فيها فلان في المنام كذا»، هذا علم هؤلاء. اهـ.

وفي هذا المعنى ما قاله العلامة الشوكاني في ”أدب الطلب“ (ص ٥٢-٥٣): فقبح الله أهل البدع، وقلل عددهم، وأراح منهم؛ فإنهم أضروا على الشريعة من كل

وخيار ما عندهم لبس الحق بالباطل، وصار العلم الذي فرضه الله **نعال** على الخلق، ومدحه، لا يتفوه به إلا زنديق، أو مجنون.

...

شيء. قد شغلوا أنفسهم بمسائل معروفة، هي رأس مذهبهم وأساسه، وتركوا ما عدا ذلك، وعابوه، وعادوا أهله.

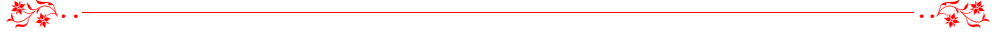
انظر الرافضة، فإنك تجد أكثر ما لديهم وأعظم ما يشتغلون به، ويكتبونه، ويحفظونه، مثالب الصحابة **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ** المكذوبة عليهم؛ ليتوصلوا بذلك إلى ما هو غاية ما لديهم من السب والثلب لهم -صانهم الله، وكبت مبغضهم-.

ثم يعتبرون الناس جميعاً بهذه المسألة، فمن وافقهم فيها فهو المسلم حقاً المحق، وإن فعل ما فعل. ومن خالفهم في هذه المسألة فهو المبطل، المبتدع، وإن كان على جانب من الورع وحظ من التقوى، لا يغادر قدرهما. اهـ.

قوله: ﴿لبس الحق بالباطل﴾ في ما تقدم بيانه من سمات علماء السوء ما يكفي في بيان هذا المعنى.

قوله: ﴿صار العلم الذي فرضه الله﴾ قال الشيخ بكر أبو زيد **رحمته الله** في "التعالم" (ص ٥١-٥٢) نقلاً من "الكفاية" للخطيب: ... حتى ذم الحديث وأهله بعض من ارتسم بالفتوى في الدين، ورأى عند إعجابه بنفسه أنه أحد الأئمة المجتهدين بصدوفه عن الآثار إلى الرأي المردول، وتحكمه في الدين برأيه المعلول. وذلك منه غاية الجهل ونهاية التقصير عن مرتبة الفضل.

ينتسب إلى قوم تهيؤوا كد الطلب ومعاناة ما فيه من المشقة والنصب، وأعيتهم الأحاديث أن يحفظوها، واختلفت عليهم الأسانيد فلم يضبطوها... فجانبوا ما استثقلوا، وعادوا ما جهلوا، وآثروا الدعة، واستلذوا الراحة.



ثم تصدروا في المجالس قبل الحين الذي يستحقونه، وأخذوا أنفسهم بالطعن على العلم الذي لا يحسنونه.

إن تعاطى أحدهم رواية حديث فمن صحف ابتاعها، كفي مؤنة جمعها من غير سماع لها ولا معرفة بحال ناقلها، وإن حفظ شيئاً منها خلط الغث بالسمين، وألحق الصحيح بالسقيم. وإن قلب عليه إسناد خبر، أو سئل عن علة تتعلق بأثر، تحير، واختلط، وعبث بلحيته، وامتحط، تورية عن مستور جهالته، فهو كالحمار في طاحونته.

ثم رأى ممن يحفظ الحديث، ويعانيه، ما ليس في وسعه الجريان فيه، فلجأ إلى الازدراء بفرسانه، واعتصم بالطعن على الراكضين في ميدانه، كما **أخبرنا** أبو بكر محمد بن عمر بن جعفر الخرقى، أنا أحمد بن جعفر بن محمد بن سلم الختلي، قال: ثنا أبو العباس أحمد بن علي الأبار، قال: رأيت بالأهواز رجلاً حف شاربه، وأظنه قد اشترى كتباً، وتعباً للفتيا، فذكروا أصحاب الحديث، فقال: ليسوا بشيء، وليس يسوون شيئاً. فقلت له: أنت لا تحسن تصلي. قال: أنا؟ قلت: نعم. قلت: إيش تحفظ عن رسول الله ﷺ إذا افتتحت الصلاة، ورفعت يديك؟ فسكت. فقلت: وإيش تحفظ عن رسول الله ﷺ إذا وضعت يديك على ركبتك؟ فسكت. قلت: إيش تحفظ عن رسول الله ﷺ إذا سجدت؟ فسكت. قلت: ما لك لا تتكلم؟ ألم أقل لك: إنك لا تحسن تصلي؟ أنت إنما قيل لك: تصلي الغداة ركعتين، والظهر أربعاً، فالزم ذا خير لك من أن تذكر أصحاب الحديث. فلست بشيء، ولا تحسن شيئاً!

فهذا المذكور مثله في الفقهاء كمثله من تقدم ذكرنا له ممن انتسب إلى الحديث، ولم يعلق به منه غير سماعه وكتبه، دون نظره في أنواع علمه. اهـ.

قال أبو عبد الله: وإسناد الأثر المذكور حسن من أجل الخرقى، قال الخطيب في "تاريخه" (٤/ ٦٢): كان صدوقاً. اهـ.

بعض فكتة في بيان غاية جهل بعض المتشبهين بالعلماء:

بل قد ينسب بعض المتشبهين بالعلماء وهم ليسوا منهم من تمسك بالسنة إلى الردة! ومن ذلك ما حكاه الإمام الشوكاني في **“أدب الطلب”** (ص ٥٣-٥٤)؛ إذ قال: ومما أحكيه لك أني أدركت في أوائل أيام طلبي رجلا يقال له: «الفقيه صالح النهمي» قد اشتهر في الناس بالعلم والزهد. وطلب علوم الاجتهاد طلبا قويا، فأدركها إدراكا جيدا. فرفع يديه في بعض الصلوات، ورآه يفعل ذلك بعض المدرسين في علم الفقه، المشهورين بالتحقيق فيه والإتقان له، فقال: «اليوم ارتد الفقيه صالح»!

فانظر هذه الكلمة من مثل هذا مع شهرته في الناس، واجتماع كثير من طلبة علم الفروع عليه في جامع صنعاء، وشيبه الناصع، وثيابه الحسنة، كيف موقعها في قلوب العامة؟! وما تراهم يعتقدون في الفاعل لذلك بعد هذا؟

فأبعد الله هذا عالما، وذهب بهذا علما!! وإن كان لا عالم ولا علم؛ فإن من يعقل الحجة، ولا يفهم إلا مجرد الرأي، لا الرواية، ليس من العلم في شيء، ولا يستحق الدخول في باب من أبوابه، ولا ينبغي وصفه بشيء من صفاته. فيا هذا! - لا حياك الله - أ يكون فعل سنة الرفع التي اجتمع على روايتها عن رسول الله ﷺ العشرة المبشرة بالجنة، ومعهم زيادة على أربعين صحابيا، ردة، وكفرا، وخروجا من الملة الإسلامية؟! أتدري ما صنعت بنفسك يا جاهل؟! عمدت إلى سنة من السنن الثابتة ثبوتا متواترا فتركتها.

..

ولم تقنع لمجرد إنكار ثبوتها، بل جاوزت ذلك إلى أن جعلتها ردة، فجئيت على صاحب الشريعة أولاً، ثم على كل مسلم يفعل هذه السنة ثانياً، ثم على نفسك ثالثاً، فخبثت، وخسرت، وخبطت خبطاً ليس من شأن من هو مثلك من أسراء التقليد وأتباع التعصب، وكفرت عالماً من علماء المسلمين يفعل سنة من سنن سيد المرسلين.

فما بالك وهذا وأنت تعترف على نفسك أنك لا تعرف الحق، ولا تعقل الصواب في مسائل الطهارة، والتخلي، والوضوء، والصلاة؟! فكيف قمت ههنا مقام تكفير المسلمين والحكم عليهم بصريح الردة جازماً بذلك، متحدثاً به، مطمئناً إليه. اهـ المراد.

بما يستحقه من نكير فذكرهم من المتنبهين بالعلماء:

قال العلامة الشوكاني رحمة الله عقب ما تقدم: فما أوجب إنكار مثل هذا المنكر على أئمة المسلمين وأولي الأمر منهم؛ فإن التنكيل بهذا المتكلم بمثل هذا الكلام بالحبس وسائر أنواع التعزير التي تردعه، وتردع أمثاله من أهل التعصب عن انتهاك أعراض المسلمين والتلاعب بعلماء الدين، من أعظم ما يتقرب به المتقربون وأفضل ما يفعله من ولاء الله من أمر عباده شيئاً. فإن غالب ما يصدر من هؤلاء المتعصبة من تمزق أعراض علماء الدين المتمسكين بالسنن الصحيحة، الثابتة في هذه الشريعة، هو راجع إلى الطعن على الشريعة، الرد لما جاءت به، وتقليب السنن بدعاً والبدع سنناً.

والأخذ على أيدي هؤلاء حتى يدعوا ما ليس من شأنهم، ويقلعوا عن غوايتهم، ويقصروا عن ضلالهم، واجب على كل مسلم. اهـ.

وصار من أنكره، وعاداه، وصنف في التحذير منه والنهي عنه، هو الفقيه العالم.

...

قوله: «وصنف في التحذير منه والنهي عنه هو الفقيه» قال الشيخ الفوزان في شرحه على "الأصول الستة" (ص ٤٢): من صنف في التحذير من العلم النافع، ومدح العلم المذموم، ونشره في الناس، يقولون عنه: «هذا هو الفقيه»، «هذا هو العالم». اهـ المراد.

به السر وراء أفكار المتشبهين بالعلماء للعلم النافع وأهله:

قال الحافظ ابن عبد البر رحمته الله في "جامع بيان العلم" (٢/ ٢٨٨) أثناء كلامه على تعصب بعضهم للمذهب المالكي: جهلا فيهم، وقلة نصح، [و]خوفا من أن يطلع الطالب على ما هم فيه من النقص والقصر، فيزهد فيهم. وهم مع ما وصفنا يعيرون من خالفهم، ويغتابونه، ويتجاوزون القصد في ذمه؛ ليوهموا السامع لهم أنهم على حق، وأنهم أولى باسم العلم. اهـ المراد.



..

خاتمة في هذا الأصل

ثم نختم الكلام على هذا الأصل بما يبين أهميته في إقامة الأصول المتقدمة، وذلك ما أفاده الشيخ بكر أبو زيد في "حكم الانتماء" (ص ٤١)؛ إذ قال: وتأمل سرا عظيما من أن ترقى الأمة، أو انحطاطها، وانضباطها، أو فشلها، يتول إلى ركن ركين وأصل أصيل قوة، أو ضعفا، اجتماعا، أو تفريقا، إلى رابطة العلماء ولما يقوم بهم من احتساب يصغر دونه الاكتساب.

واجعل نظرك إلى مدى قيام رابطة العلماء مقياسا تقيس به الدول، وتزن به الأمم، في من غير، وحضر. والعالم العدل هو المحتسب الذي لا يحترف بالإسلام، ولا تشنيه الأطماع. وهذا الواجب هو الذي من أجله سميت هذه الأمة خير أمة، ومن أجله صاروا أمة وسطا، وصاروا شهداء على الناس.

هذا هو المتعين على العالم المتأهل، تفاعل مع الدعوة، وقيام بها، وأن تكون دائرة همه وتفكيره، فلا يهمله إلا همها، ولا يفكر إلا بسبيلها، طلبا لبناء الأمة في غربتها الثانية بناء وتأسيسا على منهاج النبوة على يد علماء الأمة العاملين من التربية والتوجيه، والتعليم والإرشاد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، شعورا بهذا الواجب، وأداء له، وإقامة للحجة على الخلق، وحفظا لرأس المال، المسلمين، وطلبا للربح. اهـ المراد.

وفي تبليغ العالم ما فتح الله سبحانه وتعالى عليه من العلم النافع وجلوس من وفق للحضور عنده خير عظيم، تنتفع به الأمة في دينها ودنياها. وفي هذا الباب ما أخرجه الإمام الدارمي رحمه الله بإسناد صحيح في "سننه" (٩٩)؛ فقال: **أخبرنا** أبو المغيرة، قال: ثنا الأوزاعي، عن يونس بن يزيد، عن الزهري، قال: كان من مضى

❁ ❁ .. ❁ ❁ ..

من علمائنا يقولون: الاعتصام بالسنة نجاة، والعلم يقبض قبضا سريعا، فنعش العلم ثبات الدين والدنيا، وفي ذهاب العلم ذهاب ذلك كله. اهـ.

وقال الشيخ أبو زيد عقب ما تقدم في ما يبين ضرر إهمال العلماء لما أوجبه الله عليهم من التبليغ: أما أن يتولى أهل العلم عن مهمتهم في موقع الحراسة لدين الله، ويتأخرون عن مواجهات عصرهم، فهذا من "التولي يوم الزحف"، وهو إذعان وتسليم لأغلى ثرواتهم المادية، نسلهم، وقوام أمتهم ودينهم، إلى من يوجههم بالوجهة العقدية والسلوكية على غير منهاج جماعة المسلمين، أهل السنة والجماعة، التي لا يرضونها. بل لا يرضاها الله، ولا رسوله، ولا المؤمنون. وهل بعد هذا من معصية وتفريط؟! ثم هل بعده من خسارة وإخسار؟!

وهذا الواجب على العالم المتأهل كل مسلم يؤمن بأنه لا يخلو منه زمان في ظل الطائفة المنصورة والفرقة الناجية. اهـ المراد.



الأصل الخامس

الأصل الخامس: بيان الله سبحانه لأوليائه الله...

..

قوله: «بيان الله سبحانه لأوليائه الله» ومعرفة أولياء الله **عز وجل** والتمييز بينهم وبين غيرهم مهم؛ إذ لا يتوصل لما أوجبه الله من موالاة عباده المؤمنين إلا بذلك. قال شيخ الإسلام في “رفع الملام” (ص ١١): فيجب على المسلمين بعد موالاة الله **تعالى** ورسوله **ﷺ** موالاة المؤمنين كما نطق به القرآن، خصوصاً العلماء الذين هم ورثة الأنبياء، الذين جعلهم الله بمنزلة النجوم يهتدى بهم في ظلمات البر والبحر. اهـ.

في المناسبة بين هذا الأصل وبين المنقصر:

وفي كلام شيخ الإسلام السابق الذكر ما يستفاد منه المناسبة بين هذا الأصل وبين الأصل المتقدم. ويوضح ذلك ما قاله في “مجموعة الفتاوى” (١١ / ٤٣٤ - ٤٣٥) مما المراد منه: فإن أهل الكتابين لبسوا الحق بالباطل، وهذا هو التبديل والتحريف الذي وقع في دينهم، ولهذا يتغير الدين بالتبديل تارة، وبالنسخ أخرى. وهذا الدين لا ينسخ أبداً، لكن يكون فيه من يدخل من التحريف، والتبديل، والكذب، والكتمان، ما يلبس به الحق بالباطل.

ولا بد أن يقيم الله فيه من تقوم به الحجة خلفاً عن الرسل، فينفون عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين، فيحق الله الحق، ويبطل الباطل، ولو

وتفريقه بينهم وبين المتشبهين بهم من أعداء الله، والمنافقين، والفجار.

...

كره المشركون. فالكتب المنزلة من السماء والأثارة من العلم الماثورة عن خاتم الأنبياء يميز الله بها الحق من الباطل، ويحكم بين الناس في ما اختلفوا فيه. اهـ.

قوله: ﴿وتفريقه بينهم وبين المتشبهين بهم﴾ قال الشيخ ابن برجس في شرحه لـ "الأصول الستة" (ص ١١٥): عقد الشيخ هذا الأصل؛ لأن أكثر ضلال الناس جاء من قبيل وضع بعض الصالحين، أو المجاهدين، في غير موضعهم، ويدعون لهذا الولي حقوقا، وربما عبده من دون الله **تعالى**. فأراد المؤلف أن يبين هذا الأصل؛ لأن أكثر تعلق الناس بالشرك إنما جاء من قبيل التعلق بالأولياء. اهـ.

هذا سبب، وهناك آخر، وهو ما قال فيه الشيخ الفوزان في شرحه لـ "الأصول الستة" (ص ٤٣): هذا أصل عظيم، وهو التفريق بين أولياء الله وأولياء الشيطان؛ لأن أهل الباطل صاروا يسمون أولياء الشيطان أولياء الله، حتى إن هذا الأمر التبس على الناس. اهـ.

سبب التباس أولياء الله بغيرهم والمزيج له:

وقد يلتبس الأمر في التفريق بين أولياء الله وبين من ليس منهم لما يتظاهر به المتشبهون بهم من الخوارج، فيعتقدونها من لا يعرف حقيقة الأمر كرامات الأولياء. قال الإمام محمد الأمير في "تطهير الاعتقاد" (ص ١١٥-١١٧): ذكر ابن تيمية في كتابه "الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان" أنه يعرف من تخاطبه النبات بما فيها من المنافع، وإنما تخاطبه الشياطين التي دخلت فيها.

قال: أعرف من تخاطبه الحجر والشجر، وتقول: «هنيئا لك يا ولي الله»، ويقرأ آية الكرسي فيذهب ذلك.

..

قال: أعرف من يقصد صيد الطير، فتخاطبه العصافير، وتقول: «صدني حتى يأكلني الفقراء»، ويكون الشيطان قد دخل فيها كما يدخل في الإنسي، ويخاطبه بذلك.

ومنهم من يكون في البيت مغلقا عليه، فيرى نفسه خارجه، وبالعكس، وهو لم يفتح، وكذلك في أبواب المدينة. وتكون الجن قد أدخلته، وأخرجته، بسرعة، ويروونه أنوارا، ويحضر عنده من طلبه، ويكون ذلك من الشياطين يتصورون بصورة صاحبه.

قال: وأعرف من يخاطبه مخاطب، ويقول: «أنا من أمر الله»، ويعده أنه المهدي الذي بشر به النبي ﷺ، ويظهر له الخوارق مثل أن يخطر بقلبه تصرف في الطير والجراد في الهواء والمواشي. فإذا خطر بقلبه ذهاب الطير والجراد يمينا وشمالا، ذهب حيث أراد. وإذا خطر بقلبه قيام بعض المواشي، أو نومه، أو ذهابه، حصل ما أراد من غير حركة منه في الظاهر، وتحمله إلى مكة، وتأتي به، وتأتيه بأشخاص في صور جميلة، وتقول له: «هذه الملائكة الكروبيون أرادوا زيارتك»، فيقول في نفسه: كيف تصوروا بصورة المردان، فيرفع رأسه فيجدهم بلحي. وكله من مكر الشيطان.

وهذا باب لو ذكرت ما أعرف منه لاحتاج إلى مجلد كبير، وقد قال **نعمان**: ﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهْنَنِ ﴿١٦﴾﴾، قال الله **نعمان**: ﴿كَلَّا ﴿١٧﴾﴾ زحر وتنبه على أنه ليس كل من حصلت له [نعمة] دنيوية تعد كرامة، وأن الله أكرمه بها، ولا كل من قدر عليه رزقه يكون مهينا له بذلك. بل هو سبحانه يبتلي عبده بالسراء والضراء، فقد يعطي النعم الدنيوية من لا يحبه، ولا هو كريم عنده؛

وأيضاً، كرامات الأولياء لا بد أن يكون سببها الإيمان والتقوى. فما كان سببه الكفر، والفسوق، والعصيان، فهو من خوارق أعداء الله، لا من كرامات أوليائه، فهذه كلها أحوال شيطانية، وهو ممن يتناوله قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقِيضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ (٣٦) وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّوهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ ﴿٣٨﴾ [الزخرف].

ثم بين رحمه الله تعالى الميزان في التفريق بين أولياء الله وبين من تشبه بهم وليس منهم؛ فقال (ص ١٢١-١٢٢): والأحوال الشيطانية لا تنحصر، وكفى بما يأتي به الدجال، والمعيار [اتباع] الكتاب والسنة ومخالفتها. اهـ.

قوله: {ويكفي في هذا} قال الشيخ العثيمين في شرحه لـ "الأصول الستة" (ص ١٠١): نصيحتي لإخواني المسلمين أن لا يعترضوا بمدعي الولاية حتى يقيسوا حاله بما جاء في النصوص في أوصاف الأولياء. وقد أشار الشيخ رحمه الله إلى علامة محبة الله وولايته بما ساقه من الآيات. اهـ.

آية في آل عمران، هي قوله: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١]،...

بعض أول صفات الأولياء (الله) محبته لهم ومحبته لهم:

والنكتة في ابتداء المصنف بذلك في ذكر أوصاف أولياء الله تعالى ما بين الموالاة والمحبة من التبعية؛ فإن المحبة متى وجدت تبعها الموالاة، قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ﴾ [المتحنة: ١]. والمودة المحبة، قال الإمام ابن فارس رحمه الله في أصل مادة «ود» في “المقاييس”: الواو والdal كلمة تدل على محبة، وددته أحببته. اهـ المراد.

وقال الإمام السعدي رحمه الله في “تفسيره” للآية المتقدمة: فلا تتخذوا عدو الله ﴿وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ﴾، أي: تسارعون في مودتهم وفي السعي بأسبابها؛ فإن المودة إذا حصلت تبعها النصرة والموالاة. اهـ المراد.

قوله: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ قال الإمام ابن القيم في “المدارج” (٣/ ٤٣٤-٤٣٥): لما كثر المدعون للمحبة طولبوا بإقامة البيئة على صحة الدعوى، فلو يعطى الناس بدعواهم لادعى الخلي حرقه الشجي. فتنوع المدعون في الشهود فقل: لا تقبل هذه الدعوى إلا بيينة ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١]، فتأخر الخلق كلهم. وثبت أتباع الحبيب في أفعاله، وأقواله، وأخلاقه، فطولبوا بعدالة البيئة بتزكية ﴿يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾ [المائدة: ٥٤]، فتأخر أكثر المحبين.

...

وقام المجاهدون فقيل لهم: إن نفوس المحبين وأموالهم ليست لهم، فهلّموا إلى بيعة ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ﴾ [التوبة: ١١١].

فلما عرفوا عظمة المشتري، وفضل الثمن، وجلالة من جرى على يديه عقد التبايع، عرفوا قدر السلعة، وأن لها شأنًا. فرأوا من أعظم الغبن أن يبيعوها لغيره بثمان بخس. فعقدوا معه بيعة الرضوان بالتراضي من غير ثبوت خيار، وقالوا: والله لا نقيلك، ولا نستقيلك.

فلما تم العقد، وسلموا المبيع، قيل لهم: مذ صارت نفوسكم وأموالكم لنا رددناها عليكم أوفر ما كانت وأضعافها معاً، ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [١٦٩] فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ. ﴿آل عمران﴾.

إذا غرست شجرة المحبة في القلب، وسقيت بماء الإخلاص ومتابعة الحبيب، أثمرت أنواع الثمار، وآتت أكلها كل حين بإذن ربها. أصلها ثابت في قرار القلب، وفرعها متصل بسدره المنتهى. لا يزال سعي المحب صاعداً إلى حبيبه، لا يحجبه دونه شيء، ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر: ١٠]. اهـ.

بسم محبة العبد لربه:

في ما تقدم ما يبين عظم شأن وصف أولياء الله بمحبتهم له **عز وجل**. وفي تقرير هذا المعنى ما قاله الإمام ابن القيم **رحمه الله** في "المدارج" (١/٢٠٣-٢٠٤): فأصل العبادة محبة الله.

..

بل إفراده بالمحبة، وأن يكون الحب كله لله، فلا يجب معه سواه. وإنما يجب لأجله وفيه كما يجب أنبياءه، ورسله، وملائكته، وأوليائه، فمحبتنا لهم من تمام محبته، وليست محبة معه كمحبة من يتخذ من دون الله أندادا يحبونهم كحبه. وإذا كانت المحبة له هي حقيقة عبوديته وسرها فهي إنما تتحقق باتباع أمره واجتناب نهيه. فعند اتباع الأمر واجتناب النهي تتبين حقيقة العبودية والمحبة. ولهذا جعل **نعم** اتباع رسوله علما عليها، وشاهدا لمن ادعاها، فقال **نعم**: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١]، فجعل اتباع رسوله **نعم** مشروطا بمحبتهم لله وشرطا لمحبة الله لهم.

ووجود المشروط ممتنع بدون وجود شرطه وتحققه بتحقيقه، فعلم انتفاء المحبة عند انتفاء المتابعة. فانتفاء محبتهم لله لازم لانتفاء المتابعة لرسوله، وانتفاء المتابعة ملزوم لانتفاء محبة الله لهم.

فيستحيل إذا ثبوت محبتهم لله وثبوت محبة الله لهم بدون المتابعة لرسوله. ودل على أن متابعة الرسول **نعم** هي حب الله ورسوله وطاعة أمره. اهـ المراد.

وأفاد شيخ الإسلام في ”مجموعة الفتاوى“ (٧/ ٣٦٠-٣٦١) أثناء كلامه على هذه الآية ما قال فيه: فكل من ادعى أنه يحب الله، ولم يتبع الرسول، فقد كذب، ليست محبته لله وحده! بل إن كان يحبه فهي محبة شرك؛ فإنما يتبع ما يهواه كدعوى اليهود والنصارى محبة الله، فإنهم لو أخلصوا له المحبة لم يحبوا إلا ما أحب، فكانوا يتبعون الرسول. فلما أحبوا ما أبغض الله مع دعواهم حبه كانت محبتهم من جنس محبة المشركين. وهكذا أهل البدع، فمن قال: «إنه من المريدين لله، المحبين له»، وهو لا يقصد اتباع الرسول، والعمل بما أمر به، وترك ما نهى عنه، فمحبته فيها شوب من محبة المشركين، واليهود، والنصارى، بحسب ما فيه من البدعة. اهـ.

..

وفي ما تقدم ما يبين مراد المصنف بذكر هذه الآية؛ فإن فيها ردا على من أضل سبيلا ممن يدعي محبة الله، ويزعم الموالاة لله **بملا وملا**، وهو تارك لاتباع رسول الله ﷺ. قال ابن القيم **رحمه الله تعالى** كما في "تفسيره" (١/ ٢٢٩): فالطاعة للمحسوب عنوان محبته، كما قيل:

تعصي الإله وأنت تزعم حبه هذا محال في القياس بديع
لو كان حبك صادقا لأطعته إن المحب لمن يحب مطيع

وقد قال غير واحد من السلف: ادعى قوم محبة الله **تعالى** فأنزل الله **تعالى** ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١]. فلم يقل: «فارقصوا، وغنوا، واطربوا، على صوت المزامير، والشبابات، والألحان، المطربات بالتوقعات والنعيمات». فمن أضل سبيلا ممن يدعي محبة الله، ويزعم أنه يتقرب إليه بهذا السماع الشيطاني الذي هو حظ النفس والشيطان. اهـ.

به كل فوج ووجهر لا تنهر له الشريعة فهوى:

والقاعدة الشاملة لما تقدم ذكره ونظيره من الضلالات ما قاله شيخ الإسلام في "الاستقامة" (١/ ٢٥٣-٢٥٤): وقال في الآية الأخرى: ﴿فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ﴾ [القصص: ٥٠]. فكل من اتبع ذوقا، أو وجدا، بغير هدى من الله، سواء كان ذلك عن حب، أو بغض... فليس لأحد أن يتبع ما يحبه، فيأمر به، ويتخذه ديناً، وينهى عما يبغضه، ويذمه، ويتخذ ذلك ديناً، إلا بهدى من الله، وهو شريعة الله التي جعل عليها رسوله.

..

ومن اتبع ما يهواه حبا وبغضا بغير الشريعة فقد اتبع هواه بغير هدى من الله، ولهذا كان السلف [يعدون] كل من خرج عن الشريعة في شيء من الدين من أهل الأهواء.

ويجعلون أهل البدع هم أهل الأهواء، ويذمونهم بذلك، ويأمرون بألا يغتر بهم، ولو أظهروا ما أظهروه من العلم، والكلام، والحجاج، أو العبادة والأحوال مثل المكاشفات وخرق العادات. اهـ.

وقال **رحمه الله تعالى** في تأصيل المسألة (ص ٢٥٥-٢٥٦): وهذا أصل عظيم من أصول سبيل الله وطريقه، يجب الاعتناء به. وذلك أن كثيرا من الأفعال قد يكون مباحا في الشريعة، أو مكروها، أو متنازعا في إباحته وكراهته، وربما كان محرما، أو متنازعا في تحريمه، فتستحبه طائفة من الناس. يفعلونه على أنه حسن، مستحب، ودين، وطريق يتقربون به، حتى يعدون من يفعل ذلك أفضل ممن لا يفعله، وربما جعلوا ذلك من لوازم طريقتهم إلى الله، أو جعلوه شعار الصالحين وأولياء الله، ويكون ذلك خطأ، وضلالا، وابتداع دين لم يأذن به الله. اهـ.

بـ محبة الله لعبده:

قال العلامة ابن القيم **رحمه الله** كما في “تفسيره” (١/ ٢٢٩): وقوله: ﴿يُحِبُّكُمْ اللَّهُ﴾ إشارة إلى دليل المحبة، وثمرتها، وفائدتها. فدليلها وعلامتها اتباع الرسول، وفائدتها وثمرتها محبة المرسل لكم. فما لم تحصل المتابعة فليست محبتكم حاصلة، ومحبه لكم منتفية. اهـ.

وقال **رحمه الله** في “المدارج” (٣/ ٤٨٥): فليس الشأن في أن تحب الله، بل الشأن في أن يحبك الله. ولا يحبك الله إلا إذا اتبعت حبيبه ظاهرا وباطنا، وصدقته خبرا،

وآية في المائدة، وهي قوله: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُم عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾ [المائدة: ٥٤]...

...

وأطعته أمرا، وأجبتة دعوة، وآثرته طوعا، وفنيت عن حكم غيره بحكمه، وعن محبة غيره من الخلق بمحبته، وعن طاعة غيره بطاعته. وإن لم يكن ذلك فلا تتعن، وارجع من حيث شئت فالتمس نورا، فلست على شيء.

وتأمل قوله: ﴿فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١]، أي: الشأن في أن الله يحبكم، لا في أنكم تحبونه. وهذا لا تنالونه إلا باتباع الحبيب ﷺ. اهـ.

وورد لهذه المحبة العظيمة الشأن من العلامة ما أخرجه الإمام البخاري في "صحيحه" (٣٢٠٩) والإمام مسلم في "صحيحه" (١٥٧) - (٢٦٣٧) من حديث **أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ**، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله إذا أحب عبدا دعا جبريل؛ فقال: إني أحب فلانا فأحبه». قال: «فيحبه جبريل، ثم ينادي في السماء؛ فيقول: إن الله يحب فلانا فأحبه، فيحبه أهل السماء». قال: «ثم يوضع له القبول في الأرض» الحديث.

قوله: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾ لما كان ما يدعيه المشبهون بأولياء الله من المحبة له **سبحانه وتعالى** ومحبة الله لهم قد يخفى، لاسيما مع فشو الجهل بحقيقة اتباع سنة النبي ﷺ والاعتزاز بكثرة الملتفين بهؤلاء المشبهين، حتى ظنه الكثير دلالة على محبة الله لهم وبينه عادلة على وضع القبول لهم في الأرض، أردف المصنف الآية

..

الأولى المبينة لأهم صفة أولياء الله بالآية التي في سورة المائدة، الموضحة لعلامات أولياء الله الظاهرة التي لا تخفى إلا على من طمست بصيرته.

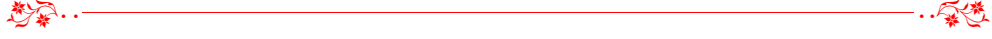
فتأمل قول الله **عز وجل**: ﴿تُحِبُّونَ اللَّهَ﴾ في الآية الأولى مع قوله **نعال** فيها أيضا: ﴿يُحِبُّكُمُ اللَّهُ﴾ كيف يوافق قول الله **سبحانه ونعال**: ﴿يُحِبُّونَهُ وَ﴾ في الآية الثانية مع قوله **نعال** فيها أيضا: ﴿يُحِبُّهُمْ﴾... فإذا فعلت اتضح لك ما تقدم. ولذا قال الإمام ابن القيم في “المدارج” (٤٥٦/٣) عقب ذكر الآية في سورة المائدة، وكان قد تكلم قبلها على التي في سورة آل عمران: فقد ذكر لهم أربع علامات:

أحدها أنهم ﴿أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٥٤]، قيل: معناه أرقاء، رحماء، مشفقين عليهم، عاطفين عليهم. فلما ضمن ﴿أَذِلَّةٌ﴾ هذا المعنى عداه بأداة ﴿عَلَى﴾، قال عطاء: للمؤمنين كالولد لوالده والعبد لسيده،
-**الثانية**- وعلى الكافرين كالأسد على فريسته، ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩].

العلامة الثالثة الجهاد في سبيل الله بالنفس، واليد، واللسان، والمال. وذلك تحقيق دعوى المحبة.

العلامة الرابعة أنهم لا تأخذهم في الله لومة لائم. وهذا علامة صحة المحبة، فكل محب يأخذ اللوم عن محبته فليس بمحب على الحقيقة، كما قيل:
لا كان من لسواك فيه بقية يجد السبيل بها إليه اللوم
اهـ.

وفي هذه العلامات الأربع ما يستدل به على زيف من تشبه بأولياء الله **عز وجل** وهو ليس منهم. وفي ما يلي توجيه لذلك...



بسمي الله قول على المؤمنين وعزير على الكافرين:

ففي هاتين العلامتين بيان زيف بعض المتشبهين بأولياء الله وهم معتدون على عباد الله المؤمنين بأنواع الأذى تحت ستار غيرتهم المزعومة على دين الله، وهم في الوقت نفسه خافضون جناح الذل لأعداء الله الكافرين.

وفي هذا المعنى ما قاله شيخ الإسلام **رحمته الله** في "الاستقامة" (٢/ ٢٦-٢٧): وكذلك قول الشبلي لما سئل؛ متى تستريح؟ فقال: «إذا لم أر له ذاكرا». وذكر هذا في الغيرة التي هي طريق أولياء الله وعباده الصالحين، من أعظم المنكرات، ومن القول الذي يبغضه الله، ورسوله، وأوليأؤه من الأولين والآخرين. أياغار المؤمن أن يذكر الله، أو يغار أن تنتهك محارم الله؟! وليس لهذا القول وجه يحمد به. اهـ المراد.

ثم ذكر **رحمته الله** مثالا آخر؛ فقال: ومما يشبه هذا ما ذكره له مرة بعض أصحابنا الفقراء - وفيه خير، ودين، ومعرفة - أنه كان يصلي بالليل، فقام آخر يصلي، قال: فأخذتني الغيرة. فقلت له: هذا حسد، وضيق عطن، وظلم، ليس بغيرة!! إنما الغيرة إذا انتهكت محارم الله!

والله **تعالى** واسع، عليم، يسع عباده الأولين والآخرين، وهو يحب ذلك، ويأمر به، ويدعو إليه، فكيف يبغض المؤمن ما يحبه؟

وهذا القدر واقع، كثير، من أرباب الأحوال، حتى يقتل بعضهم بعضا، ويعتدي بعضهم على [بعض]، يؤذي بعضهم بعضا، ويقولون: «هذا غيرة على الحق». وإنما هو تعدي لحدوده، وظلم لعباده، وصد عن سبيله، وتمثيل فيه للحق **تعالى** بالمرأة، أو الأمرد، الذي يتغاير عليهم الفساق لضيق المحل غير الإشراك.

..

وأصل ذلك من طلب الفساد والعلو في الأرض وطلب الانفراد بالتأله، لا لأجل الله، لكن لأجل الاستعلاء في الأرض، فهو من الكبر والحسد، من جنس ذنب إبليس، وفرعون، وأخي ابن آدم، لا من أعمال عوام الخلق، فضلا عن مؤمنهم، فضلا عن أولياء الله المتقين.

ولهذا نجد أمثال هؤلاء من أقل الناس غيرة إذا انتهكت محارم الله، ويكون المؤمنون منهم في تعب، والمشركون منهم في راحة، ضد ما نعت الله به المؤمنين؛ حيث قال: ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩]، وقال: ﴿أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤]. فشأنهم من جنس الخوارج الذين قال فيهم النبي ﷺ: «يقتلون أهل الإسلام، ويدعون أهل الأوثان». اهـ.

وهو ولي النفاق لومة لائم للذم جهادوه وللذم فخره:

في هاتين العلامتين بيان زيف بعض المتشبهين بأولياء الله المحتملين لوم الخلق على ما يظهرونه من المعاصي وهم في ذلك مدعون طلب الإخلاص والصدق. وقد أفاد الحافظ ابن القيم رحمه الله في “المدارج” (٣/ ٧٢٤-٧٢٥) في بيان مذهب هؤلاء ما قال فيه: الذين يظهرون ما لا يمدحون عليه، ويسرون ما يحمدهم الله عليه، عكس المرئيين، المنافقين. وهؤلاء طائفة معروفة، لهم طريقة معروفة، تسمى طريقة أهل الملامة، وهم الطائفة الملامية. يزعمون أنهم يحملون ملام الناس لهم على ما يظهرونه من الأعمال؛ ليخلص لهم ما يبطنونه من الأحوال. اهـ.

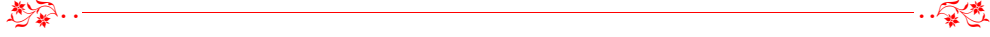
وقد خالف هؤلاء بهذه الطريقة ما ذكره الله سبحانه في الآية المتقدمة من احتمال أوليائه للام الخلق في ما يحبه الله سبحانه ونعاه من العبادات كالجهاد وغيره، لا في ما لا يرضاه من المعاصي. قال شيخ الإسلام في “الاستقامة” (١/ ٢٦٤-٢٦٥) بعد ذكر

وآية في يونس، وهي قوله: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (٦٢) الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿يونس﴾.

الآية المتقدمة: فأخبر سبحانه بذلهم للمؤمنين، وعزهم على الكافرين، وجهادهم في سبيله، وأنهم لا يخافون لومة لائم، فلا يخافون لوم الخلق لهم على ذلك. وهؤلاء هم الذين يحملون الملام والعذل في حب الله ورسوله والجهاد في سبيله، والله يحبهم، وهم يحبونه، ليسوا بمنزلة من يحمل الملام والعذل في محبة ما لا يحبه الله ورسوله ولا بمنزلة الذين أظهروا من مكروهات الحق ما يلامون عليه، ويسمون بالملامية، ظانين أنهم لما أظهروا ما يلومهم الخلق عليه من المنكرات، مع صحتهم في الباطن، كان ذلك من صدقهم وإخلاصهم. وهم في ذلك إنما يتبعون الظن وما تهوى الأنفس؛ فإن ذلك المنكر الذي يكرهه الله ورسوله لا يكون فعله مما يحبه الله ورسوله، ولا يكون من الصدق والإخلاص في حب الله ورسوله والناس يلامون عليه.

سنام ذلك الجهاد في سبيل الله؛ فإنه أعلى ما يحبه الله ورسوله، واللائمون عليه كثير؛ إذ كثير من الناس الذين فيهم إيمان يكرهونه. وهم إما مخذلون، مفترون للهمة والإرادة فيه، وإما مرجفون، مضعفون للقوة والقدرة عليه، وإن كان ذلك من النفاق. اهـ المراد.

قوله: ﴿وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ قال الألوسي في "روح المعاني" (١٤٨/١١) أثناء كلامه على هذه الآية: الآية ظاهرة في أن الأولياء هم المؤمنون، المتقون. اهـ المراد. ويبين هذا المعنى ما قاله شيخ الإسلام كما في "تفسيره" (٤٨٨/٣): الولاية ضد العداوة. وأصل الولاية المحبة والقرب، وأصل العداوة البغض والبعد.



وقد قيل: «إن الولي سمي ولياً من مولاته للطاعات»، أي: متابعتها لها. والأول أصح، والولي القريب؛ فيقال: «هذا يلي هذا»، أي: يقرب منه. ومنه قوله عليه السلام: «ألقوا الفرائض بأهلها، فما أبقت الفرائض فلأولى رجل ذكر»، أي: لأقرب رجل إلى الميت. وأكدته بلفظ «الذكر»؛ لبيان أنه حكم يختص بالذكور، ولا يشترك فيها الذكور والإناث، كما قال في الزكاة: «فابن لبون ذكر». اهـ المراد.

وفي هذا المعنى ما أخرجه الإمام البخاري في «صحيحه» (٦٥٠٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله قال: من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضت عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه. فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها. وإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه. وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس المؤمن، يكره الموت وأنا أكره مساءته».

قال الحافظ ابن رجب رحمته الله في «جامع العلوم والحكم» (٣٣٥-٣٣٦/٢) في شرحه: لما ذكر أن معاداة أوليائه محاربة له ذكر بعد ذلك وصف أوليائه الذين تحرم معاداتهم، وتجب مولاتهم، فذكر ما يقرب به إليه. وأصل الولاية القرب، وأصل المعاداة البعد، فأولياء الله هم الذين يتقربون إليه بما يقربهم منه، وأعداؤه الذين أبعدهم عنه بأعمالهم المقتضية لطردهم وإبعادهم منه. فقسم أوليائه المقربين قسمين:

أحدهما من تقرب إليه بأداء الفرائض. ويشمل ذلك فعل الواجبات وترك المحرمات؛ لأن ذلك كله من فرائض الله التي افترضها على عباده.

...

والثاني من تقرب إليه بعد الفرائض بالنوافل. اهـ.

ثم استظهر ما في الكلام المذكور من الرد على ما يدعيه المشبهون بأولياء الله **عز وجل** من وجود طريق أخرى موصلة إلى الله غير ما ذكر في الحديث؛ حيث قال **رحمة الله**: فظهر بذلك أنه لا طريق يوصل إلى التقرب إلى الله **تعالى**، وولايته، ومحبته، سوى طاعته التي شرعها على لسان رسوله **ﷺ**.

فمن ادعى ولاية الله، والتقرب إليه، ومحبته، بغير هذه الطريق تبين أنه كاذب في دعواه، كما كان المشركون يتقربون إلى الله **تعالى** بعبادة من يعبدونه من دونه، كما حكى الله عنهم أنهم قالوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٢٣]، وكما حكى عن اليهود والنصارى أنهم قالوا: ﴿نَحْنُ أَبْنَاؤُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾ [المائدة: ١٨] مع إصرارهم على تكذيب رسله، وارتكاب نواهيه... اهـ المراد.

به أولياء الله هم المتقون:

قال الإمام القرطبي **رحمة الله** في "الجامع لأحكام القرآن" (١١/١٧): ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٦٣]، هذه صفة أولياء الله **تعالى**، فيكون ﴿الَّذِينَ﴾ في موضع نصب على البدل من اسم ﴿إِنَّ﴾، وهو ﴿أَوْلِيَاءَ﴾، وإن شئت على «أعني»، وقيل: هو ابتداء، وخبره ﴿لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾، فيكون مقطوعاً مما قبله، أي: يتقون الشرك والمعاصي. اهـ.

وهذا رد على من تقدم ذكرهم ممن تشبه بأولياء الله من أهل السماع الشيطاني. قال شيخ الإسلام في "الاستقامة" (١/٢٦٦-٢٦٨) بعد ذكره لإخلاص أهل محبة الله لدينهم، ومتابعتهم لرسول الله **ﷺ**، وجهادهم في سبيل الله: وإذا عرفت

..

هذه الأصول فعامة أهل السماع المحدث مقصرون في هذه الأصول الثلاثة. وهم في ذلك متفاوتون تفاوتاً كثيراً بحسب قوة اعتياضهم بالسماع المحدث عن السماع المشروع وما يتبع ذلك،

حتى آل الأمر بأخيرة إلى الانسلاخ من الإيمان بالكلية ومصيره منافقاً محضاً، أو كافراً صرفاً.

وأما عامتهم وغالبهم، الذين فيهم حب الله ورسوله وما يتبع ذلك، فهم فيه مقصرون. تجد فيهم من التفريط في الجهاد في سبيل الله وما يدخل فيه من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والتفريط في متابعة رسول الله ﷺ في شريعته وسنته، وأوامره وزواجره، أمراً عظيماً جداً. وكذلك في أمر الإخلاص لله، تجد فيهم من الشرك الخفي، أو الجلي، أموراً كثيرة.

لهذا كان هذا السماع، سماع المكاء والتصدية، إنما هو في الأصل سماع المشركين كما قال **نعل:** ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً﴾ [الأنفال: ٣٥]. وفيهم من اتخاذ أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله ما ضاهوا به النصارى في كثير من ذلك، حتى أن منهم من يعبد بعض البشر، ويعبد قبورهم، فيدعوهم، ويستغيث بهم، ويتوكل عليهم، ويخافهم، ويرجوهم... إلى غير ذلك مما هو من حقوق الله وحده لا شريك له. ويطيعون ساداتهم وكبارهم في تحليل الحرام وتحريم الحلال. ويقول بعضهم في اتحاد الله ببعض مخلوقاته، وحلوله فيهم، شبيه ما قالته النصارى في المسيح **عليه الصلاة والسلام**. ولهذا يكون كثير من سماعهم الذي يحرك وجدهم ومحبتهم إنما يحرك وجدهم ومحبتهم لغير الله، كالذين اتخذوا من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله.

...

وأما الشريعة وما أمر الله به، ونهى عنه، وأحلّه، وحرّمه، ففيهم من المخالفة لذلك، بل [من] الاستخفاف بمن يتمسك به، ما الله به عليم، حتى سقط من قلوبهم تعظيم كثير من فرائض الله وتحريم كثير من محارمه. فكثيرا ما يضيعون فرائضه، ويستحلون محارمه، ويتعدون حدوده تارة اعتقادا، وتارة عملا.

وكثير من خيارهم، الذين هم مؤمنون، يقعون في كثير من فروع ذلك، وإن كانوا مستمسكين بأصول الإسلام.

وأما غير هؤلاء فيصرحون بسقوط الفرائض كالصلوات الخمس وغيرها عنهم، وبحل الخبائث من الخمر، والفواحش، أو الظلم، أو البغي، أو غير ذلك، لهم. وتزول عن قلوبهم المحبة لكثير مما يحبه الله ورسوله كالمحبة التامة التي هي كمال الإيمان.

بل لا بد أن ينقص في قلوبهم حب ما أحبه الله ورسوله، فلا يبقى للقرآن، والصلاة، ونحو ذلك... في قلوبهم من المحبة، والحلاوة، والطيب، وقرة العين، ما هو المعروف لأهل كمال الإيمان.

بل قد يكرهون بعض ذلك، ويستثقلونه، كما هو من نعت المنافقين الذين قال الله فيهم: ﴿وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى﴾ [النساء: ١٤٢].

و[قد يهجرون] القرآن الذي ما تقرب العباد إلى الله بأحب إليه منه. بل قد يستثقلون سماعه وقراءته لما اعتاضوا عنه [من السماع].

وقد يقومون ببعض هذه العبادات الشرعية صورا ورسما كما يفعل المنافقون، لا محبة، وحقيقة، ووجدا، كما يفعله المؤمنون. اهـ المراد.

ثم صار الأمر عند أكثر من يدعي العلم، وأنه من هداة الخلق وحفاظ الشرع، إلى أن أولياء الله لا بد فيهم من ترك اتباع الرسل،...

قوله: «إلى أن أولياء الله لا بد فيهم من ترك اتباع الرسل» وقد بنوا هذا البهتان على زعمهم لأخذ من يسمونهم بالأولياء لعلمهم عن ربهم بلا واسطة، فلا حاجة لهؤلاء إلى العلم الذي جاءت به الرسل **صلوات الله وسلامه عليه!!**

وقد سجلت عن هؤلاء بعض الكلمات، من ذلك ما قال فيه الحافظ ابن القيم **رحمه الله تعالى** في “المدارج” (٣/ ٣٣٣-٣٣٤): وأما الكلمات التي تروى عن بعضهم من التزهيد في العلم والاستغناء عنه كقول من قال: «نحن نأخذ علمنا من الحي الذي لا يموت، وأنتم تأخذونه من حي يموت»، وقول الآخر وقد قيل له: «ألا ترحل حتى تسمع من عبد الرزاق» فقال: «ما يصنع بالسماع من عبد الرزاق، من يسمع من الخلاق؟»، وقول الآخر: «العلم حجاب بين القلب وبين الله **عز وجل**»، وقول الآخر: «إذا رأيت الصوفي يشتغل بـ«أخبرنا» و«حدثنا» فاغسل يدك منه»، وقول الآخر: «لنا علم الحرف، ولكم علم الورق».. ونحو هذا من الكلمات التي أحسن أحوال قائلها أن يكون جاهلا يعذر بجهله، أو شاطحا معترفا بشطحه. اهـ المراد.

يه رو او هاء الاستغناء عن العلم النافع:

قال الإمام ابن القيم **رحمه الله** عقب كلامه السابق في رد الضلال المذكور: فلولا عبد الرزاق وأمثاله، ولولا «أخبرنا» و«حدثنا»، لما وصل إلى هذا وأمثاله شيء من الإسلام. ومن أحالك على غير «أخبرنا» و«حدثنا» فقد أحالك إما على خيال صوفي، أو قياس فلسفي، أو رأي نفسي.

ثم في الرد على هذا الضلال كذلك ما قاله القاضي ابن أبي العز في شرح قول للإمام الطحاوي في "عقيدته" (ص ٤٦٥-٤٦٦): يشير الشيخ رحمه الله تعالى إلى الرد على الاتحادية وجهلة المتصوفة.

ثم أفاد **رحمته الله** بما قاله عقب ما تقدم: قال أبو عثمان النيسابوري: من أمر السنة على نفسه قولاً وفعلاً نطق بالحكمة، ومن أمر الهوى على نفسه نطق بالبدعة. وقال بعضهم: ما ترك بعضهم شيئاً من السنة إلا لكبر في نفسه.

..

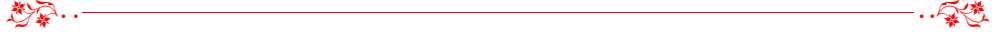
وكثير من هؤلاء يظن أنه يصل برياسته واجتهاده في العبادة وتصفية نفسه إلى ما وصلت إليه الأنبياء من غير اتباع لطريقتهم! ومنهم من يظن أنه قد صار أفضل من الأنبياء!! ومنهم من يقول: «إن الأنبياء والرسل إنما يأخذون العلم بالله من مشكاة خاتم الأولياء»، ويدعي لنفسه أنه خاتم الأولياء!!! اهـ المراد.

ولهؤلاء كذلك من الشطحات التي لا يشك ذو عقل في كذبها ما نقله، ثم رد عليه، الحافظ ابن القيم في ”المدارج“ (١/١٠٢-١٠٣) نقلاً عن شيخ الإسلام بما قال فيه: قال: أما ما يقوله كثير من أصحاب الخيالات والجهالات: «حدثني قلبي عن ربي» فصحيح أن قلبه حدثه، ولكن عمن؟ عن شيطانه، أو عن ربه؟ فإذا قال: «حدثني قلبي عن ربي» كان مسنداً الحديث إلى من لم يعلم أنه حدثه به، وذلك كذب.

قال: ومحدث الأمة لم يكن يقول ذلك، ولا تفوه به يوماً من الدهر، وقد أعاده الله من أن يقول ذلك.

بل كتب كاتبه يوماً: «هذا ما أرى الله أمير المؤمنين عمر بن الخطاب»، فقال: «لا، امحه، واكتب: هذا ما رأى عمر بن الخطاب، فإن كان صواباً فمن الله. وإن كان خطأ فمن عمر، والله ورسوله منه بريء». وقال في الكلاله: «أقول فيها برأبي، فإن يكن صواباً فمن الله. وإن يكن خطأ فمني ومن الشيطان».

فهذا قول المحدث، بشهادة الرسول ﷺ، وأنت ترى الاتحادي، والحلولي، والإباحي، الشطاح، والسماعي، مجاهر بالقحة والفرية؛ يقول: «حدثني قلبي عن ربي». فانظر إلى ما بين القائلين، والمرتبين، والقولين، والحالين، وأعط كل ذي حق حقه، ولا تجعل الزغل والخالص شيئاً واحداً. اهـ.



سبحة أخرى والجواب عنها:

للمتشبهين بأولياء الله القائلين بترك العلم الذي جاءت به الرسل **عليهم السلام**، شبهة أخرى، قال فيها الإمام ابن القيم في "المدارج" (١/٣٠٨): ويحتجون بقوله **نعا: ﴿وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٩]**، ويفسرون **﴿الْيَقِينُ﴾** بشهود الحكم الكوني، وهي الحقيقة عندهم. اهـ.

وفي الجواب عن ذلك ما قاله **رحمته الله** (ص ٢١٢-٢١٣): ومن زعم أنه يصل إلى مقام يسقط عنه فيه التعبد فهو زنديق، كافر بالله وبرسوله. وإنما وصل إلى مقام الكفر بالله والانسلاخ من دينه.

بل كلما تمكن العبد في منازل العبودية كانت عبوديته أعظم، والواجب عليه منها أكبر وأكثر من الواجب على من دونه. ولهذا كان الواجب على رسول الله **ﷺ** - بل على جميع الرسل - أعظم من الواجب على أمهم، والواجب على أولي العزم أعظم من الواجب على من دونهم، والواجب على أولي العلم أعظم من الواجب على من دونهم. اهـ.

وأما ما فسروا به الآية فهو، ويرده قول الإمام ابن القيم قبل ما تقدم (ص ٢١١): قال الله **نعا** لرسوله: **﴿وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٩]**، وقال أهل النار: **﴿وَكُنَّا نَكْذِبُ بِيَوْمِ الدِّينِ﴾ [٦٦]** **﴿حَتَّى أَتَيْنَا الْيَقِينُ﴾ [المدثر]**، واليقين ههنا هو الموت بإجماع أهل التفسير. وفي "الصحيح" في قصة موت عثمان ابن مظعون **رضي الله عنه** أن النبي **ﷺ**، قال: «أما عثمان فقد جاءه اليقين من ربه»، أي: الموت وما فيه.

فلا ينفك العبد من العبودية ما دام في دار التكليف!

ومن تبعهم فليس منهم.

بل عليه في البرزخ عبودية أخرى لما يسأله الملكان؛ من كان يعبد؟ وما يقول في رسول الله ﷺ؟ ويلتمسان منه الجواب.

وعليه عبودية أخرى يوم القيامة، يوم يدعو الله الخلق كلهم إلى السجود، فيسجد المؤمنون، ويبقى الكفار والمنافقون لا يستطيعون السجود.

فإذا دخلوا دار الثواب والعقاب انقطع التكليف هناك، وصارت عبودية أهل الثواب تسبيحا مقرونا بأنفسهم، لا يجدون له تعباً ولا نصيباً.

قوله: ﴿ومن تبعهم فليس منهم﴾ وقد تقدم في كلام شيخ الإسلام مما نقله عن بعض أهل السماع الشيطاني أنهم يستخفون بالمتمسكين بدين الله الحق.

وفي هؤلاء وأمثالهم ما حكاه الإمام ابن القيم رحمه الله في “المدارج” (١/٤٦٧ - ٤٦٩)؛ حيث قال: إنهم تشتت نفرتهم منهم، ويعيبون عليهم، ويزرون بهم. وقد يسمون من رأوه كثير الصلاة ثقايل الحصر، ومن رأوه كثير الطواف حمر المدار، ونحو ذلك.

وقد أخبرني من رأى ابن سبعين قاعداً في طرف المسجد الحرام، وهو يسخر من الطائفين، ويذمهم، ويقول: «كأنهم الحمر حول المدار»، ونحو هذا، وكان يقول: إقبالهم على الجمعية أفضل لهم.

لا ريب أن هؤلاء مؤثرون لحظوظهم على حقوق ربهم، واقفون مع أذواقهم ومواجيدهم، فأنين بها عن حق الله ومراده. وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية - قدس الله روحه - يحكي عن بعض العارفين أنه قال: «العامة يعبدون الله، وهؤلاء يعبدون نفوسهم».



وصدق **ﷺ**؛ فإن هؤلاء المستكثرين من الطاعات، الذائقين لروح العبادة،
الراجين ثوابها، قد رفع لهم علم الثواب، وأنه مسبب عن الأعمال، فشمروا إليه
راجين أن تقبل منهم أعمالهم على عيبها ونقصها بفضل الله، خائفين أن ترد
عليهم؛ إذ لا تصلح لله، ولا تليق به، فيردها بعدله وحقه.
فهم مستكثرون بجهدهم من طاعاته بين خوفه، ورجائه، والإزراء على
أنفسهم، والحرص على استعمال جوارحهم في كل وجه من وجوه الطاعات رجاء
مغفرته ورحمته، وطمعا في النجاة. اهـ المراد.



..

خاتمة في هذا الأصل

قال الشيخ العثيمين في شرحه لـ "الأصول الستة" (ص ١٠٣-١٠٥) نقلا عن شيخ الإسلام: فمن لم يتقرب إلى الله، لا يفعل الحسنات، ولا يترك السيئات، لم يكن من أولياء الله، فلا يجوز لأحد أن يعتقد أنه ولي الله. لاسيما أن تكون محبته على ذلك إما مكاشفة سمعها منه، أو نوع من تصرف...

فلا يجوز لأحد أن يستدل بمجرد ذلك على كون الشخص وليا لله، وإن لم يعلم منه ما ينقض ولاية الله، فكيف إذا علم منه ما يناقض ولاية الله؟! [مثل أن يعلم أنه لا يعتقد وجوب اتباع النبي] -استدرك السقط من نسخة أخرى- **عليه السلام** باطنا وظاهرا. بل يعتقد أنه يتبع الشرع الظاهر دون الحقيقة الباطنة، أو يعتقد أن لأولياء الله طريقا إلى الله غير طريق الأنبياء **عليهم السلام**...

فعلى هذا فمن أظهر الولاية وهو لا يؤدي الفرائض، ولا يجتنب المحارم، بل قد يأتي بما يناقض ذلك، لم يكن لأحد أن يقول: هذا ولي الله... وليس لأولياء الله شيء يتميزون به من الأمور المباحات... وليس من شرط ولي الله أن يكون معصوما، لا يغلط، ولا يخطئ، بل يجوز أن يخفى عليه بعض علم الشريعة، ويجوز أن يشبهه عليه بعض أمور الدين... ولهذا لما كان ولي الله يجوز أن يغلط لم يجب على الناس الإيمان بجميع ما يقوله من هو ولي الله؛ لثلاث نوايا...

بل يجب أن يعرض ذلك جميعه على ما جاء به محمد **عليه السلام** فإن وافقه قبله، وإن خالفه لم يقبله. وإن لم يعلم أموافق هو، أم مخالف، توقف فيه. والناس في هذا الباب ثلاثة أصناف، طرفان ووسط:

..

فمنهم من إذا اعتقد في شخص أنه ولي لله وافقه في كل ما يظن أنه حدث به قلبه عن ربه، وسلم إليه جميع ما يفعله.

ومنهم من إذا رآه قال، أو فعل، ما ليس بموافق للشرع أخرجه عن ولاية الله بالكلية، وإن كان مجتهدا مخطئا.

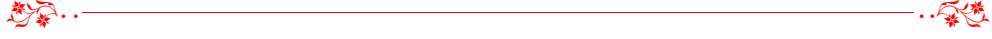
وخيار الأمور أوساطها، هو أن لا يجعل معصوما ولا مأثوما إذا كان مجتهدا مخطئا، فلا يتبع في كل ما يقوله، ولا يحكم عليه بالكفر والفسق مع اجتهاده. والواجب على الناس اتباع ما بعث الله به رسوله... وقد اتفق سلف الأمة وأئمتها على أن كل واحد يؤخذ من قوله، ويترك، إلا رسول الله ﷺ.

وهذا من الفروق بين الأنبياء وغيرهم، فالأنبياء **صلوات الله عليهم وسلوة** يجب لهم الإيمان بجميع ما يخبرون به عن الله **عز وجل**، وتجب طاعتهم في ما يأمرون به، بخلاف الأولياء؛ فإنهم لا تجب طاعتهم في كل ما يأمرون به ولا الإيمان بجميع ما يخبرون به.

بل يعرض أمرهم وخبرهم على الكتاب والسنة، فما وافق الكتاب والسنة وجب قبوله، وما خالف الكتاب والسنة كان مردودا. وإن كان صاحبه من أولياء الله، وكان مجتهدا، معذورا، في ما قاله له أجر على اجتهاده.

لكنه إذا خالف الكتاب والسنة كان مخطئا، وكان من الخطأ المغفور إذا كان صاحبه قد اتقى الله ما استطاع.

وهذا الذي ذكرته من أن أولياء الله يجب عليهم الاعتصام بالكتاب والسنة هو مما اتفق عليه أولياء الله **عز وجل**، ومن خالف في هذا فليس من أولياء الله **سبحانه** الذين أمر الله باتباعهم. بل إما أن يكون كافرا، وإما أن يكون مفرطا في الجهل.



وكثير من الناس يغلط في هذا الموضع، فيظن في شخص أنه ولي الله، ويظن أن ولي الله يقبل منه كل ما يقوله، ويسلم إليه كل ما يقوله، ويسلم إليه كل ما يفعله وإن خالف الكتاب والسنة، فيوافق ذلك له. ويخالف ما بعث الله به رسوله الذي فرض الله على جميع الخلق تصديقه في ما أخبر، وطاعته في ما أمر، وجعله الفارق بين أوليائه وأعدائه، وبين أهل الجنة وأهل النار، وبين السعداء والأشقياء. فمن اتبعه كان من أولياء الله المتقين، وجنده، والمفلحين، وعباده الصالحين. ومن لم يتبعه كان من أعداء الله الخاسرين، المجرمين، فتجره مخالفة الرسول وموافقة ذلك الشخص أولاً إلى البدعة والضلال، وآخر إلى الكفر والنفاق...

وتجد كثيراً من هؤلاء عمدتهم في اعتقاده كونه ولياً لله أنه قد صدر عنه مكاشفة في بعض الأمور، أو بعض التصرفات الخارقة للعادة... وليس في شيء من هذه الأمور ما يدل على أن صاحبها ولي لله. بل قد اتفق أولياء الله على أن الرجل لو طار في الهواء، أو مشى على الماء، لم يغتر به حتى ينظر متابعتة لرسول الله ﷺ وموافقته لأمره ونهيه... اهـ المراد.



الأصل السورس

الأصل السورس: رد الشبهة التي وضعها الشيطان في ترك القرآن والسنة،
واتباع الآراء والأهواء المتفرقة، المختلفة...

قوله: ﴿الشبهة التي وضعها الشيطان في ترك القرآن﴾ قال العلامة الشنقيطي في
"الأضواء" (٧/ ٤٥٧-٤٥٨) في سياق كلامه على قول الله **نعل:** ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ
الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: ٢٤]: ما تضمنته هذه الآية الكريمة من
التوبيخ والإنكار على من أعرض عن تدبر كتاب الله جاء موضحة في آيات كثيرة
كقوله **نعل:** ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ
أَخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢]، وقوله **نعل:** ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ
يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ [المؤمنون: ٦٨]، وقوله **نعل:** ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ
مُبَارَكٌ لِيَذَّبَرُوا عَايَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ [ص: ٢٩].

وقد ذم **جمل وجله** المعرض عن هذا القرآن العظيم في آيات كثيرة، كقوله **نعل:**
﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا﴾ [الكهف: ٥٧]،
وقوله **نعل:** ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا﴾ [السجدة:
٢٢]. ومعلوم أن كل من لم يشغل بتدبر آيات القرآن العظيم، أي: تصفحها،
وتفهمها، وإدراك معانيها، والعمل بها، فإنه معرض عنها، غير متدبر لها، فيستحق

وهي أن القرآن والسنة، لا يعرفهما إلا المجتهد المطلق.

...

الإنكار والتوبيخ المذكور في الآيات، إن كان الله أعطاه فهما يقدر به على التدبر، وقد شكّا النبي ﷺ إلى ربه من هجر قومه هذا القرآن، كما قال **نعم**: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَرْبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾ [الفرقان: ٣٠].

وهذه الآيات المذكورة تدل على أن تدبر القرآن وتفهمه، وتعلمه والعمل به، أمر لا بد منه للمسلمين. وقد بين النبي ﷺ أن المشتغلين بذلك هم خير الناس، كما ثبت عنه ﷺ في ”الصحيح“ من حديث **عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ**، أنه قال: **”خيركم من تعلم القرآن، وعلمه“**، وقال **نعم**: ﴿وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّنِيَّيْنَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ أَلِكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ [آل عمران: ٧٩]. فإعراض كثير من الأقطار عن النظر في كتاب الله، وتفهمه، والعمل به وبالسنة الثابتة، المبينة له، من أعظم المناكر وأشنعها، وإن ظن فاعلوه أنهم على هدى.

ولا يخفى على عاقل أن القول بمنع العمل بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ اكتفاء عنهما بالمذاهب المدونة، وانتفاء الحاجة إلى تعلمهما، لوجود ما يكفي عنهما من مذاهب الأئمة من أعظم الباطل، وهو مخالف لكتاب الله، وسنة رسوله، وإجماع الصحابة، ومخالف لأقوال الأئمة الأربعة. اهـ.

قوله: ﴿وهي أن القرآن والسنة لا يعرفهما إلا المجتهد﴾ وقد أفاد المحقق العلامة الشنقيطي **رحمه الله تعالى** في المصدر المتقدم بمباحث مفيدة، نغترف منها في ما يلي ما نحتاج إليه في شرح هذا الأصل.

وعليك يا أيها القارئ اللبيب! بالاعتناء بهذا الأصل المهم، وإياك أن تحدثك نفسك بأنه آخر هذه الأصول، فمر عليه مرور الكرام لأجل إنهاء الكتاب!!

ويبين المناسبة بين هذا الأصل الأخير وبين التي تقدمت ما أفاده الشيخ ابن
برجس في شرحه على "الأصول الستة" (ص ١٣٠)؛ حيث قال: هذا الأصل من
أهم الأصول التي ينبغي على المسلم أن يعتني بها.
جعله المؤلف آخر هذه الأصول؛ لأنه بسبب تغيير هذا الأصل حدث ما
حدث للمسلمين من الإضلال والردة، كأنه أراد أن هذه الأصول الخمسة الأولى
واضحة وجالية، وأن الناس ما دفعهم لرد الأصول الخمسة الأولى والإضلال
فيها إلا أنهم ضلوا في هذا الأصل. اهـ المراد.

قال الشيخ ابن برجس بعد ما تقدم: هذا الأصل تحذيري، ويريد المؤلف أن يحذر فيه من هذه الشبهة، وذكر المؤلف ما يضادها، وهو التزام القرآن والسنة. وكأنه في هذا الأصل يطلب من المسلم التزام القرآن والسنة؛ لأن الشيطان لا يستطيع أن يدعو المسلمين على لسان أوليائه من شياطين الإنس والجن إلى ترك القرآن والسنة مباشرة؛ فإنه لو فعل ذلك لن يطاع. ولكنه جاء بمكره وكيده إلى شبهة وضعها بين الناس، وجعل أوليائه ينموها، وينشروها، شيئاً فشيئاً حتى ترك القرآن والسنة. اهـ.

وقد ذكر العلامة الشنقيطي وجوب تفضن المسلمين لهذه الشبهة، وبين بناءها على مقدمتين؛ فقال في "الأضواء" (٧/ ٤٦٣-٤٦٤): يجب على كل مسلم يخاف

..

العرض على ربه يوم القيامة أن يتأمل فيه؛ ليرى لنفسه المخرج من هذه الورطة العظمى، والطامة الكبرى، التي عمت جل بلاد المسلمين من المعمورة. وهي ادعاء الاستغناء عن كتاب الله وسنة رسوله استغناء تاما في جميع الأحكام من عبادات، ومعاملات، وحدود، وغير ذلك، بالمذاهب المدونة. وبناء هذا على مقدمتين:

إحداهما أن العمل بالكتاب والسنة لا يجوز إلا للمجتهدين.

والثانية أن المجتهدين معدومون عدما كلياً، لا وجود لأحد منهم في الدنيا. وأنه بناء على هاتين المقدمتين يمنع العمل بكتاب الله وسنة رسوله منعاً باتاً على جميع أهل الأرض، ويستغنى عنهما بالمذاهب المدونة. وزاد كثير منهم على هذا منع تقليد غير المذاهب الأربعة، وأن ذلك يلزم استمراره إلى آخر الزمان. فتأمل يا أخي! -رحمك الله- كيف يسوغ لمسلم أن يقول بمنع الاهتداء بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وعدم وجوب تعلمهما والعمل بهما، استغناء عنهما بكلام رجال غير معصومين، ولا خلاف في أنهم يخطئون؟! اهـ.

وقد نشر هذه الشبهة رجال، فقاموا لها، وقعدوا، ومن بين هؤلاء من ذكرهم العلامة الشنقيطي رحمه الله تعالى في “الأضواء” (٧/ ٤٥٩)؛ حيث قال: اعلم أن قول بعض متأخري الأصوليين: «إن تدبر هذا القرآن العظيم، وتفهمه، والعمل به، لا يجوز إلا للمجتهدين خاصة»، وأن كل من لم يبلغ درجة الاجتهاد المطلق بشروطه المقررة عندهم، التي لم يستند اشتراط كثير منها إلى دليل من كتاب، ولا سنة، ولا إجماع، ولا قياس جلي، ولا أثر عن الصحابة، قول لا مستند له من دليل شرعي أصلاً. اهـ المراد.

...

ثم عين **رمه الله تعالى** بعض هؤلاء الناصرين لهذا القول، فذكر ما نظمه في هذه الشبهة صاحب "مراقي السعود" تبعا للقراقي:

من لم يكن مجتهدا فالعمل منه بمعنى النص مما يحظر

ثم قال العلامة الشنقيطي (ص ٤٦١): وقال صاحب "مراقي السعود" في "نشر البنود" في شرحه لبيته المذكور آنفا ما نصه: يعني أن غير المجتهد يحظر له، أي: يمنع، أن يعمل بمعنى نص من كتاب، أو سنة، وإن صح سندها، لاحتمال عوارضه من نسخ، وتقييد، وتخصيص، وغير ذلك من العوارض التي لا يضبطها إلا المجتهد، فلا يخلصه من الله إلا تقليد مجتهد. قاله القراقي. اهـ محل الغرض منه بلفظه. اهـ.

ما تستلزمه الشبهة المذكورة من البهتان العظيم:

قال الإمام الشوكاني في "إرشاد الفحول" (ص ٤٢٣-٤٢٤): وليس ما يقوله من كان من أسراء التقليد بلازم لمن فتح الله عليه أبواب المعارف، ورزقه من العلم ما يخرج به عن تقليد الرجال. وما هذه بأول فاقرة جاء بها المقلدون، ولا هي بأول مقالة قالها المقصرون.

ومن حصر فضل الله على بعض خلقه، وقصر فهم هذه الشريعة المطهرة على من تقدم عصره، فقد تجرأ على الله **عز وجل**، ثم على شريعته الموضوعة لكل عباده، ثم على عباده الذين تعبدهم الله بالكتاب والسنة.

ويا لله العجب من مقالات هي جهالات وضلالات؛ فإن هذه المقالة تستلزم رفع التعبد بالكتاب والسنة، وأنه لم يبق إلا تقليد الرجال الذين هم متعبدون بالكتاب والسنة كتعبد من جاء بعدهم على حد سواء. فإن كان التعبد بالكتاب

والمجتهد هو الموصوف بكذا وكذا أوصافاً، لعلها لا توجد تامة في أبي بكر وعمر.

والسنة مختصا به بمن كانوا في العصور السابقة، ولم يبق لهؤلاء إلا التقليد لمن تقدمهم، ولا يتمكنون من معرفة أحكام الله من كتاب الله وسنة رسوله، فما الدليل على هذه التفرقة الباطلة، والمقالة الزائفة، وهل النسخ إلا هذا؟! سبحانك هذا بهتان عظيم!! اهـ.

قوله: ﴿الموصوف بكذا وكذا أوصافاً﴾ نقل العلامة الشنفيطي في ”الأضواء“ (٥٠٩-٥١١) هذه الشروط عن القائلين بها، وبين مستندهم فيها، وتعقبه بما في هذا المستند من النظر؛ إذ قال: اعلم أولاً أن المتأخرين من أهل الأصول الذين يقولون بمنع العمل بالكتاب والسنة مطلقاً إلا للمجتهدين، يقولون: إن شروط الاجتهاد هي كون المجتهد:

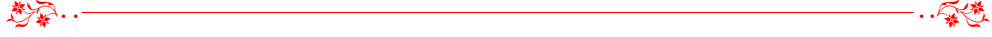
بالغاً، عاقلاً، شديد الفهم طبعاً،

عارفاً بالدليل العقلي الذي هو استصحاب العدم الأصلي حتى يرد نقل صارف عنه،

عارفاً باللغة العربية وبالنحو من صرف وبلاغة، مع معرفة الحقائق الشرعية والعرفية. وبعضهم يزيد المحتاج إليه من فن المنطق كشرائط الحدود، والرسوم، وشرائط البرهان.

عارفاً بالأصول،

عارفاً بأدلة الأحكام من الكتاب والسنة. ولا يشترط عندهم حفظ النصوص، بل يكفي عندهم علمه بمداركها في المصحف وكتب الحديث.



عامر فابمواقع الإجماع والخلاف.

عامر فابشروط المتواتر والآحاد، والصحيح والضعيف.

عامر فابالناسخ والمنسوخ،

عامر فابأسباب النزول،

عامر فابأحوال الصحابة وأحوال مرواة الحديث.

واختلفوا في شرط عدم إنكاره للقياس. اهـ.

ولا يخفى أن مستندهم في اشتراطهم لهذه الشروط ليس نصا من كتاب ولا سنة، يصرح بأن هذه الشروط كلها لا يصح دونها عمل بكتاب ولا سنة، ولا إجماعا دالا على ذلك. وإنما مستندهم في ذلك هو تحقيق المناط في ظنهم.

وأيضاح ذلك هو أن كتاب الله، وسنة رسوله ﷺ، وإجماع المسلمين، كلها دال على العمل بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، لا يشترط له إلا شرط واحد، وهو العلم بحكم ما يعمل به منهما. ولا يشترط في العمل بالوحي شرط زائد على العلم بحكمه ألبة! وهذا مما لا يكاد يناع فيه أحد.

ومراد متأخري الأصوليين بجميع الشروط التي اشترطوها هو تحقيق المناط؛ لأن العلم بالوحي لما كان هو مناط العمل به أرادوا أن يحققوا هذا المناط -أي: يبينوا الطرق التي يتحقق بها حصول العلم الذي هو مناط العمل-. فاشترطوا جميع الشروط المذكورة ظنا منهم أنه لا يمكن تحقيق حصول العلم بالوحي دونها. وهذا الظن فيه نظر؛ لأن كل إنسان له فهم إذا أراد العمل بنص من كتاب، أو سنة، فلا يمتنع عليه، ولا يستحيل، أن يتعلم معناه، ويبحث عنه هل هو منسوخ، أو مخصص، أو مقيد، حتى يعلم ذلك فيعمل به. وسؤال أهل العلم؛ هل لهذا

..

النص ناسخ، أو مخصص، أو مقيد، مثلاً. وإخبارهم بذلك ليس من نوع التقليد، بل هو من نوع الاتباع. اهـ المراد.

بِهِ بَيَانُ اكْتِفَاءِ الْعِلْمِ بِالْحُكْمِ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ لِلْعَمَلِ بِهِمَا:

الحق ما تدل عليه الأدلة من اكتفاء العلم بالحكم بما في الكتاب والسنة للعمل بهما دون سائر الشروط السابق ذكرها.

وقد حشد الإمام الشنقيطي رحمته الله في “الأضواء” (٧/ ٥١١-٥١٥) ما يكفي من الأدلة لتقرير المسألة؛ إذ قال: إن نصوص الكتاب والسنة التي لا تحصى واردة بإلزام جميع المكلفين بالعمل بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وليس في شيء منها التخصيص بمن حصل شروط الاجتهاد المذكورة. وسنذكر طرفاً منها؛ لنبين أنه لا يجوز تخصيصها بتحصيل الشروط المذكورة.

قال الله **نساء**: ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٣]، والمراد بما أنزل إليكم هو القرآن والسنة المبينة له، لا آراء الرجال.

وقال **نساء**: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا﴾ [النساء: ٦١]، فدلّت هذه الآية الكريمة أن من دعي إلى العمل بالقرآن والسنة وصد عن ذلك أنه من جملة المنافقين؛ لأن العبرة بعموم الألفاظ، لا بخصوص الأسباب.

وقال **نساء**: ﴿فَإِنْ تَنَزَّعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ الآية [النساء: ٥٩]، والرد إلى الله والرسول هو الرد إلى كتابه والرد إلى الرسول بعد وفاته ﷺ هو الرد إلى سنته. وتعليقه الإيمان في قوله:

﴿إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ﴾ على رد التنازع إلى كتاب الله وسنة رسوله يفهم منه أن من يرد التنازع إلى غيرهما لم يكن يؤمن بالله.

قال **نعل:** ﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمْ
الْعَذَابُ بَغْةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [الزمر: ٥٥]، ولا شك أن القرآن أحسن ما
أنزل إلينا من ربنا، والسنة مبينة له، وقد هدد من لم يتبع أحسن ما أنزل إلينا من
ربنا بقوله: ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمْ الْعَذَابُ بَغْةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾.

قال **نمل:** ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمْ اللَّهُ وَأُولَٰئِكَ هُمُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ١٨]، ولا شك أن كتاب الله وسنة رسوله أحسن من آراء الرجال.

وقال **نمل:** ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الحشر: ٧]، وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ فيه تهديد شديد لمن لم يعمل بسنة رسول الله ﷺ، ولا سيما إن كان يظن أن أقوال الرجال تكفي عنها.

وقال **نصارى**: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ﴾
وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ [الأحزاب: ٢١]، والأسوة الاقتداء، فيلزم المسلم أن يجعل قدوته
رسول الله ﷺ، وذلك باتباع سنته.

وقال **نساء:** ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥]، وقد أقسم **نساء** في هذه الآية الكريمة أنهم لا يؤمنون حتى يحكموا النبي ﷺ في كل ما اختلفوا فيه.

..

وقال **نعل**: ﴿فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بَعْدَ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ **[القصص: ٥٠]**، والاستجابة له ﷺ بعد وفاته هي الرجوع إلى سنته ﷺ، وهي مبينة لكتاب الله.

قد جاء في القرآن العظيم أن النبي ﷺ لا يتبع شيئاً إلا الوحي، وأن من أطاعه ﷺ فقد أطاع الله، قال **نعل** في سورة يونس: ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ **[يونس: ١٥]**، وقال **نعل** في الأنعام: ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبِ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ **[الأنعام: ٥٠]**، وقال **نعل** في الأحقاف: ﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرَىٰ مَا يَفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ **[الأحقاف: ٩]**، قال **نعل** في الأنبياء: ﴿قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُم بِالْوَحْيِ﴾ الآية **[الأنبياء: ٤٥]**، فحصر الإنذار في الوحي دون غيره. وقال **نعل**: ﴿قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ رَبِّي﴾ الآية **[سبأ: ٥٠]**، فبين أن الاهتداء إنما هو بالوحي، والآيات بمثل هذا كثيرة.

وإذا علمت منها أن طريقه ﷺ هي اتباع الوحي فاعلم أن القرآن دل على أن من أطاعه ﷺ فهو مطيع لله، كما قال **نعل**: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ **[النساء: ٨٠]**، وقال **نعل**: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ الآية **[آل عمران: ٣١]**. ولم يضمن الله لأحد ألا يكون ضالاً في الدنيا ولا شقياً في الآخرة إلا لمتبعي الوحي وحده، قال **نعل** في طه: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ

...

أَتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى ﴿طه: ١٢٣﴾، وقد دلت آية طه هذه على انتفاء الضلال والشقاوة عن متبعي الوحي. ودلت آية البقرة على انتفاء الخوف والحزن عنه، وذلك في قوله **نعل:** ﴿فَإِنَّمَا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٣٨]. ولا شك أن انتفاء الضلال، والشقاوة، والخوف، والحزن، عن متبعي الوحي، المصرح به في القرآن، لا يتحقق في من يقلد عالما ليس بمعصوم، لا يدري أصواب ما قلده فيه، أم خطأ، في حال كونه معرضا عن التدبر في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ. ولا سيما إن كان يظن أن آراء العالم الذي قلده كافية، مغنية، عن كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

والآيات القرآنية الدالة على لزوم اتباع الوحي والعمل به لا تكاد تحصى، وكذلك الأحاديث النبوية الدالة على لزوم العمل بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ لا تكاد تحصى؛ لأن طاعة الرسول طاعة الله. اهـ المراد.

ثم ذكر **رحمة الله** آيات مبينة للأمر الصريح بطاعة الله وطاعة نبيه ﷺ، ثم قال: ولا شك عند أحد من أهل العلم أن طاعة الله ورسوله المذكورة في هذه الآيات ونحوها من نصوص الوحي محصورة في العمل بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

فنصوص القرآن والسنة كلها دالة على لزوم تدبر الوحي، وتفهمه، وتعلمه، والعمل به، فتخصيص تلك النصوص كلها بدعوى أن تدبر الوحي، وتفهمه، والعمل به، لا يصح شيء منه إلا لخصوص المجتهدين الجامعين لشروط الاجتهاد المعروفة عند متأخري الأصوليين يحتاج إلى دليل يجب الرجوع إليه، ولا دليل على ذلك ألبتة. بل أدلة الكتاب والسنة دالة على وجوب تدبر الوحي، وتفهمه، وتعلمه، والعمل بكل ما علم منه، علما صحيحا، قليلا كان، أو كثيرا. اهـ.

ومن طلب الهدى منهما فهو إما زنديق، وإما مجنون، لأجل صعوبة فهمها.

.....

قوله: {إما زنديق، وإما مجنون} قال الشيخ ابن برجس في شرحه لـ “الأصول الستة” (ص ١٣٣): ذكر لفظة «مجنون» و«زنديق»؛ لأنها من الكلمات التي كانت توجه إليه. اهـ المراد.

بعض من أشنع الباطل القول بكفر الأئمة بنظائر النص كقوله:

من النمط الذي ذكره المصنف هنا تصريح الصاوي أحمد بكون الأخذ بظاهر الكتاب والسنة من أصول الكفر، نقله عنه الإمام الشنقيطي رحمته الله في “الأضواء” (٤٦٦/٧-٤٦٧) بعد ذكر الاغترار بهذا القول ممن لا يحصى كثرة من المتسمين باسم طلبة العلم، ثم رد ذلك الباطل؛ حيث قال: أما قوله: «إن الأخذ بظواهر الكتاب والسنة من أصول الكفر» فهذا أيضاً، من أشنع الباطل وأعظمه، وقائله من أعظم الناس انتهاكا لحزمة كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، سبحانه هذا بهتان عظيم!

والتحقيق الذي لا شك فيه، وهو الذي كان عليه أصحاب رسول الله ﷺ وعامة علماء المسلمين، أنه لا يجوز العدول عن ظاهر كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ في حال من الأحوال بوجه من الوجوه، حتى يقوم دليل صحيح شرعي، صارف عن الظاهر إلى المحتمل المرجوح. اهـ المراد.

قوله: {صعوبة فهمها} قد ذكر هذه الشبهة المقلدون قديما، فقد نقلها الحافظ ابن عبد البر رحمته الله في “جامع بيان العلم” (٢/٢٨٥-٢٨٦) عن طائفة من طلاب العلم من أهل زمانه في بلده؛ حيث قال: وطائفة هي في الجهل كتلك، أو أشد، لم

يعنوا بحفظ سنة، ولا الوقوف على معانيها، ولا بأصل من القرآن، ولا اعتنوا بكتاب الله **عز وجل**، فحفظوا تنزيله، و[لا] عرفوا ما للعلماء في تأويله، ولا وقفوا على أحكامه، ولا تفقهوا في حلاله وحرامه.

قد ا طرحوا علم السنن والآثار، وزهدوا فيها، وأضربوا عنها، فلم يعرفوا الإجماع من الاختلاف، ولا فرقوا بين التنازع والائتلاف. بل عولوا على حفظ ما دون لهم من الرأي والاستحسان الذي كان عند العلماء آخر العلم والبيان.

وكان الأئمة ييكون على ما سلف، وسبق لهم من الفتوى فيه، ويودون أن حظهم السلامة منه.

ومن حجة هذه الطائفة في ما عولوا عليه أنهم يقصرون، وينزلون، [عن] مراتب من له المراتب في الدين بجهلهم بأصوله... اهـ المراد.

يُقرَّب من المتعلمين لتبسيط صعوبة فهم الكتاب والسنة:

قد جاء المقلدون القائلون بالشبهة المتقدمة لترويجها بين الناس بأسلوب آخر، زينوها به، وذلك ما نقله عنهم الإمام الشنقيطي رحمته الله في "الأضواء" (٧/ ٥٨٤ - ٥٨٥)؛ فقال: اعلم أنه لا يخفى علينا أن المقلدين التقليد الأعمى المذكور يقولون: هذا الذي تدعوننا إليه، وتأمروننا به، من العمل بالكتاب والسنة وتقديمهما على آراء الرجال، من التكليف بما لا يطاق؛ لأننا لا قدرة لنا على معرفة الكتاب والسنة حتى نعمل بهما.

ولا يمكننا معرفة شيء من الشرع إلا عن طريق الإمام الذي نقلده؛ لأننا لم نتعلم نحن ولا آباؤنا شيئاً غير ذلك. فإذا لم نقلد إمامنا بقينا في حيرة، لا نعلم شيئاً من أحكام عبادتنا ولا معاملتنا، وتعطلت بيننا الأحكام؛ إذ لا نعرف

فسبحان الله ومحمده، كم بين الله سبحانه شرعا وقدرًا، خلقا وأمرًا، في رد هذه الشبهة الملعونة من وجوه شتى، بلغت إلى حد الضروريات العامة،...

.....

قضاء، ولا فتوى، ولا غير ذلك من الأحكام، إلا عن طريق مذهب إمامنا؛ لأن أحكامه مدونة عندنا، وهي التي نتعلمها، ونتدارسها، دون غيرها من الكتاب، أو السنة، وأقوال الصحابة، ومذاهب الأئمة الآخرين.

ونحن نقول: والله لقد ضيقتم واسعًا، وادعيتم العجز وعدم القدرة في أمر سهل. اهـ المراد.

قوله: ﴿في رد هذه الشبهة﴾ تقدم إبطال القول بمنع العمل بالكتاب والسنة من من حيث الأمر، وفي ما يلي ما تيسر جمعه في رد ذلك من غير هذه الحثية...

بـ رد منع العمل بالكتاب والسنة من الحثية الشرعية:

يرد منع العمل بالكتاب والسنة ما شرعه الله سبحانه لعباده من الاهتداء بكتابه العزيز وسنة نبيه ﷺ. وفي هذا المعنى ما قاله العلامة الشنقيطي في “الأضواء” (٧/ ٤٦٥): الله جل وعلا يقول: ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ [العنكبوت: ٤٩]، ويقول: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٥٢]، فلا شك أن الذي يتباعد عن هداية يحاول التباعده عن هدى الله ورحمته.

ولا شك أن هذا القرآن العظيم هو النور الذي أنزله الله إلى أرضه؛ ليستضاء به، فيعلم في ضوئه الحق من الباطل، والحسن من القبيح، والنافع من الضار، والرشد من الغي، قال الله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأُنزِلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾ [النساء: ١٧٤]، وقال تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ

..

نُورٌ وَكِتَبٌ مُبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿المائدة﴾، وقال **نصا:** ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا أَلَكِتَبُ وَلَا الْإِيمَنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى: ٥٢]، وقال **نصا:** ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا﴾ [التغابن: ٨]، وقال **نصا:** ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ وَ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [التغابن: ١٥٧].

فإذا علمت أيها المسلم! أن هذا القرآن العظيم هو النور الذي أنزله الله؛ ليستضاء به، ويهتدى بهداه، في أرضه فكيف ترضى لبصيرتك أن تعمى عن النور؟! اهـ المراد.

به ر و منع العمل بالكتاب والسنة من حيث القرار:

يرد منع العمل بالكتاب والسنة ما قدره الله **نصا** حيث يسر على عباده تعلم ما فيهما، ثم العمل بهما. أفاد الإمام الشنقيطي في "الأضواء" (٧/ ٤٦٤)؛ حيث قال: إن كان قصدهم أن تعلمهما صعب، لا يقدر عليه، فهو أيضا زعم باطل؛ لأن تعلم الكتاب والسنة أيسر من تعلم مسائل الآراء والاجتهاد المنتشرة، مع كونها في غاية التعقيد والكثرة. والله **جل وعلا** يقول في سورة القمر مرات متعددة: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُدَكِّرٍ﴾ [القمر: ١٧]، ويقول **نصا** في الدخان: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [الدخان: ٥٨]، ويقول في مريم: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لَّدَا﴾ [مريم: ٩٧].

فهو كتاب ميسر بتيسير الله لمن وفقه الله للعمل به. اهـ المراد.

..

والتوفيق بيد الله، يتفضل به على من يشاء، وقد تقدم ذكر العلامة المعلمي له، ثم نبه؛ حيث قال فيه: إنما الشأن في سبب حصوله، وقد بينه الله **تبارك وتعالى** بقوله: **﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩]**. اهـ المراد.

ولذلك قال العلامة الشنقيطي (ص ٤٦٦): وبهذا تعلم أيها المسلم المنصف! أنه يجب عليك الجد والاجتهاد في تعلم كتاب الله وسنة رسوله **ﷺ**، وبالوسائل النافعة، المنتجة، والعمل بكل ما علمك الله منهما علما صحيحا. ولتعلم أن تعلم كتاب الله وسنة رسوله في هذا الزمان أيسر منه بكثير في القرون الأولى لسهولة معرفة جميع ما يتعلق بذلك من ناسخ ومنسوخ، وعام وخاص، ومطلق ومقيد، ومجمل ومبين، وأحوال الرجال من رواة الحديث، والتمييز بين الصحيح والضعيف؛ لأن الجميع ضبط، وأتقن، ودون، فالجميع سهل التناول اليوم. اهـ.

بـ ر و منع العمل بالكتاب والسنة من حيث المحل:

ويرد منع العمل بالكتاب والسنة ما خلقه الله **سبحانه وتعالى** في العبد من الآلات والقدرة على تعلمهما والعمل بهما. وفي هذا المعنى ما أفاده الإمام الشنقيطي **رحمته الله** في “أضواء البيان” (٥٨٦/٧)؛ حيث قال: ودعوى أن تعلمهما غير مقدور عليه لا يشك في بطلانها عاقل، ونعيذ أنفسنا وإخواننا بالله أن يدعوا على أنفسهم أن على قلوبهم أكنة، وفي آذانهم وقرا، يمنعهم من فهم كتاب الله؛ لأن ذلك قول الكفار، لا قول المسلمين، قال الله **تعالى**: **﴿حَمَّ ﴿١﴾ تَنْزِيلُ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَابٌ فُصِّلَتْ ءَايَاتُهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ**

فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٤﴾ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِيْ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِيْ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَمِلُونَ ﴿٥﴾ [فصلت].

ويصب في هذا المعنى قول شيخ الإسلام **رحمته الله** كما في "تفسيره" (٥/ ٥٥٨):
وقال **نعل:** ﴿أَفَلَا يَتَذَبَّرُونَ الْقُرْءَانَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: ٢٤]، وقال
نعل: ﴿أَفَلَمْ يَذَبَرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ [المؤمنون:
٦٨]، وقال **نعل:** ﴿أَفَلَا يَتَذَبَّرُونَ الْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا
فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢]. فإذا كان قد حض الكفار والمنافقين على
تدبره علم أن معانيه مما يمكن الكفار والمنافقين فهمها ومعرفتها، فكيف لا يكون
ذلك ممكنا للمؤمنين! وهذا يبين أن معانيه كانت معروفة، بينة، لهم. اهـ.

ويوضح هذا المعنى ما قال الإمام الشنقيطي رحمه الله في "الأضواء" (٧/ ٤٥٩ - ٤٦٠): ومما يوضح ذلك أن المخاطبين الأولين به، الذين نزل فيهم، هم المنافقون والكفار، ليس أحد منهم مستكملاً لشروط الاجتهاد المقررة عند أهل الأصول، بل ليس عندهم شيء منها أصلاً. فلو كان القرآن لا يجوز أن ينتفع بالعمل به والاهتداء بهديه إلا المجتهدون بالاصطلاح الأصولي لما وبخ الله الكفار، وأنكر

..

عليهم عدم الاهتداء بهداه، ولما أقام عليهم الحجة به، حتى يحصلوا شروط الاجتهاد المقررة عند متأخري الأصوليين، كما ترى.

ومعلوم أن من المقرر في الأصول أن صورة سبب النزول قطعية الدخول، وإذا فدخل الكفار والمنافقين في الآيات المذكورة قطعي. ولو كان لا يصح الانتفاع بهدي القرآن إلا لخصوص المجتهدين لما أنكر الله على الكفار عدم تدبرهم كتاب الله وعدم عملهم به، وقد علمت أن الواقع خلاف ذلك قطعاً.

ولا يخفى أن شروط الاجتهاد لا تشترط إلا في ما فيه مجال للاجتهاد. والأمر المنصوصة في نصوص صحيحة من الكتاب والسنة لا يجوز الاجتهاد فيها لأحد حتى تشترط فيها شروط الاجتهاد، بل ليس فيها إلا الاتباع. اهـ.

بـ ر و منع العمل بالكتاب والسنة من المحببة الأصولية:

رأينا المناسبة في هذا الموضع للجواب عما قدمنا ذكره من منع بعضهم العمل بالكتاب والسنة لاحتمال وجود المخصص، والمقيد، والمبين... وإلى غير ذلك من الأمور التي لم يضبطها إلا المجتهد.

وفي الجواب عن ذلك ما قاله العلامة الشنقيطي في “الأضواء” (٧/ ٤٦١ -

٤٦٢): وهو مردود من وجهين:

الأول أن الأصل السلامة من النسخ، حتى يثبت ورود النسخ، والعام ظاهر في العموم، حتى يثبت ورود المخصص، والمطلق ظاهر في الإطلاق، حتى يثبت ورود المقيد، والنص يجب العمل به، حتى يثبت النسخ بدليل شرعي، والظاهر يجب العمل به عموماً كان، أو إطلاقاً، أو غيرهما، حتى يرد دليل صارف عنه إلى المحتمل المرجوح، كما هو معروف في محله.

وأول من زعم أنه لا يجوز العمل بالعام، حتى يبحث عن المخصص، فلا يوجد، ونحو ذلك، أبو العباس بن سريج. وتبعه جماعات من المتأخرين، حتى حكوا على ذلك الإجماع حكاية لا أساس لها.

وقد أوضح ابن القاسم العبادي في "الآيات البينات" غلطهم في ذلك، في كلامه على شرح المحلي لقول ابن السبكي في "جمع الجوامع": ويتمسك بالعام في حياة النبي ﷺ قبل البحث عن المخصص، وكذا بعد الوفاة، خلافا لابن سريج. اهـ. وعلى كل حال فظواهر النصوص من عموم، وإطلاق، ونحو ذلك، لا يجوز تركها إلا لدليل يجب الرجوع إليه من مخصص، أو مقيد، لا لمجرد مطلق الاحتمال كما هو معلوم في محله. فادعاء كثير من المتأخرين أنه يجب ترك العمل به، حتى يبحث عن المخصص والمقيد مثلاً، خلاف التحقيق. اهـ.

من تمسك الصحابة رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ بالعام قبل البحث عن المخصص ما في "صحيح البخاري" (٣٢) عن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، أنه قال: لما نزلت ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام: ٨٢] قال أصحاب رسول الله ﷺ: أينما لم يظلم؟ فأنزل الله ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣].

قال الحافظ **رمه (الله تعالى)** في "الفتح" (١ / ١٢٠) في شرح الحديث: وفي المتن من الفوائد الحمل على العموم حتى يرد دليل الخصوص. اهـ.

قال العلامة الشنقيطي عقب ما تقدم نقله في الوجه الثاني من الجواب:

الوجه الثاني أن غير المجتهد إذا تعلم آيات القرآن، أو بعض أحاديث النبي ﷺ؛ ليعمل بها تعلم ذلك النص العام، أو المطلق، وتعلم معه مخصصه ومقيده، إن كان مخصصا، أو مقيدا، وتعلم ناسخه، إن كان منسوخا. وتعلم ذلك سهل

﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٧]، ﴿لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ٧ ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ﴾ ٨ ﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ ٩ ﴿وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ١٠ ﴿إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبَ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾ [يس].

.....

جدا بسؤال العلماء العارفين به، ومراجعة كتب التفسير والحديث المعتد بها في ذلك.

والصحابا كانوا في العصر الأول يتعلم أحدهم آية فيعمل بها، وحديثا فيعمل به، ولا يمتنع من العمل بذلك حتى يحصل رتبة الاجتهاد المطلق.

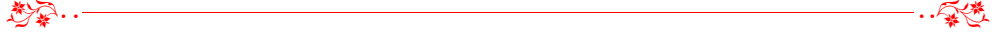
وربما عمل الإنسان بما علم، فعلمه ما لم يكن يعلم، كما يشير له قوله **نعا:** ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٢]، وقوله **نعا:** ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا﴾ [الأنفال: ٢٩]، على القول بأن الفرقان هو العلم النافع، الذي يفرق به بين الحق والباطل، وقوله **نعا:** ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَءَامِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ﴾ الآية [الحديد: ٢٨]. وهذه التقوى التي دلت الآيات على أن الله يعلم صاحبها بسببها ما لم يكن يعلم لا تزيد على عمله بما علم من أمر الله، وعليه فهي عمل ببعض ما علم زاده الله به علم ما لم يكن يعلم. اهـ المراد.

قوله: ﴿لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾... قال الشيخ ابن برجس **رحمة الله** في شرحه لـ "الأصول الستة" (ص ١٣٥): ختم المؤلف بالآيات،

قال الشيخ محمد تقي الدين في "سبيل الرشاد" (٢/ ٤٢٠) في كلامه على هذه الآيات: أخبر الله سبحانه وتعالى مؤكدا بالقسم وغيره من المؤكدات أن محمدا ﷺ من المرسلين، وأنه على صراط مستقيم، كل من اتبعه سعد، وكل من خرج عنه شقي. وأخبر سبحانه أنه أنزل هذا القرآن على رسوله؛ لينذر به أهل الأرض كلهم عامة، والعرب خاصة، إذ لم يرسل إليهم نذير من قبله، ولا كان عندهم كتاب يرجعون إليه ولا سنة نبي يتمسكون بها، فهم لذلك في غاية الغفلة، والجهالة، والظلمة.

قال الإمام ابن القيم **رحمه الله تعالى** كما في "تفسيره" (٣٥٨ / ٢): إن قيل: فما وجه التشبيه بين هذا وبين حبس القلب عن الهدى والإيمان؟ قيل: أحسن وجه وأبينه؛ فإن الغل إذا كان في العنق واليد مجموعة إليها منع اليد عن التصرف والبطش.

فأخبر سبحانه عن الموانع التي منعهم بها من الإيمان عقوبة لهم، ومثلها بأحسن تمثيل وأبلغه، وذلك حال قوم قد وضعت الأغلال العريضة الواصلة إلى الأذقان



في أعناقهم، وضمت أيديهم إليها، وجعلوا بين السدين لا يستطيعون النفوذ من بينهما، وأغشيت أبصارهم فهم لا يرون شيئاً.

وإذا تأملت حال الكافر الذي عرف الحق، وتبين له، ثم جحدته، وكفر به، وعاداه أعظم معاداة، وجدت هذا المثل مطابقاً له أتم مطابقة، وأنه قد حيل بينه وبين الإيمان، كما حيل بين هذا وبين التصرف، والله المستعان. اهـ.

وقال الشيخ تقي الدين عقب كلامه السابق نقله: ثم أخبر **سبحانه وتعالى** أن الذين ينتفعون بالإنذار هم الذين يستمعون القرآن، ويتبعونه، ويمنعهم خوف الله **تعالى** عن مخالفة القرآن والرسول **ﷺ**، فأولئك بشرهم الله بمغفرة ذنوبهم، وبالأجر العظيم، والثواب الجزيل، في الدنيا والآخرة.

وصدق الله وعده، فانتصروا على أعدائهم، واستولوا على مشارق الأرض ومغاربها، وأذغت لهم أمم الأرض وشعوبها... ومضوا على ذلك قروناً طوالاً، حتى نبذوا القرآن والسنة، فسلبهم الله ما وهبهم، وجعلهم عبرة لأولي الأبصار. ولا يزال باب التوبة مفتوحاً أمامهم لو رجعوا إلى رشدهم، وأنابوا إلى ربهم. اهـ.

بسم من التمار الطيبة للرحمناء بهزرا (الأصل):

قال الشيخ ابن برجس في المصدر السابق (ص ١٣٢): من بركات دعوة الشيخ لهذا الأصل أنها فتحت باب الاجتهاد للأمة. وكان في عصر الشيخ محمد ابن عبد الوهاب الشيخ محمد حياة، وكان من علماء الحديث في عصره، وكذلك الأمير الصنعاني، وكانوا يدعون إلى فتح باب الاجتهاد في هذا العصر. اهـ المراد.



خاتمة في هذا الأصل

ورأيت الختم لهذا الأصل بنقل كلام لشيخ تقي الدين الهلالي رحمته الله يبين فيه وجوب الرجوع إلى الكتاب والسنة وبند التعصب؛ حيث قال في **"سبيل الرشاد"** (٢/ ٤٢٣-٤٢٤): والمهم هنا هو قوله **نعاد**: ﴿لِيُنذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [يس: ٧٠]، فجعل الناس فريقين:

فريقاً أحياء القلوب، يتلقون القرآن وبيانه بالقبول، ويؤمنون به، ويتبعونه، كما قال **نعم:** ﴿أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾ [الأنعام: ١٢٢]،

وفريقاً أموات القلوب، وهم الكافرون والمنافقون.

لا ثالث لهذين القسمين، فمن رد القرآن وبيانه لتقليد، أو وليجة أخرى من الولائج، فهو من أموات القلوب. قال العلامة محمد بن أبي مدين في "الصوارم" وفي الجزء الأول من "شرح الخطاب لمختصر خليل"، عازيا إياه لتقي الدين السبكي يخاطب أصحاب المذاهب الأربعة، ما نصه: «وأما تعصبكم في فروع الدين، وحملكم الناس على مذهب واحد، فهو الذي لا يقبله الله منكم، ولا يحملكم عليه إلا محض التعصب والتحاسد.

ولو أن الشافعي، ومالكا، وأبا حنيفة، وأحمد، وأحياء، يرزقون، لشددوا النكير عليكم، وتبرءوا منكم في ما تفعلون». اهـ منه بلفظه.

وفي "الرد على من أخلد إلى الأرض" للسيوطي ما نصه: «قال ابن حزم في كتابه "النبد الكافية في علم الأصول": «التقليد حرام، ولا يحل لأحد أن يأخذ قول

أحد [غير رسول الله ﷺ] بلا برهان لقوله **نعا:** ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ [الأعراف: ٣]، وقوله **نعا:** ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ [البقرة: ١٧٠].

وقال في حق من لم يقلد: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ۖ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ۚ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَأُولَٰئِكَ هُمُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ١٧].

وقال **نعا:** ﴿فَإِنْ تَنَزَّعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [النساء: ٥٩]، فلم يبح الله **نعا** الرد عند التنازع إلى أحد دون القرآن والسنة. وقد صح إجماع الصحابة كلهم، وإجماع جميع التابعين، وإجماع تابعي التابعين، على الامتناع، والمنع من أن يقصد منهم أحد إلى قول إنسان منهم، أو ممن قبلهم، فيأخذه كله.

فليعلم من أخذ بجميع أقوال أبي حنيفة، أو جميع أقوال مالك، أو جميع أقوال الشافعي، أو جميع أقوال أحمد، [ممن يتمكن من النظر، ولم يترك من اتبعه منهم إلى غيره]، أنه قد خالف إجماع الأمة كلها بيقين، لا إشكال فيه، وأنه لا يجد لنفسه سلفاً في جميع الأعصار المحمود الثلاثة، فقد اتبع غير سبيل المؤمنين، نعوذ بالله من هذه المنزلة...». اهـ المراد منه بلفظه. اهـ المراد.



والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على نبينا محمد، وآله، وصحبه، وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين.

..

قوله: ﴿والحمد لله رب العالمين وصلى الله على نبينا محمد﴾ قال الشيخ صالح بن فوزان رحمته الله في شرحه لـ **"الأصول الستة"** (ص ٥١): ختم الرسالة بمثل ما بدأها به بحمد الله والصلاة والسلام على رسوله، وهذا من محاسن التأليف والتعليم، وذلك بالثناء على الله أولاً وآخرها. اهـ.

وفي ختام هذا الشرح أحببت أن أسوق من آثار دعوة الإمام المجدد محمد بن عبد الوهاب رحمته الله ما يلي...

بعض نكتة في مكوش ما ينفع الناس وفوهاب الزبير نسباً منسباً:

قال الشيخ عبد اللطيف كما في **"الدرر السنية"** (١٢ / ٣٠٠ - ٣٠٢): أتانا من رجل من بريدة نسخة لابن منصور، خطه بيده، أكثر فيها السباب لشيخ الإسلام والاعتراض عليه في ما دعا إليه من دين المرسلين، الذي افترضه الله على الخلق أجمعين، وهو إخلاص الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة للكبير، المتعال، وإنكار ما ينافي ذلك من الشرك والضلال. فرحم الله شيخ الإسلام، فلقد أنقذ الله به من الهلاك الخلق الكثير والجم الغفير، وأطبق على الثناء عليه بمقامه هذا جميع أهل نجد، والحجاز، وتهامة، وعمان، وكثير من علماء الحرمين، ومصر، والعراق، والشام، حتى من أهل المغرب، وبلاد الروم، كلهم، أو غالبهم، بين من يثني على صاحب هذه الدعوة، ويدعو له. ومن ليس كذلك فلا يظهر منه إنكار.

وكثير منهم عاداه في أول هذه الدعوة، ثم رجع واعترف، فله الحمد على دعوته إلى هذا التوحيد، وتأيينه بالنصر والظهور على من ناوأه، وناوأ أتباعه. وما

..

ناوأهم أحد إلا وينقلب مدحورا، مكسورا... إلى غير ذلك مما يطول عده من الآيات التي جرت برهاننا لصحة هذا الدين، الذي اتفقت عليه في دعوة المرسلين. فهذا هو الذي أوجب عداوته لشيخ الإسلام **رمه الله تعالى**، فسلك مسلك أشياخه الثلاثة في عداوة التوحيد ومن دعا إليه.

ولله در العلامة ابن القيم **رمه الله تعالى**؛ حيث يقول: فلا بد لكل نعمة من حاسد، ولكل حق من جاحد ومعاند... -ثم ذكر جنس هؤلاء الجاحدين، المعاندين؛ فقال **رمه الله تعالى**:- اللهم! فعياذا بك ممن قصر في الحق اتباعه، وطالت في الجهل، وأذى عبادك، باعه. فهو لجهله يرى الإحسان إساءة، والسنة ذراعة، والعرف نكرا، والظلمة نورا، ويجزي بالحسنة سيئة كاملة، وبالسيئة الواحدة عشرا.

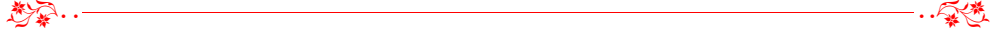
قد اتخذ بطر الحق وغمط الناس سلما إلى ما يحبه من الباطل، ويرضاه. ولا يعرف من المعروف، ولا ينكر من المنكر، إلا ما وافق إرادته، أو خالف هواه. يستطيل على أولياء الرسل وحزبه بأصغريه.

ويجالس أهل الغي والجهالة، ويزاحمهم بركبتيه، قد ارتوى من ماء آجن، وتضلع، واستشرف إلى وراثة الأنبياء، وتطلع.

يركض في ميدان جهل مع الجاهلين، ويبرز عليهم الجهالة، فيظن أنه من السابقين، وهو عند الله، ورسوله، والمؤمنين، عن تلك الوراثة النبوية بمعزل.

وعياذا بك ممن جعل الملامة بضاعته والعدل نصيحته، فهو دائما يبدي في الملامة، ويعيد، ويكرر، على العدل، فلا يفيد، ولا يستفيد.

بل عياذا بك من عدو في صورة ناصح، وولي في مسلاخ بعيد، كاشح، يجعل عداوته وأذاه حذارا وإشفاقا، وتنفيذه وتخليده إسعافا وإرفاقا.



وإذا كانت العين لا تكاد إلا على أمثالهم تفتح والميزان بهم يخف، ولا يرجح،
فما أحرى اللبيب بأن لا يعيرهم من قلبه جزءا من الالتفات، ويسافر في طريق
مقصده بينهم سفره إلى الأحياء بين الأموات. وما أحسن ما قال القائل:
وفي الموت قبل الموت موت لأهله وأجسامهم قبل القبور قبور
وأرواحهم في وحشة من جسومهم وليس لهم حتى النشور نشور
اللهم! فلك الحمد، وإليك المشتكى، وأنت المستعان، وبك المستغاث،
وعليك التكلان، ولا حول ولا قوة إلا بك، وأنت حسبنا، ونعم الوكيل. انتهى
كلامه **رحمته الله**. اهـ.

ولعل في هذا القدر من الشرح كفاية، وقد فرغت منه في بني شيكر،
الناظور، في شمال المغرب العربي، ليلة الأحد منتصف الليل
الثامن والعشرين من ذي القعدة، سنة إحدى وأربعين
وأربعمائة وألف. والله أسأل أن يجعل عملي خالصا
لوجهه، وذخرا لي يوم لا ينفع مال ولا بنون.
سبحانك اللهم! وبحمدك، أشهد
ألا إله إلا أنت، أستغفرك،
وأتوب إليك.





فهرس

الموضوعات



الصفحة

الموضوع

٥	تقديم الشيخ أبي عمرو عبد الكريم بن أحمد الحجوري
٦	تقديم الشيخ أبي محمد عبد الحميد الحجوري
٩	مقدمة الشرح
١٣	مقدمة المصنف
١٥	نبذة من ترجمة الإمام محمد بن عبد الوهاب
١٧	وصول دعوة الإمام محمد بن عبد الوهاب إلى المغرب
٢٠	متعلق الجار والمجورور في البسمة
٢١	حول لفظ الجلالة واشتقاقه
٢٣	حول لفظ الجلالة ودلالته
٢٤	اسم الله الرحمن الرحيم
٢٥	نكتة الاقتران بين الاسمين
٢٦	نكتة في الفرق بين الملك والمالك
٢٨	ما يكفي لفهم المراد بالأصول
٢٨	تقسيم الدين إلى أصول وفروع
٢٩	نكتة في الاكتفاء بما اكتفى به الصحابة رضي الله عنهم
٣٠	مزيد تقرير لبطلان تقسيم الدين إلى أصول والفرع
٣١	من مفاصد تقسيم الدين إلى أصول وفروع
٣٢	التأصيل في القرآن أكثر
٣٤	وجوب تدبر القرآن والسبب في ذلك
٣٤	المعالجة لإهمال تدبر القرآن
٣٦	من أوصاف قلة أهل الحق

الأصل الأول

٣٨

٣٨

حقيقة الإخلاص

٣٩

الإخلاص حقيقة توحيد العبادة

٣٩

تفسير النصوص لمعنى توحيد العبادة

٤٠

عظم هذا الأصل

٤٢

إخلاص العبادة حق الله لا يشركه فيه غيره

٤٤

ضابط الضدين والتقيضين والفرق بينهما

٤٥

إيراد والجواب عنه

٤٧

تأثير الشرك الأكبر على التوحيد والعمل

٤٧

تأثير الشرك الأصغر على التوحيد والعمل

٥٠

نكتة في بيان أهمية معرفة الشرك

٥٢

القلب ملك الأعضاء إن لها لعبت

٥٣

بدو التوحيد وانتشاره

٥٥

انتشار الشر والشرك بعد وحدة الأمة

٥٥

التصوف من البدع التي تسببت في انتشار الشرك

٥٧

الشبهة في إيقاع المشركين الأولين في الشرك

٥٨

الشبهة في إيقاع المتأخرين في الشرك

٦٠

عبادة الصالحين تقصير في حق الله

٦٠

قبح الشرك معلوم بالعقل

٦٢

حقيقة الغلو في الصالحين بخس لحقهم

٦٣

قاعدة في رد الغلو في الصالحين

٦٥

خاتمة في هذا الأصل

٦٧

الأصل الثاني

٦٧

المراد بالتفرق المنهي عنه

- ٦٩ أمر الله أمران كوني وشرعي
٧٠ ما يتعلق بالأمر الكوني في مسألتنا
٧١ سبب تفرق الناس إلى ملل شتى عدم توحيد العبادة لله
٧٢ الشرك مادة التفرق
٧٣ من أسباب تفرق الأمة إلى نحل شتى عدم التمسك بالسنة
٧٤ البدع مادة التفرق
٧٥ التفرق في توحيد العبادة وفي توحيد المتابعة قدره الله
٧٨ كل فرق هذه الأمة هالكة إلا واحدة
٨٠ من أسباب التفرق الراجعة إلى ذات المختلفين
٨١ ما يحسم مادة التفرق
٨٣ الفرقة الناجية واحدة على مضي الزمان
٨٥ ألقاب الفرقة الناجية على حسب الحاجة
٨٦ نكتة في بيان معنى كلمة «السلف» و«السلفي» و«السلفية»
٨٩ حال حديث: «اختلاف أمتي رحمة»
٨٩ ما سببه حديث: «اختلاف أمتي رحمة» من الآثار السيئة
٩٠ العلم والفقه في إزالة النزاع الذي يسبب افتراق الأمة
٩٣ أثر الحسن: أهل رحمة الله لا يختلفون اختلافا يضرهم
٩٧ خاتمة في هذا الأصل

الأصل الثالث

- ١٠١ المناسبة بين هذا الأصل والأصلين المتقدمين
١٠٤ من تمام الاجتماع طاعة ولي الأمر في غير معصية الله
١٠٦ دلالة الكتاب على هذا الأصل
١٠٨ دلالة السنة على هذا الأصل
١١٠ عقيدة أهل السنة في هذا الباب

- ١١١ تقييد وجوب طاعة الأمراء بما ليس فيه معصية لله
- ١١٧ الخروج على الحكام والأمراء المسلمين سنة خارجية سيئة
- ١١٨ في التاريخ عبرة لمن يعقل مفسد الخروج على الأمراء
- ١٢١ إذا تظاهر الأمير بمعصية دون الكفر
- ١٢٢ وجوب كراهة المعاصي ممن جاء بها
- ١٢٣ ما ذهب إليه بعض العلماء من الخروج على أمراء ظلمة
- ١٢٦ حديث مشكل والجواب عنه
- ١٣٠ إذا تظاهر الأمير بكفر
- ١٣٣ من علامات أهل الأهواء الطعن على السلطان
- ١٣٤ من أصول أهل السنة والجماعة الدعاء للسلطان المسلم
- ١٣٥ خاتمة في هذا الأصل
- ١٣٧ الأصل الأربع**
- ١٣٨ العلم القرآن والسنة
- ١٤٠ أهم ما يتصف به العلماء الخشية
- ١٤٣ مادة الفقه الكتاب والسنة وما يتبع ذلك
- ١٤٧ نكتة في بيان سبب عدم توفيق الله للمتشبهين بالعلماء
- ١٥٢ تحريف النصوص
- ١٥٥ كتمان العلم
- ١٥٧ الدعوة إلى الضلال لنيل حطام الدنيا
- ١٥٨ إنكار ما كان معروفا لديهم سابقا
- ١٦٤ نكتة في بيان غاية جهل بعض المتشبهين بالعلماء
- ١٦٥ ما يستحقه من تقدم ذكرهم من المتشبهين بالعلماء
- ١٦٦ السر وراء إنكار المتشبهين بالعلماء للعلم النافع وأهله
- ١٦٧ خاتمة في هذا الأصل



الأصل الخامس

١٦٩

١٦٩

١٧٠

١٧٣

١٧٤

١٧٦

١٧٧

١٨٠

١٨١

١٨٤

١٨٧

١٩٠

١٩٣

المناسبة بين هذا الأصل وبين المتقدم

سبب التباس أولياء الله بغيرهم والمزيل له

أول صفة لأولياء الله محبته لهم ومحبتهم له

محبة العبد لربه

كل ذوق ووجد لا تشهد له الشريعة فهوى

محبة الله لعبده

ولي الله ذلول على المؤمنين وعزيز على الكافرين

ولي الله لا يخاف لومة لائم في جهاده لله ولا في غيره

أولياء الله هم المتقون

رد ادعاء الاستغناء عن العلم النافع

شبهة أخرى والجواب عنها

خاتمة في هذا الأصل

١٩٦

الأصل السادس

١٩٨

١٩٨

٢٠٠

٢٠٣

٢٠٧

٢٠٨

٢٠٩

٢١٠

٢١١

٢١٣

مناسبة هذا الأصل للأصول المتقدمة

مقدمتان في أساس شبهة حصر العمل بالوحيين على المجتهد

ما تستلزمه الشبهة المذكورة من البهتان العظيم

بيان اكتفاء العلم بالحكم من الكتاب والسنة للعمل بهما

من أشنع الباطل القول بكون الأخذ بظاهر النص كفرا

تزيين المقلدين لشبهة صعوبة فهم الكتاب والسنة

رد منع العمل بالكتاب والسنة من الحيثية الشرعية

رد منع العمل بالكتاب والسنة من حيث القدر

رد منع العمل بالكتاب والسنة من حيث الخلق

رد منع العمل بالكتاب والسنة من الحيثية الأصولية

- ٢١٧ من الثمار الطيبة للاعتناء بهذا الأصل
٢١٨ خاتمة في هذا الأصل
٢٢٠ نكتة في مكوث ما ينفع الناس وذهاب الزبد نسيا منسيا

